صيحة فولتير

لعل القارىء الذي يمعن النظر في النهج الذي تلتزم به المعرفة فيما تنشره من مادة فكرية وادبية ، يستطيع ان يمسك بحقيقة ناصعة في وضوحها ؛ وهي انا نعتمد في ذلك على قاعدة نحاول بقدر ما يتاح لنا من رؤية الضوء ؛ أن نتمسك بها ، وهي قاعدة تقوم على اختيار المادة التي نعتقد انها تستطيع ان تقول شيئا جديداً للقارىء ؛ وأن تضيف جديداً الى معلوماته ، وان تسهم في تنمية مقدرته على التذوق، وان يكون لها شأن ما في الانتقال بالقارىء من عصر مضى ، إلى عصر مقبل ؛ وان تساعد على اكتشاف مواهب جديدة كان من الممكن الا تأخذ سبيلها الى الظهور ، لولا أن أتيحت لها الفرصة لأن تفعل ذلك .

ونحن في ذلك كله لا ننطلق من نظرة مسبقة تقوم على افتراض مقاييس محددة وثابتة لا نحيد عنها ، ولا نقع أسرى لصيغ جاهزة لا نخرج عليها بحال من الاحوال ، ولا نخضع انفسنا لأية قيم فنية

أو فكرية أو نقدية نعتقد ان على المجلة ان تلتزم بها بصورة مسبقة ، وانما ننطلق من تلك الصيحة التي اطلقها فولتير في القرن الثامن عشر ، والتي اتخذتها احدى المجلات العربية الشقيقة شعارا لها ، وهي التي يقول فيها فولتير : قد اختلف معك في الراي ولكني على استعداد لان ادفع حياتي ثمناً لحقك في الدفاع عن رايك .

قد يعترض معترض فيقول إن المطلوب من المجلة الثقافية هو ان تلتزم بقناعات محددة لا ترضى لأحد كتابها ان يخرج عليها . ونحن نوافق على هذا الاعتراض ، لكننا نضيف اليه ملاحظة صغيرة وهي ان التزام المجلة الاول ينبغي أن يكون التزاماً بخطوط فكرية عريضة لا تحيد عنها . بمعنى ان تكون لها شخصيتها الخاصة ، وهويتها التي تتميز بها من غيرها من المجلات ، دون أن تخضع لسلطان فكرة احادية توجه مسارها .

ومن هذا المنطلق فان المعرفة تعني بنشر اية مادة ترقى الى مستوى النشر ، وتختار من بين ما يرد اليها من مواد ، المادة الاكثر صلاحية للنشر ، بصرف النظر عما اذا كانت هذه المادة تنحاز الى وجهة نظر فكرية ما ، أو وجهة نظر فكرية اخرى ، وبغض الطرف عما اذا كانت وجهة النظر هذه تطابق وجهة نظر محددة ومقررة سلفاً أم لا ، كما انها تعهد الى كتاب عديدين على امتداد الوطن العربي بأن يوافوا المجلة بانتاجهم ، دون أن تشترط مسبقاً أن يكون لهؤلاء الكتاب انتماء فكري محدد ، فيما عدا انتماؤهم لأمتهم العربية ولقوميتهم ولحضارتهم .

نحن لسنا ضد ان يكون للمجلة منظور فكري تلتزم به ، لكننا ضد ان نخضع المجلة لأي شكل من أشكال الجمود العقائدي ، والتحجر الفكري . . ونحن لسنا ضد أن تكون للمجلة وجهة نظر تنقلها للقارىء، لكننا ، وبكل تأكيد ، نرحب بأن نصغي الى وجهة النظر الأخرى ،

ما دامت وجهة النظر الأخرى هذه لا تخرج على المنطلقات الفكرية الاساسية التي يعترف بها الجميع ويقرون بها إقراراً لا لبس فيه ولا غموض .

من هنا يأتي هذا التنوع في مادة المجلة ، ومن هنا ايضاً تتعدد الآراء ، وتختلف الاجتهادات ، وتتنوع الأفكار ، ضمن اطار الخط القومي الاشتراكي ، وهو ما يستطيع ان يلحظه القارىء بجلاء في كل ما صدر عن المعرفة من اعداد في الفترة الأخيرة ، وفي هذا العدد على وجه التخصيص .

ان المستوى التقني في اداء الفكرة لا يقل اهمية عن الفكرة ذاتها . والفكرة الجيدة التي يعبر عنها على نحو رديء ، تصبح فكرة رديئة ، ومن هنا يأتي حرصنا على مستوى المادة المنشورة ، ومن هنا يجيء الحاحنا على ان الفكرة الجيدة لا بد ان يجري التعبير عنها على نحو جيد .

رئيس التحرير

عـودة الـروح
إلى فكرنا القومي

صفوان قدسي

لعل حافزي الأول إلى كتابة هذا المقال ، هو أنني عندما قرأت بامعان شديد سلسلة المقالات التي كتبها الاستاذ جورج صدقني في الأعداد الأخيرة من« المعرفة » ، والتي سوف يتابع كتابتها في الأعداد المقبلة ، شعرت للوهلة الأولى بأنني وقعت على شيءٌ جديد غير مألوف في كتاباتنا القومية: هذا الشيءُ الجديد غير المألوف الذي تضمنته هذه المجموعة من المقالات التي أعتقد أنها تستحق أن يثار من حولها حوار جدير بأن يضفي عليها قيمة أخرى غير القيمة الذاتية التي تتمتع بها ، وهي أن تحرك هذا الصمت الفكري ، وذاك الكسل العقلي ، وأن تعيد الى الحركة الفكرية في هذا القطر العربي السوري بالذات ، شيئاً من حيويتها التي افتقدتها لسبب أو لآخر ، وقدراً من طاقتها على أن تقول ماكان قوله يدخل في باب المحرمات ، وماكان مجرد الاقتراب منه يكاد أن يصم صاحبه بالزندقة الفكرية والتجديف العقائدي . . . أقول إن هذا الشيءُ الجديد غير المألوف الذي تضمنته هذه المجموعة من المقالات ، هو أنها ردت الاعتبار

إلى بدهيات فكرنا القومي العربي ومسلماته الأولية التي كادت لكثرة ما أهملت ، ولكثرة ماجرت محاولات منظمة للنيل منها ، ولكثرة ماواجهت من حملات القذف والتشهير ، أن تنقلب من بدهيات ومسلمات إلى مسائل مشكوك في صوابها ، إن لم يكن مشكوكاً اساساً في انها تمثل حقيقة وجودنا القومي ذاته .

ومن يمعن النظر في فكرنا العربي المعاصر سوف يضع يده على حقيقة ناصعة في وضوحها ، وهي ان هذا الفكر أصبح بشكل من الأشكال فكراً استلابياً ، بمعنى أنه أصبح فكراً غريباً عن القارئ الذي يوجه إليه ، ومن هنا نشأت هذه الغربة ، أو لنسمها العزلة ، بين القارئ العربي وبين الكتاب العربي . الكتاب العربي يصادر على حق القارئ العربي في أن يقرأ نفسه في هذا الكتاب . والقارئ العربي بدوره يراوده شعور حاد بأنه قارئ مستلب ، أي انه قارئ لايملك إزاء مايقرأ إلا أن يتوقف ولو للحظات قليلة متسائلاً عما إذا كان هذا الذي يقرأه ، يمت إليه بأية صلة . وأذكر انني قرأت بعد هزيمة الخامس من حزيران كتاباً لمفكر عربي ليس لدي أي شك في كفاءته العلمية ، كان في جملته محاولة لسلب القارئ العربي ، ولا أقول المواطن العربي ، لأن قلة من المواطنين العرب هي التي تملك أن تقرأ هذا الكتاب ، من كل القيم التي يؤمن بها ، هكذا دفعة واحدة ، ودون تمييز بين قيم يجب أن تسقط من حياتنا ، وبين قيم أخرى تستحق أن تحيا وتستمر . وباسم النقد الذاتي ، سلب المؤلف قومه من كل مايجعلهم جديرين بأن يكون لهم دور ما في هذا العالم ، على الرغم من أن عملية السلب هذه صيغت بلغة تدعي الدقة والموضوعية والتحلي بالروح العلمي والبعد عن التجني

ومحاولة البحث عن الحقيقة وتقصيها حيث توجد .

وأنا هنا لست بصدد مناقشة هذا الكتاب الذي مضى على صدوره حتى الآن مايقرب من سبعة أعوام ، والذي فقد الجزء الاعظم من قيمته بعد حرب تشرين وما تحقق فيها من انجازات عسكرية كبرى لم يستطع حتى غلاة الأعداء أن ينكروها أو يتنكروا لها،وإنماالذي يهمني الآن هو ان أضع اليد على حقيقة واحدة ، وهي ان الفكر العربي قد شحن في السنوات الأخيرة بمجموعة من الأفكار والاتجاهات والتيارات جعلت منه فكراً استلابياً يقيم بينه وبين القارئ العربي حاجزاً يخسر معه مقدرة الفعل والتأثير ، وهو مايتوخاه عادة الكتاب والمفكرون .

أعود من حيث بدأت فأقول إن بدهيات فكرنا القومي العربي ومسلماته الأولية ، أي تلك التي كنا نشفق على من يفكر في أن تكون موضع نقاش ، أو موضع أخذ ورد ، أصبحت بمرور الزمن موضع شك واتهام ، ولم يعد ماكان بدهياً بالأمس ، بدهياً اليوم ، ولم تسلم المسلمات من أن تمس وتحاط بالريبة والشك .

ومنذ سنوات عديدة ، وفكرنا القومي العربي يتعرض لحملة من التشكيك تستهدف في نهاية المطاف إظهار عجز هذا الفكر وقصوره ، بل ورجعيته وتعصبه . كان هناك من يقول ان فكرنا القومي متعصب ومنغلق على نفسه ، وكان هناك من يقول ان فكرنا القومي فكر غيبي ميتافيزيقي لايتسم بأي قدر من المنهجية العلمية ، وكان هناك من يقول ان فكرنا القومي أصبح عاجزاً عن مواكبة حركة العصر وجريانه .

بل لقد وصل الأمر في بعض الأحيان إلى حد اتهام فكرنا القومي بأنه فكر رجعي ، هكذا مرة واحدة .

ثم انتقل الأمر إلى مرحلة أخرى في هذه المجابهة المحتدمة مع خصوم الفكر القومي ، وبدأت هذه المرحلة بعملية منظمة للنيل من القامات المديدة في فكرنا القومي . ولم يكن ثمة بد من أن ينال مفكراً من طراز زكي الارسوزي ، ومفكراً آخر من طراز ساطع الحصري ، بعض الأذى في هذه المجابهة . فالرجلان يمثلان قامتين مديدتين في فكرنا القومي ، ولكي لاتحقق هذه المجابهة مع الفكر القومي ، فانه يتوجب بادئ ذي بدء أن يسقط الرجلان عن العرش الذي تربعا عليه عقوداً من الزمن .

وأذكر انه حين شكلت منذ سنوات لجنة خاصة بتخليد زكي الأرسوزي ، انبرى من يتساءل ، في السر أو في العلن ، عن الضرورة التي أملت اتخاذ قرار بتشكيل هذه اللجنة التي كان من مهامها الأساسية التي ماتزال تسعى حتى الآن إلى تحقيقها ، جمع المؤلفات الكاملة لزكي الارسوزي وطبعها في مجلدات تكون في متناول القارئ العربي.بل لقد وصل الأمر في بعض الأحيان إلى حد تسفية الرجل وإظهاره بمظهر من خضع لسلطان الفكر القومي الالماني في صورته الفاشية .

وأنا اعرف ان الكثيرين ممن لايحبون الارسوزي إنما يدفعهم إلى ذلك ماهو معروف عن الرجل من حب عظيم للغتنا القومية . انهم لايحبون في الارسوزي موقفه العقلاني من اللغة العربية ، ومقدرته الفريدة على اكتشاف مواطن العبقرية في هذه اللغة . ولقد مضى البعض من هؤلاء

إلى اعتبار ماكتبه الارسوزي عن اللغة العربية وعبقريتها نوعاً من الخضوع لسلطان « فيخته » الذي كانت له آراء محددة حول دور اللغة في بناء الأمة وفي حضورها وفي استمرارها ، وشكلاً من أشكال الاذعان لفلسفة في القومية تقوم على النظر إلى اللغة باعتبارها احدى المقومات الاساسية لقيام الأمة . ومضى البعض الآخر إلى اتهام الارسوزي بالتعصب القومي الذي استعاروا له من بعض اللغات الاجنبية اسم « الشوفينية » .

وبطبيعة الحال ، فإن الارسوزي لم يكن بريئاً من أي مثلبة ، لكن الرجل كانت له اجتهادات تستحق أن تنال حقها من التقدير وأن توضع في الموضع اللائق بها . وقد تكون للرجل آراء لايمكن أن تكون موضع اتفاق ، بل قد تكون له اجتهادات لايقر معليها إلا نفر قليل من الناس ، لكن الذين اختلفوا مع الارسوزي لم يختلفوا معه في الأساس إلا تحت تأثير اعتبارات سياسية .

احاول أن أقول ان ما بدا في لحظة من اللحظات سوء فهم للارسوزي ، أوحتى رؤية فكرية مخالفة بشكل أو بآخر لرؤيته الفكرية ، لم يكن في نهاية المطاف غير تعبير عن موقف هو في التحليل الأخير موقف سياسي . كان الارسوزي يحاول من خلال تعمقه في فهم اللغة العربية واستيعاب أبعادها واستكشاف آفاقها وتعيين دورها الحضاري ، ان يشد انتباه قومه وأمته إلى حقيقة أن الأمة العربية أمة واحدة تشهد لغتها على سموها وعظمتها وعراقتها ، وأن يجعل العرب بالتالي أكثر ثقة بأنفسهم في المجابهة الحضارية والثقافية ، وفي المجابهة القومية المحتدمة بينهم وبين اعدائهم . في حين كان لخصوم الارسوزي موقف سياسي آخر ليس هذا مجال البحث فيه .

واذكر انني كتبت ذات يوم ان خصوم الارسوزي ما زالوا موجودين في حياتنا . انهم موجودون في اثارتهم الشكوك حول اللغة العربية ومقدرتها على مواكبة التطور . انهم موجودون في دعوتهم إلى سلب العرب من تاريخهم . انهم موجودون في سعيهم إلى اصطناع فجوة بين العرب وبين تراثهم . انهم موجودون في وصمهم الفكرة القومية بالرجعية . انهم موجودون في اثارتهم الشكوك حول جدوى الوحدة العربية . بل انهم موجودون ، وهذا أغرب ما في الأمر ، في اثارة اللبس حول حقيقة وجود الأمة العربية .

انني لا أصدر في دفاعي عن الارسوزي عن عاطفة شخصية ، وإنما أصدر بالدرجة الأولى عن عاطفة « عاقلة » . فأنا أحب في الارسوزي محبته للغه العربية ، وأنا أحب في الارسوزي ايمانه بأن العربي في حقيقته النقية الصافية صورة للانسان الاعلى . وأنا أحب في الارسوزي ثقافته العميقة وعقله المتقد . وأنا احب في الارسوزي اقتحامه لمغاليق اللغة العربيةوالغازها، وامتلاكه لمفاتيحها . وأذكر انني كتبت مرة انني اخشى بأن تلصق بي تهمة التعصب لهذا المفكر العظيم الذي تعلمنا منه الكثير ، لو انني قلت ان تخليده انجاز ثقافي وقومي لاتقوى على النهوض بهغير الأمم التي تعرف انها مدينة في شيء من وجودها إلى هذه القامات المديدة التي تظهر بين عصر وعصر .

. . .

ولعله مما يستوقف الانتباه هو ان يكون لساطع الحصري ولزكي الارسوزي كل هذا الحضور الذي يكاد أن يلغي وجود الآخرين (اين هم الآخرون أساساً إذا كان لهم وجود) ؟. وهذان العملاقان ، برغم غيابهما، ما زالا قادرين على ابقاء الآخرين في الظل . وعلى الرغم من ان هذه ليست

ظاهرة صحية ، فانني هنا لست بصدد اصدار أحكام قيمة ، وإنما أنا بصدد وصف حالة راهنة لها وجود قائم بالفعل .

والاغرب من ذلك أن فكرنا القومي بعد الحصري والارسوزي لم يقل جديداً . وليس من السوء في شيء أن يستمر حضور الرجلين إلى هذا الحد، وليس من السوء في شيء أن يعود فكرنا القومي إلى هذين المنبعين الأساسيين ليأخذ منهما ما يساعده على أن يضيف في يوم من الأيام شيئاً جديداً يغني هذا الفكر ويتقدم به خطوات إلى الأمام . لكن من السوء أن تكون ثمة محاولات لهدم هاتين القامتين المديدتين في فكرنا القومي العربي .

وإذا كنت أحاول في هذا الصدد أن أشير إلى جهد كبير بذله مفكر عربي سوري له شأن مرموق في حياتنا الفكرية العربية ، لنقد الفكر القومي ابتداء من ساطع الحصري ، فانني بذلك لا انتقص من قيمة هذا الجهد الذي اعتقده انه يمكن أن يفيد كثيراً في دفع فكرنا القومي قدماً إلى الأمام على طريق تطوير نفسه ومجاراة عصره . فقد قرأت منذ سنوات كتاباً من تأليف إلياس مرقص تحت عنوان : « نقد الفكر القومي .. ساطع الحصري » ، وأذكر ان المؤلف قد وعد في مقدمة كتابه الضخم عن ساطع الحصري أن يتناول بالنقد آخرين اسهموا في حركة الفكر القومي العربي ، غير انه ، في حدود ما أعلم ، لم يف بوعده حتى الآن .

ومن يقرأ هذا الكتاب فإن الشعور الذي ينتابه هو ان ثمة محاولة لاعدام ساطع الحصري . وعندما تأتي المحاولة من مفكر كانت له ، وما زالت ، اسهامات أصيلة في حياتنا الفكرية ، فان الشعور الذي ينتاب القارىء عندما ينتهي من قراءة هذا الكتاب الذي لا أشك في انه بصرف النظر عن اختلافنا

مع مؤلفه حول عديد من المسائل التي طرحها ، يمثل جهداً عظيماً في تطورنا الفكري ... أقول ان الشعور الذي ينتاب القارىء هو أن ساطع الحصري قد تعرض لظلم فادح . صحيح ان ساطع الحصري ليس فوق النقد ، بل ان كثيراً من أفكاره يجب أن تناقش وتدحض في حالات معينة ، لكن ساطع الحصري بكل تأكيد فوق الهدم .

احاول أن أقول ان ساطع الحصري لايعلو على النقد ، لكن نقد الحصري شيء ، وحرق مكتبته شيء مختلف تماماً . كذلك فإن أية محاولة لتخطي ساطع الحصري وتجاوزه ليست مرفوضة أساساً ، لكن ذلك كله لايستدعي أن نحكم على الرجل بالاعدام ، وان نلقي بكتبه في مياه بردى . وأنا هنا لا أطعن في محاولة نقد ساطع الحصري ، لكني أخشى ان نهدم ساطع الحصري ، وأن نعدم زكي الارسوزي ، ثم لا نجد أمامنا غير هذا الخواء الفكري الذي يضع الفرصة سانحة أمام خصوم الفكر القومي لكي ينفذوا فيه حكم الاعدام رمياً بالرصاص عند الفجر . ان زكي الارسوزي وساطع الحصري ليسا صنمين للعبادة والتقديس ، لكن الرجلين جزء من تراثنا الفكري ومازال لهما حضورهما الراهن . والخطر كل الخطر هو ان تسقط هاتان القامتان المديدتان من حياتنا الفكرية دون أن تملأ مكانهما قامات مديدة أخرى جديدة .

. . .

لم لا تكون هذه المجموعة من المقالات بداية لما يمكن أن نسميه بعودة الروح إلى فكرنا القومي ؟.

إن هذه المقالات بما تقوم به من رد الاعتبار إلى فكرنا القومي ، ومن

العودة مجدداً إلى بدهيات هذا الفكر ومسلماته الأولية ، وبما توحي به من إن مرحلة ذوبان الجليد يمكن أن تبدأ من جديد في حياتنا الفكرية ، تكاد أن تكون شكلاً من أشكال عودة الروح إلى فكرنا القومي .

ان عودة الروح هذه شرط لابد منه لكي تنهض في فكرنا القومي قامات مديدة أخرى جديدة ، غير تلك القامات المديدة التي ظهرت في وقت من الأوقات وما زال لها حضورها الفكري بيننا حتى الآن .

وعودة الروح هذه لا ينبغي لها أن تتوقف عند هذه الحدود ، فالآفاق رحبة ، والرقابة على الكاتب ليست سوى رقابة ضميره ، والحوار في حدود بدهيات فكرنا القومي ومسلماته الأولية ، مباح بغير رقيب سوى احساس المفكر بالمسؤولية .

أكاد أقول ان الفرصة قد سنحت الآن أمام المفكرين القوميين لكي يبعثوا الحياة من جديد في فكرنا القومي ، ولكي يشرعوا في حواره هدفه الأول والأخير أن يكون لفكرنا القومي صوته المسموع الذي ظل خافتاً لفترة من الزمن .

* * *

السياسة الخارجية الأمريكية والصراع العربي الإسرائيلي

محيي الدين ناصر

« يقصد هذا البحث إلى إلقاء الأضواء على تطور اهتمام الولايات المتحدة الأمريكية بالمنطقة العربية . ثم يحاول أن يتفهم مرامي الدبلوماسية الأمريكية وأسلوبها في معالجة مسألة الشرق الأوسط . ويقف هذا الجزء من البحث عند السادس من تشرين الأول عام ١٩٧٣ ، ويمضي الجزء الثاني إلى فترة أبعد تقف عند توقيع اتفاقيتي الفصل على الجبهتين المصرية والسورية إثر حرب تشرين ١٩٧٣ .

أما الجزء الأخير منه فهو يمضي مع السياسة الأمريكية ، متابعاً نشاطها ، إلى أن تم لها إنجاز توقيع اتفاقية سيناء بين جمهورية مصر العربية والكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة .

والبحث بعامة ، لا يتبنى منهجاً تاريخياً معيناً ، بل لا يقصد إلى أن يكون تاريخاً للنشاط الدبلوماسي الأمريكي الذي تطمح ، مدعياً ، معالجة الصراع العربي الصهيوني . انه يحصر طموحه في رصد بعض جوانب النشاط ، وليس النشاط كله » .

— ١ —

يتحرك النظام الأمريكي وفقاً لقانون الربح بأبسط معانيه ، الأمر الذي يجعله واضح الطبيعة ، محدد الأهداف . ومن هنا يتعذر على أي رئيس أمريكي أن يغير في الأهداف ما لم يغير من طبيعة النظام ومثله . لذا فإنه مهما اتخذت أساليب السياسة الأمريكية من مظاهر مرنة أو متشددة فهي من جهة أولى تقصد إلى تحقيق هذه الأهداف ، كما أنها تأتي من جهة ثانية

نتاجاً للمركب (الاقتصادي العسكري) الذي يحكم الولايات المتحدة . وسواء انتهجت الولايات المتحدة الأمريكية الدبلوماسية الهادئة في ظل العصا الغليظة (على رأي الرئيس تيودور روزفلت) أو أدارت علاقاتها الخارجية في ظل الدولار (الذي يبدو أكثر تكيفاً مع الشروط العصرية للعلاقات التجارية التي تستبدل القنابل بالدولارات على رأي الرئيس تافت) فهي في الحالتين تستند إلى قوة الولايات المتحدة . والولايات المتحدة تملك القوة بأشكالها وأنواعها إذ لديها القوة الخبيئة (Potintial Power) وتستطيع أن تعبئها في أي وقت تشاء . ولديها قوة المهابة (Prestige Power) فالدول الأخرى ترى قوة الولايات المتحدة وتسبّابها ، ولديها فوق هذه وتلك القوة الفعلية (actual Power) والتي تستطيع أن تستخدمها لحظة تشاء .

ولقد كان أبرز ما في الدبلوماسية الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية ، أنها استندت في ممارساتها إلى القوة . والدكتور كيسنجر بآرائه المبثوثة في كتبه وتصريحاته ، وفي توجيهه السياسة الأمريكية ، يركز كثيراً على فعالية القوة (١) (لأن دبلوماسية من غير قوة تستند إليها تبقى عقيمة (٢) . كما أنه يريد نظاماً عالمياً يكون بقيادة الولايات المتحدة . ويقترح لتحقيق ذلك استخدام مركب من الدبلوماسية والقوة . لا سيما وأن السلام الشامل أمر مستحيل ولكن يمكن التوصل إلى استقرار عالمي (٣) . بيد أن الاستقرار العالمي لا ينفي مطلقاً اندلاع حرب هنا وأخرى هناك من النوع الذي دعاه الدكتور هنري كيسنجر منذ عام ١٩٥٧ بـ (الحروب المحدودة) . على أن تكون هذه الحروب مضبوطة النتائج ، فلا تؤدي إلى تغييرات جذرية في الأنظمة تتعارض ومصالح الرأسمالية .

ويبدو أن هذا النوع من الحروب يتلازم مع مسيرة السياسة الأمريكية التي لا تستطيع أن تتصور عالماً من غير منازعات على الرغم مما يراه الساسة الأمريكيون من (أن التوسع الاقتصادي الأمريكي والديمقراطية في العالم الثالث لا يمكن أن يسيرا جنباً إلى جنب (٤)) ؛

---

(١) السر المعروف ، فرجينيا برودين مارك سلدن ، الترجمة العربية صفحة (٢٧) .

(٢) المرجع السابق – صفحة (٢٤) .

(٣) ان الاستقرار مهم للرأسمال بعامة ، وللرأسمالية الامريكية بخاصة إلا أننا نلاحظ أن الولايات المتحدة قد فهمته على أساس تجميد المجتمعات وتكليس تطورها .

(٤) الامبراطورية الأمريكية ، كلود جوليان ، الترجمة العربية صفحة (٣٠٥) .

بيد أن سخط العالم الثالث على السياسة الأمريكية يبرهن على خطأ قناعات السياسيين الأمريكيين ونهجهم . أما خطبهم المحشوة بالشعارات المعسولة (كالحديث عن تقدم البشرية ، والرسالة الاستثنائية للولايات المتحدة الأمريكية) فلقد أصبحت واضحة ومرفوضة حيث تتوخى استمرار سيطرة الولايات المتحدة العالمية وتوفير الظروف المناسبة للمركب الاقتصادي العسكري الأمريكي ليحقق ما يدعوه الدكتور كيسنجر « بالمصالح العليا للولايات المتحدة » ويكشف السيد جونسون عن هذه المصالح العليا منذ أن كان نائباً للرئيس كنيدي ، في حديث له في آب عام ١٩٦٣ « أعتقد أنه لا يمكن لأي حزب أن يكون صديقاً للشعب الأمريكي ، إن لم يكن صديقاً لرجال الأعمال » .

على أي حال قد يتلخص ما أراده الدكتور كيسنجر من تصريحه الذي أطلقه عقب استسلام سايغون والذي يقول فيه : (ان بلاده بحاجة إلى سياسة خارجية تستمر عشرات السنين) ، بأن السياسة الخارجية الأمريكية عاجزة عن ذلك ، ويفسر كلود جوليان عجز الولايات المتحدة عن تحقيق ذلك بأن « العالم يتطور بسرعة تفوق تطور مفاهيم حكام الامبراطورية الامريكية (٣) أو قد يتضمن دعوة للمعاصرة تمزج التراث الأمريكي في إدارة العلاقات الخارجية ، مع مقتبسات الدكتور كيسنجر عن المنجزات (المترنيخية) ، وبحيث يخرج بالولايات المتحدة إلى اتباع أسلوب متطور لا يمس الأهداف ولا ينال المضمون ، بقدر ما يحاول توفير وسائل معاصرة لأهداف « قديمة جديدة » . لا سيما وأن العالم قد تطور فجاء بوقائع جديدة ، لا تملك حيالها الولايات المتحدة ، مهما كابرت غير أن تعترف بوجود هذه الوقائع عملياً ، كما اعترفت بها نظرياً .

فخارطة العالم السياسية التي نتجت عن الحرب العالمية الثانية قد تغيرت كثيراً . لقد استقبل النادي الذري وما زال يستقبل أعضاء جدداً . واستقبل النادي الاقتصادي وما زال يستقبل أعضاء جدداً ، وهؤلاء الأعضاء بقاماتهم الذرية والاقتصادية يفرضون يوماً بعد يوم فعالية ملحوظة على الحياة الدولية . ومما لا ريب فيه أن واقعاً كهذا كان يتطلب من الولايات المتحدة مراجعة جدية لسياستها الدولية . ولقد برز الدكتور كيسنجر البطل المرشح لهذا الدور . ومن هنا ، فإن الأسباب التي نقلت السياسة الأمريكية من الحرب الباردة إلى حالة الوفاق التنافسي (étent compitition) « وإلى مشهد المفاوضات النشطة ، لا تنبثق عن تراجع

---

(٣) المرجع السابق صفحة (٤٦٣) .

« يرى الدكتور هنري كيسنجر أن المنافسة سوف تستمر بين العملاقين لاستقطاب الدول غير المنحازة . (مفهوم السياسة الخارجية الأمريكية) إعداد حسين شريف صفحة (٥١) .

الحكام الأمريكيين بقدر ما تتأتى من ضغط الحقائق على الساحة الدولية ، الأمر الذي لا بد وأن يفسد أي جهد أمريكي لمحافظة على وقائع ما بعد الحرب العالمية الثانية ، ولكن ذلك كله كما يبدو لن يغير من مطامع الامبريالية الأمريكية إلا إذا اضطرت إلى ذلك ، لا سيما وأن المهندس الكبير لعلاقاتها الخارجية ما يزال يوجه جل نشاطه إلى إيجاد سلام مؤقت يؤسسه على توازن قوى هي متغيرة بطبيعتها ولیس إلى سلام دائم يقوم على العدل ، ولعل أوضح مكان تتوضح فيه صورة هذا النشاط ومنطقه الداخلي هو الصراع الدائر على أرض الشرق الأوسط بين العرب وإسرائيل .

— ٢ —

لقد تأخر اهتمام الولايات المتحدة الرسمي بالمنطقة العربية ، بالقياس إلى المطاحنات الدولية التي كانت تجري لبسط النفوذ الأجنبي على المنطقة بكاملها .

وقد جاءت أول التفاتة رسمية أمريكية ، مثيرة للانتباه ، في تصريح للرئيس ولسون ، قال فيه : (إن تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين ، من النتائج الإيجابية لحرب) . بيد أن أهمية اكتشاف أهمية المنطقة لمصالح الأمريكية تبلور وترسخ مع تطور الاهتمامات النفطية بعد أن ابتدأت المنطقة العربية تكسب أهمية عالمية خاصة ،

وبدأ التدخل الرسمي للولايات المتحدة الأمريكية في شؤون الأقطار العربية اثر رفض الحكومة البريطانية منح شركة ستاندر — نيويورك امتياز التنقيب عن النفط الخام (١) في الأراضي التي تحتلها قوات بريطانية في فلسطين ، حيث أثار الكونغرس حملة كبيرة على الحكومة كي تبادر إلى تعديل سياستها في الشرق الأوسط . وفي العاشر من آذار ١٩٢٠ طلب مجلس الشيوخ الأمريكي بياناً من الرئيس الأمريكي عن القيود المفروضة على الرعايا الأمريكيين الذين يريدون استثمار رؤوس أموالهم في البحث عن النفط الخام واستخراجه ، وفي آذار ١٩٢٠ أرسلت حكومة الولايات المتحدة مذكرة إلى بريطانيا تطالب فيها بسياسة الباب

(١) بدأ استثمار البترول في الولايات المتحدة عام ١٨٥٩ ثم راحت على مدى سنوات طويلة تحتل موقع القمة في استخراجه وتصديره وصناعته ، لذا فهي أدرى بأهميته كمصدر من أهم مصادر الطاقة وأعظمها على الإطلاق ، وكعنصر أساسي في إنتاج ما يزيد على ٢٦٠٠ سلعة تندرج اليوم تحت اسم الصناعات البتروكيميائية .

المفتوح في الشرق الأوسط ، وعندما لم ترد الحكومة البريطانية ، وجهت الخارجية الأمريكية مذكرة عنيفة اللهجة اليها تؤكد فيها على وجوب حصول الولايات المتحدة على نصيب أكبر من « النصر » . ومن ثم استغلت الولايات المتحدة الخلاف الناشب بين بريطانيا وتركيا حول الموصل كوسيلة ضغط على بريطانيا كيما تنصاع لمطالب الأمريكية . وفي ٣١ تموز ١٩٢٨ ، اتفق على توزيع أسهم شركة النفط التركية بين الشركات الأمريكية والانجليزية والفرنسية ، ثم استبدل اسمها ، ودعيت بشركة نفط العراق .

تقدمت شركة النفط الفرنسية باقتراح بحصر أراضي الأمل في الشرق الأوسط ضمن خط أحمر ويعطي للشركات الأمريكية والفرنسية والبريطانية والهولندية حق استثمار النفط فيها . غير أن هذه الاتفاقية طبقت في بعض المناطق وأهملت في مناطق أخرى الأمر الذي أدى إلى نجاح الشركات الأمريكية في أن تفوز بنصيب الأسد في الاستثمارات حيث لم يأت عام ١٩٧٠ إلا وكانت الشركات الأمريكية تسيطر على ٥٩٫٩٪ والهولندية ٨٫٣٪ واليابانية ٢٫٦٪ ، وكانت الشركات الأمريكية تسيطر على ٥٩٫٩٪ من إنتاج البترول العربي ، في حين نالت الشركات البريطانية ١٩٫٢٪ والفرنسية ١٠٫٣٪ والهولندية ٨٫٣٪ واليابانية ٢٫٦٪ ، وأعطت شركات أخرى متعددة الجنسيات ٤٫٧٪ .

إذن ، ولدت علاقة الولايات المتحدة الأمريكية الجديدة مع المنطقة العربية عن طريق النفط . حيث أصبحت سياستها في الشرق الأوسط سياسة بترولية بالدرجة الأولى . ولقد أدى تطبيق هذه السياسة البترولية ، إلى استئصال صورة الاعتدال التي كان العرب قد صنعوها لأنفسهم عن السياسة الأمريكية . ومع منتصف الخمسينات أصبحت الولايات المتحدة الكوبوي الكريه ، الذي يرمي بثقله كله في وجه تطور المجتمع العربي ونضاله لتحقيق أهدافه القومية .

وإذا كانت الولايات المتحدة قد حرصت خلال فترة ما بين الحربين على تجنب إثارة المشاعر العربية ضدها ، إلا أنها بادرت مع الرئيس ترومان إلى الانتقال إلى مواقع جديدة . فاعترفت باسرائيل بعد سبع دقائق فقط من إعلان قادة العصابات الصهيونية عن تأسيس « إسرائيل » في فلسطين . ثم راح رجال البترول الأمريكيون يرعون ازاهاور منذ عام ١٩٤٩ إلى أن أوصلوه إلى الحكم ، الذا عند تشكيله وزارته الأولى ، عين سبعة من أقطاب صناعة النفط فيها ، بالإضافة إلى تعيينه العديد من المستشارين حوله في البيت الأبيض . وجون فوستر دالاس وزير خارجيته السيء السمعة ، كان عضواً في مجلس إدارة شركة إسو ومديراً سابقاً لخزينة روكفلر .

لقد كان آيزنهاور يعطي أهمية خاصة للشرق الأوسط ، بالنسبة للمصالح الأمريكية . لكنه لم يكن يخفي أسباب تلك الأهمية . ففي خطابه إلى الكونغرس عام ١٩٥٧ ، والذي شرح فيه ، نظريته الشهيرة في بسط النفوذ الأمريكي تعويضاً عن الفراغ الذي أحدثه طرد الاستعمار الأوروبي الغربي من الشرق الأوسط ، قال : « من الأمور التي تؤكد أهمية الشرق الأوسط القصوى احتواؤه على ثلثي مصادر البترول المعروفة في العالم الآن . إن هذه المصادر البترولية لا تقل أهمية عن حلف الأطلنطي . بل ان هذا الحلف يفقد معناه وهدفه إذا فقدنا مصالحنا البترولية في الشرق الأوسط » . وقد بدأت الولايات المتحدة الأمريكية منذ عام ١٩٤٨ تتعرض لتغيير جذري في وضعها البترولي فبعد أن كانت أكبر الدول المصدرة والمنتجة للبترول ، أصبحت بالكاد دولة متوازنة في إنتاجها واستهلاكها ثم راحت الصناعة البترولية وهي عصب الرفاه الاقتصادي الأمريكي (١) تواجه الكثير من المشكلات :

١ – تناقص الرصيد الاحتياطي من البترول الموجود في الحقول الأمريكية في مطلع السبعينات إلى درجة قد لا تكفي الاستهلاك الأمريكي أكثر من عقد من السنين .

٢ – ضآلة احتمالات تحقيق اكتشافات فعلية جديدة .

٣ – تزايد أرقام الاستهلاك بنسبة هائلة سبقت الزيادة في الإنتاج .

٤ – اضطرار الولايات المتحدة إلى تعويض النقص في الإنتاج عن طريق الاستيراد بصورة مقلقة .

وكما يبدو تلك الولايات المتحدة الأمريكية كان يزداد مع نمو حركة القومية العربية ويقظة الجماهير العربية ، وتنبهها للنزيف المستمر في خيراتها ، والذي أريد له أن ينتقل من أيدي الاستعمار الأوروبي الغربي ، إلى الولايات المتحدة الأمريكية . ولقد ضربت الحركة الصهيونية على هذا الوتر بذكاء . ففي عام ١٩٣٨ كان بن غوريون يقول : « من يخون بريطانيا العظمى ، فإنه يخون الصهيونية » . وفي عام ١٩٦٧ يخاطب ليفي أشكول صحفياً

---

(١) قال مايكل هيدر الرئيس الأسبق لمجلس إدارة (اسو) في محاضرة له عام ١٩٧٠ : « إننا نجتاز مرحلة تواجه فيها الصناعة البترولية فترة بالغة الخطورة لا تهدد وجود الصناعة نفسها فقط ، وإنما تهدد معها الأمن القومي لبلادنا ، ليس بالمعنى العسكري وحده بل بمعنى أن تكون لنا القدرة على مواصلة الاحتفاظ بنمونا ورفاهنا الاقتصاديين » .

أمريكياً قائلاً : « لا تنفقوا أموالكم ، فنحن هنا » . ويكشف موشيه ديان في كتابه (مفكرة معركة القناة) « كانت معركة القناة نتيجة لنوايا بريطانيا للتحكم بالقوة في منطقة قناة السويس ، فلولا هذه المطامع البريطانية لكان من المشكوك فيه أن تقوم إسرائيل بحملتها » . ويبدو أن الامبريالية العالمية قد تحسست للدور « الإسرائيلي » في منطقة الشرق الأوسطوراحت تغذيه وتبرزه ، ولم يخف القادة الصهاينة حرصهم على العلاقة الوشيجة مع الامبريالية العالمية ففي عام ١٩٥١ رحبت (إسرائيل) بمشروع قيادة الشرق الأوسط ، ثم طالبت بالانضمام إلى حلف بغداد ، وفي عام ١٩٥٧ أيدت مشروع آيزنهاور لملء الفراغ في الشرق الأوسط . وفي مطلع نيسان ١٩٦٩ صرحت غولدا مائير لنيوزويك بعد أيام من توليها رئاسة الوزارة : « لا أريد شعباً يهودياً طيباً ليبرالياً ، معادياً للاستعمار ، معادياً للحرب ، لا أريد شعباً يهودياً ميتاً » . لذا وبعد فشل قيام الحلف الإسلامي ، تأكد لدى الولايات المتحدة أنه لم يبق لدى الغرب للحفاظ على مصالحه سوى أن يستخدم القوة مرة أخرى . وكانت إسرائيل ، وقد أعدت لهذا الغرض ، هي الأداة التي يمكن أن تستخدم مباشرة لهذا الدور . فاستكملت الاستعدادات ، وباشرت إسرائيل عدوانها على الأمة العربية يوم الخامس من حزيران ١٩٦٧ فاستولت على ٦٧ ألف كم٢ يقطنها حوالي المليونين من العرب . بيد أن حرب حزيران لم تعط النتائج المتوقعة ، إذ لم يستسلم العرب بل ازداد صمودهم وإعدادهم الذاتي وعداؤهم للمصالح الأمريكية ، كما أن إسرائيل على الصعيد الذاتي لم تكسب من الحرب سوى أنها فقدت السلام ، وأنها مطاردة ، عبر حالة من الترقب ، بمشاعر الكره ، والاستعداد للجولة القادمة ، وغدت المسألة بالنسبة للعرب ، مسألة وقت ، ومسألة حسن استفادة واقعية من الوقت .

وقد استفاق أصدقاء إسرائيل في الولايات المتحدة على النتائج غير المتوقعة لحرب حزيران فسعوا إلى رفع مستوى قوتها . لذا أعلن رسميو الولايات المتحدة : أن الخدمة في جيش إسرائيل لا تتناقض مع مصالح الولايات المتحدة ، ومن الآن فصاعداً ، فإن مواطني الولايات المتحدة الأمريكية يمكن أن يحصلوا على الجنسية الإسرائيلية دون أن تنتزع منهم الجنسية الأمريكية . ثم ابتدأت العلاقات الإسرائيلية مع الولايات المتحدة تتطور لتأخذ طابعاً فريداً من نوعه حيث انتقلت مع الرئيس جونسون إلى المشاركة شبه العلنية بتخطيط عدوانات إسرائيل وبإغداق المعونات والأسلحة المتقدمة . وغدت مع الرئيس نيكسون على حال من التطابق شبه الكامل . ويكتب اندريه فونتين اثر حرب تشرين ١٩٧٣ : « وهكذا لم يعد لإسرائيل سوى الولايات المتحدة ، أصبحت خاضعة لها ، ملك يمينها ، ولولاها ، ولولا سلاحها ومالها ، لا يبقى

لإسرائيل سوى الاستسلام أو خوض عراك يائس (١) . وقد رأى الأوروبيون الغربيون أن الولايات المتحدة خلال وأثر حرب تشرين قد ذهبت إلى درجة التضحية بأمن حليفاتها الأوربيات لحساب أمن إسرائيل ، كما أعلن مراقبون غربيون ، بأن الولايات المتحدة تنتصر لمصالح (شعب أجنبي) على حساب مصالح شعبها ، ومصالح شعوب حليفاتها ، وهكذا وضعت الولايات المتحدة مسألة حماية توسع إسرائيل العدواني على مستوى واحد مع أمن الولايات المتحدة وجميع حلفائها .

ومن هنا ، وعلى ضوء هذا التعامل مع السياسة الأمريكية ، تأكد لدى العرب أن أهدافهم تتعارض كلية مع مصالح وأهداف الولايات المتحدة على الشكل التالي :

١ — حماية أمن إسرائيل وضمان بقائها على حساب بقاء الشعب العربي الفلسطيني خارج دياره .

٢ — تثبيت النفوذ الأمريكي في المنطقة العربية ، وعلى شكل معين من التبعية .

٣ — تشتيت القوى العربية وبث الفرقة بين المؤسسات الرسمية الحاكمة في الأقطار العربيـــــة .

٤ — محاولة تكريس السيطرة الاقتصادية الأمريكية على الخيرات العربية وخاصة النفط العربي ، وضمان استمرار تدفقه وفقاً لاحتياجاتها ولسياستها العامة .

٥ — التصدي الشرس لتنامي حركة الثورة العربية والحد من تطور فعاليتها .

إن تطور الموقف الأمريكي أخذ سمات التبني التام لمصالح إسرائيل والصهيونية العالمية ، والمعارضة الشرسة للأمة العربية ، ولقد كشفت الأحداث التي توالت اثر عدوان حزيران ١٩٦٧ مدى التطابق مع إسرائيل ، وأوضحت استهتار الولايات المتحدة بالرأي العام العربي وبالفئة الباقية من أصدقائها العرب ، فبعد أشهر عقيمة من المباحثات خرج مجلس الأمن (٢) بالقرار رقم ٢٤٢ الذي منح العرب نصاً غائماً وسعى إلى إعطاء إسرائيل مكتسبات جديدة ، وكان متعارضاً مع ميثاق الأمم المتحدة الذي لا يجيز للمعتدي أن يكسب نتيجة عدوانه ،

---

(١) اللوموند ، ١٩٧٣/١٢/٢٦ .

(٢) بعد أن ترك غولد برغ تمثيله أمريكا في الأمم المتحدة ، ترأس مؤتمراً لمساعدة إسرائيل كما نال أعلى وسام أعطي ليهودي خدم الصهيونية .

أية مكاسب مهما كان نوعها . ومع ذلك بادرت الولايات المتحدة إلى الوقوف في وجه القرار ٢٤٢ وفي وجه جهود الأمم المتحدة . إذ أن السيد يارينغ ، ممثل الأمين العام ، اضطر أمام العناد والمراوغة الإسرائيلية والدعم الأميركي لها إلى تشييع وساطته.

وإزاء الجمود الذي تردت إليه الأوضاع الدولية والمحلية ، بادرت الحكومة المصرية إلى شن حرب استنزاف (غير متحركة) ، وبادرت الخارجية الأمريكية إلى التوسط ، وأعلن روجرز عن مشروعه الشهير ، والذي لم يلبث أن سقط في فشل ذريع شأنه في ذلك شأن مساعي الأربعة الكبار وجهود الحكماء الأفارقة فيما بعد . ويلاحظ الدكتور جمال حمدان : أن الولايات المتحدة قد طاردت « دور الأمم المتحدة في حل الأزمة حتى طردته ، ثم دور الأربعة الكبار من بعده ، ثم لم تنجح مع ذلك كله في أمركة القضية نهائياً »(١) .

وتراجعت الولايات المتحدة الأمريكية خطوات محسوبة بغية تجميد القضية ، حيث تخلت عن التبني الظاهري لمبادىء جونسون الخمسة والتي لا تقبل (بأي تغيير جوهري في حدود عام ١٩٦٧ يعكس ثقل الغزو) ثم انصرفت نهائياً عن كلمة جوهري (Essential) واستعاضت عنها بعبارة التنازلات المتبادلة (Mutual Concessions) وفي كانون أول من عام ١٩٧١ تخلى الرئيس نيكسون عن مسايرة الولايات المتحدة الظاهرية لمشاعر العرب وفتح مستودعات الجيش الأمريكي أمام ما تريده إسرائيل من الأسلحة الحديثة وأوعز بشن الحملات الدعائية ضد الاتحاد السوفياتي لبيعه الأسلحة العرب بحجة المحافظة على توازن القوى في الشرق الأوسط ، والذي حرصت الولايات المتحدة على أن يميل باستمرار لصالح إسرائيل .

ولقد نجحت الولايات المتحدة في القفز بالمسألة كلها إلى حالة (اللاحرب واللاسلم) مبتغية بذلك :

١ — تهيئة أفضل الظروف أمام إسرائيل للتأقلم مع واقع الاحتلال ، بحيث يتاح لها إن استطاعت أن تبتلع ما تشاء من الأراضي المحتلة وأن تكيفها وفق مقتضيات أمنها واقتصادها .

٢ — دفع العرب إلى حالة من اليأس ، يسهل معها الخروج بالأزمة عن طريق الحل الوسط وعلى الشكل الذي تبتغيه إسرائيل .

---

(١) ٦ أوكتوبر في الاستراتيجية العالمية ، صفحة (٢٠٦) .

٣ – التمهيد لعودة النفوذ الأمريكي ، عن طريق وساطة أمريكية صرفة تستهدف المصالح العربية ومستقبل حركة الثورة العربية .

ولقد ساعد في تكريس (حالة اللا سلم واللا حرب) المنحى الجديد للسياسة الأمريكية الذي اجتهد في إيقاع القوى المتنازعة محلياً في قبضة الاستقطاب الثنائي . فظهر الشرق الأوسط وكأنه شطران انفصلا بحيث يشتمل الشطر الأول على الجمهورية العربية السورية وجمهورية مصر العربية والاتحاد السوفياتي وتلتقي في الثاني إسرائيل والولايات المتحدة الامريكية . ولقد استغلت إسرائيل هذا الوضع في دعايتها الغربية استغلالا كاملا حيث صورت كل من يقف إلى جانب إسرائيل مع الغرب ضد الخطر الشيوعي في حين أن كل من يقف مع العرب فإنما هو يساعد الشيوعية على اجتياح المنطقة بكاملها .

وهكذا على الرغم من حرب الاستنزاف على الجبهة المصرية ونشاط الفدائيين العرب الفلسطينيين ، راحت المسألة تخرج عن محليتها وراح البعد الدولي يسيطر عليها . وكما يبدو أن العالم قد ابتدأ يتعود على نتائج العدوان الإسرائيلي . ففي لقاء موسكو بين السيد بريجينيف والرئيس نيكسون نجد بالإضافة إلى الحديث عن ضرورة إيجاد حل للمسألة ، إشارة إلى الحديث عن ضرورة إيجاد حل للمسألة إشارة إلى حالة الاسترخاء العسكري في المنطقة وهذه الإشارة وإن كانت تكشف إلى حد بعيد تناقض موقفي العملاقين من وقائع الصراع في الشرق الأوسط إلا أنها تؤكد على جمود المسألة كلها . وفي اللقاء الثاني في واشنطن لم يحدث جديد يذكر وبقيت المسألة مجمدة بانتظار حل سلمي لها .

غير أنه وبعد استقالة السيد روجرز في ١٩٧٣/٨/٢٢ وتعيين الدكتور كيسنجر نشط بعض الأمل لدى المراقبين في تحريك مسألة الشرق الأوسط . كما شعر بعض العرب بشيء من التفاؤل وفي ذهنهم صورة نجاحات الدكتور كيسنجر وانجازاته مع الصين والاتحاد السوفياتي وفي جنوب شرق آسيا . لكن تعيين الدكتور كيسنجر وزيراً للخارجية ، فهم على أنه ينم عن اهتمام جدي تبذله الولايات المتحدة لإيجاد حل لمسألة الشرق الأوسط أولا ، وتوجيه ضغط إلى العرب نظراً ليهودية كيسنجر ثانياً ، وتطمين إسرائيل والقوى الصهيونية وكسب مؤازرة الأخيرة للرئيس نيكسون في قضية ووتر غيت ثالثاً . سارع الدكتور كيسنجر إلى الإعلان بأنه سوف يولي اهتماماً خاصاً إلى مسألة الشرق الأوسط (بيد أنها باعتبارها قديمة ومتشعبة فإن حلها يتطلب وقتاً أطول بكثير مما يعتقد البعض) . لكنه عاد وأرجأ مباشرته لها إلى ما بعد السنة الأوروبية التي كانت تعني له ميثاقاً جديداً لحلف الأطلسي وموقفاً (أمريكياً أوروبياً

غربياً) موحداً من مسألة الشرق الأوسط . بالإضافة إلى أن الشرق الأوسط مشكلة صعبة ، لكنها لم تعد تنطوي على خطر المواجهة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي) . غير أننا سوف نلاحظ أن اندلاع حرب الشرق الأوسط قد اضطره إلى : أولا - إجراء تغيير جذري في سلم الأولويات لديه وبحيث أعطى أزمة الشرق الأوسط الأولوية المطلقة على ما عداها وإلى : ثانياً - وضع القوات الأمريكية في حالة استنفار من الدرجة الثالثة ، الأمر الذي هدد جدياً بتصاعد المواجهة بين العملاقين فيما لو استجاب الاتحاد السوفياتي للاستفزاز الأمريكي .

بيد أنه وعلى الرغم من ركود الموقف الدولي من مسألة الشرق الأوسط ، لربما بسبب من التوازنات الجديدة وحقائق الصراع المستجدة ، يبقى غياب الإرادة العربية ، كطرف رئيسي في الصراع (ينفرد وحده بالخسائر الجسيمة) هو المسؤول الأكبر عن وجود واستمرار حالة الجمود ، والركود الدولي الذين رافقاها .

— ٣ —

يرى الدكتور كيسنجر « أن المهم هو معرفة ميزان القوى معرفة صحيحة » وغير خاف أن الدكتور كيسنجر كان على يقين بأن الميزان العسكري راجح لمصلحة إسرائيل . كما أن الرسميين الأمريكيين لم يكونوا قلقين كثيراً ، سواء إزاء التململ والتحفز العربيين أو إزاء التراكمات في المتغيرات الدولية . وكانوا يعتقدون إلى حد بعيد بمقدرة الولايات المتحدة على ضبط الأحداث في المجالين العربي والدولي .

ويبدو أن تقديرات المسؤولين الأمريكيين ، لم تكن على مستوى كامل من الدقة . فاستمرار الاحتلال ، وما يخلفه من أعباء مادية ونفسية ، كان يهدد بانقلاب جذري في حركة المتغيرات في الوطن العربي ، كما أن التبعات المادية للاحتلال وما تفرضه من أعباء مادية على الموازنات العامة لدول المواجهة وما تحكمه من تأثير على النمو الاقتصادي ، وصلت إلى المستوى الذي لم يعد ممكناً معه الاستمرار في المحافظة على توازن القوى ، أو الاستمرار في إبقاء الأحداث في أيدي ما درج الغرب على تسميتهم « بالمعتدلين العرب » . لذا كان انتظار الجماهير العربية لأي تغيير جدي من شأنه أن يحرك القضية كلها ، لم يكن بالانتظار المستكين أو الخاوي . لا سيما وأن تطور الاحداث في جنوب شرقي آسيا وبخاصة في فيتنام قد أوقد الأمل في الوجدان العربي ، فانهزام الولايات المتحدة تحت ضربات الشعب الفيتنامي أصبح مسألة فترة من الزمن قد لا تتجاوز شهوراً معدودات .

ولهذا ابتدأت نبرات أصوات الرسميين العرب تتغير جذرياً ، وتأخذ ملامح أكثر حزماً وقوة . أضف إلى هذا أن موازين القوى بين الرسميين العرب قد راحت تتغير لصالح أولئك الذين يعلون مسألة التحرير والانتصار للشعب العربي الفلسطيني على سواها . أضف إلى هذا ، أن النضال الفلسطيني قد راح يأخذ مواقع متقدمة على الرغم من الضربات المتتالية التي أنزلت به . بل ظهر على أنه أكثر تمرساً وخبرة بمقتضيات النضال في الميدانين السياسي والعسكري .

لكل هذا فان ميزان القوى العام في الشرق الأوسط قد ابتدأ يمر بمرحلة من التغييرات المتلاحقة لصالح مسألة التحرير . أما في الإطار الدولي فان أوروبا الغربية بقيت تتأرجح تحت أربعة عوامل مؤثرة :

١ — حرصت أوروبا الغربية على التفاهم مع الولايات المتحدة ، إلى أن جاءت الديغولية وأدخلت على الموقف الأوروبي الغربي شيئاً من الأصالة والاستقلال . ولقد كان دافع أوروبا إلى الحرص على هذا التفاهم ، وإن أظهرها بمظهر التبعية ، يعود بالدرجة الأولى إلى ما يدعى بوحدة الغرب ضد الخطر الشيوعي وإلى ارتباطهما معاً في حلف الأطلسي .

٢ — إن أول من مد يد العون لمساعدة الصهيونية على إنشاء (إسرائيل) كانت بعض دول أوروبا الغربية ، وإن كانت قد راحت بعد الحرب العالمية الثانية تنمو وتترعرع في ظل الولايات المتحدة الأمريكية . وقد شكل ذلك لدى الأوروبيين الغربيين اعتبارات خاصة في علاقاتهم مع إسرائيل . وبالإضافة إلى ذلك ثمة اعتبارات أخرى يأتي على رأسها أن استمرار وجود إسرائيل يعوق العرب عن تحقيق مطامحهم القومية في تأسيس دولة غنية وقوية تشاركها البحر الأبيض المتوسط وتحول بالتالي دون أوروبا الغربية واستغلال قارتي افريقيا وآسيا .

٣ — لقد استفاقت أوروبا الغربية على خطر الوفاق بين العملاقين وما يملك أن يشكل من تهديد لها إذا تجاوز طابعه التنافسي . وتحول إلى اتفاق تام ليشمل المسائل العالمية كلها ، لا سيما وأن أوروبا ما تزال مضيعة الهوية مبعثرة المواقف .

٤ — بادرت أوروبا الغربية مع الديغولية إلى إعادة النظر في علاقاتها مع العرب فسعت إلى تنمية مصالحها مع الوطن العربي . وكان ذلك يقتضي البدء بتوطيد علاقات أفضل مع الأقطار العربية . لا بد لها من أن تأخذ بعين الاعتبار المصالح العربية ، وبخاصة ما يتصل منها بمسألة الصراع في الشرق الأوسط .

وبحكم تدافع هذه العوامل ، بقيت أوروبا الغربية الرسمية تتأرجح بين الحياد والتعاطف الضمني مع إسرائيل . إلا أنها غدت « أطول بالا » عند الإصغاء للقناعات العربية ، وأكثر

تردداً في تأييدها المطلق لإسرائيل . وكانت في ذلك على أفضل الأحوال مناسبة التطور باتجاه الحياد . إلا أن الموقف الفرنسي كان يتطلع في حيانة ملحوظة إلى كسب العرب . حيث رفض عدوان إسرائيل عام ١٩٦٧ بكل ما تمخض عنه من نتائج ، كما باعت بعض الأسلحة إلى ليبيا شريكة مصر وسوريا في اتحاد الجمهوريات العربية على الرغم من الحظر الفرنسي على بيع الأسلحة إلى أطراف الصراع . كما أعلنت بريطانيا حظر بيع الأسلحة إلى أطراف الصراع في المنطقة ، في حين أن ألمانيا الغربية اجتهدت لتغيير صورة انحيازها السابق لإسرائيل مدعية أنها تقف على الحياد وتتبنى سياسة متوازنة مع الطرفين . ولقد لعبت مرونة السياسة العربية دوراً كبيراً في تغيير منحى السياسة الأوروبية من القضية العربية باتجاه تقليص دعمها لإسرائيل الأمر الذي مهد كثيراً لبيان دول السوق المشتركة الصادر في السادس من تشرين الأول عام ١٩٧٣ .

وفي مستوى دول عدم الانحياز تدرج الموقف من القضية العربية إلى أن وصل ذروة التأييد في قمة الجزائر ، حيث أدان المؤتمرون صراحة الدعم الأمريكي لإسرائيل ، كما أضفوا على استمرار الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية طابع العدوان على دول عدم الانحياز ذاتها .

وأيد المؤتمر الدول الأعضاء التي قطعت علاقاتها مع إسرائيل قبل المؤتمر وحث الدول المشاركة على أن تحذو حذوها . ثم طلب المؤتمرون بفرض عقوبات على إسرائيل إن لم تنسحب قواتها من الأراضي العربية وإن لم تعد للشعب العربي الفلسطيني حقوقه الوطنية الكاملة .

وفي مستوى القارة الافريقية ، تنامى موقف الأفارقة المؤيد للقضية العربية . حيث قطعت حكومة أوغندا في ٣٠ آذار ١٩٧٢ علاقاتها مع إسرائيل ثم تبعتها حكومات تشاد والكونغو والنيجر ومالي وبروندي . حاولت دول القارة أن تلعب دوراً في البحث عن حل للأزمة فأوفدت بعثة من أربعة رؤساء زارت مصر وإسرائيل ، إلا أنها فشلت في الوصول إلى أية نتيجة . ولقد ساعد فشل (بعثة الحكماء الأفارقة) على الإعداد لظاهرة السياسية الكبيرة التي قامت بها دول القارة الافريقية ضد إسرائيل ، اثر حرب تشرين ١٩٧٣ .

ولقد حافظت الدول الاشتراكية على تأييد الحق العربي كما استطاع الرئيس حافظ الأسد تحقيق بعض التحسن في العلاقات بين مصر والاتحاد السوفياتي والتي كان قد اعتراها الفتور اثر ترحيل الخبراء السوفيات من مصر وبدء ظهور ميول السياسة المصرية نحو الغرب ، وما رافقها من تغيرات متلاحقة في ايديولوجية النظام المصري ، أما على مستوى العلاقات

مع الصين ، فلقد أكدت دعمها لحق العربي وكانت أول دولة اشتراكية تعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية وبالحقوق الوطنية الكاملة .

وهكذا طور بعض أعضاء الأسرة الدولية مواقفهم من الحق العربي نحو مزيد من التفهم له ولطبيعة الصراع العربي الإسرائيلي ، ولا شك في أن ذلك كله ولد بعض الاضطراب في ميزان القوى السياسي والذي يحرص الدكتور كيسنجر على معرفته المعرفة الصحيحة ، وعلى ضبطه لصالح إسرائيل .

لذا كان على المساعي الأمريكية أن تواجه عدداً من المتغيرات :

١ — ضبط العرب دون مباشرة أي فعل جدي من شأنه أن يحرك القضية المجمدة . وهذا الضمان ، وإن كانت الولايات المتحدة تقدر على التأثير فيه ، بزيادة دعمها العسكري لإسرائيل ، أو بنصح أصدقائها من العرب بإشاعة جو الاعتدال ، أو بممارسة بعض الضغوط على الاتحاد السوفياتي ، إلا أنها ، وكما ثبت فيما بعد ، لم تكن تملك أن تسيطر على الإرادة العربية في مباشرة أي فعل من شأنه أن يزيح القضية من مستنقع (اللا حرب واللا سلم) .

٢ — على الرغم من إلقاء تبعة نتائج عدوان ١٩٦٧ على العرب ، فانها قد شكلت الكثير من التحسس لدى الاتحاد السوفياتي على المستويين الداخلي والخارجي . الأمر الذي قد يضطر الاتحاد السوفياتي إلى أن يتخذ موقفاً أكثر حسماً من الصراع العربي الإسرائيلي في أية جولة قادمة .

٣ — لقد ولد غرور العسكرية الإسرائيلية اثر النصر السهل في عدوان ١٩٦٧ بعض الخشية لدى الساسة الأمريكيين من أن تفقد الولايات المتحدة المقدرة على ضبط طيشهم .

إن حركة هذه المتغيرات ، وإن كان من المحتمل أن تنتج تأثيراً بطيئاً نسبياً ، إلا أنها قد تأتي فعلا ما في وقت غير مناسب ، لا سيما وأن تزايد الرفض العربي لحالتي اليأس والجمود ، قد راح يحرك بعض التوجس من عمل عربي يستهدف إما تحريك القضية ، أو دخول العرب في مسعى شامل يستهدف تحرير الأراضي العربية المحتلة كلها . الأمر الذي قد يفسد على الولايات المتحدة مخططاتها ، ويدفعها إلى الانتقال إلى ميدان لا تتوفر له الظروف الملائمة والعدة المناسبة .

° ° °

العقيدة القتالية

لدى عرب القرن الحادي عشر الميلادي

د. سهيل زكار

يعتبر القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد قرناً في غاية الأهمية بالنسبة لتاريخ العالم ، ذلك أنه شهد حوادث محولة ما زالت آثارها ماثلة حتى أيامنا هذه ، وقد صنعت غالبية هذه الحوادث من قبل شعوب كانت حياتها أقرب إلى البداوة منها إلى الحضارة والاستقرار ، ففي أوربة كان تحرك النورمان ، وفي شمال أفريقية كان التحرك الذي تمخض عن قيام دولة المرابطين ، وفي المشرق كان تدفق التركمان من منطقة ما وراء النهر على خراسان والعراق ثم بلاد الشام وآسيا الصغرى .

ونجم عن هجرة التركمان إزالة السيطرة الغزنوية عن خراسان وقيام السلطنة السلجوقية ، وكان لهذا الحادث عظيم الأثر على مستقبل الدولة العباسية والعقيدة الإسلامية وكذلك بالنسبة للامبراطورية البيزنطية .

وكان طغرلبك أول سلاطنة البيت السلجوقي وقد توفي سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م دون أن يعقب ولداً يصبح سلطاناً من بعده ، فكان أن خلفه ألب أرسلان وكان ابناً لأخيه جغري بك ، ويعد ألب أرسلان أعظم سلاطنة السلاجقة ، ففي عهده توطدت دعائم الامبراطورية السلجوقية ، وانساح التركمان في أراضي الامبراطورية البيزنطية ، ومنها ومن أعالي بلاد الرافدين دخلوا إلى بلاد الشام .

وكانت قوات التركان خفيفة مرنة ، رجالها يعتبرون الصحراء بمثابة الأب والام منهم ، كما هو الحال بالنسبة لسواهم ، وكانوا وقت الالتحام في القتال يقسمون قواتهم إلى فرق عديدة صغيرة تتحرك بليونة وتنساب بسهولة ، ليس معها أثقال ولا مؤن ولا نساء ، هذا في حين كانت قوات خصومهم جيوشاً نظامية تتحرك بثقل وحسب النظم العسكرية ، وحين تتحرك يتحرك بحركتها الكثير من الأثقال والنساء والحاجيات ، لذلك كان أحد هذه الجيوش حين يدخل المعركة لا يستطيع التحرك بمرونة ولا يستطيع أن يقاتل وهو خالي البال ، بل يقاتل وخاطره مشغول بما لديه من ذخائر وأهل أكثر مما هو مصروف لربح المعركة والانتصار على الخصم ، يضاف إلى هذا ان التركان كانوا يفضلون جيوش خصومهم ليس بهذا فقط بل في الروح المعنوية ، مع البراعة في القتال وأيضاً في نوعية الأسلحة ، لقد كان التركاني فارساً يعتمد بالدرجة الأولى على قوسه ، يقوم بالهجمات المتلاطفة على خصمه فيصرع فرسه أولا بأن يرميه ، ثم ينقض بعد ذلك على هذا الخصم المثقل بدرعه أو سابغته وأسلحته الثقيلة الخاصة التي يصعب استخدامها عليه وهو مترجل فيجهز عليه بسيفه أو دبوسه ، وإذا ما حدث وكان جيش الخصم مؤلفاً من فرسان ومشاة لحماية الفرسان ، كان التركان يجهدون في البداية لفصل المشاة عن الفرسان ومن ثم كان يتم الإجهاز على كل سلاح على حدة ، وتجلت فنون التركان القتالية هذه في عدة معارك كان على رأسها معركة دنداقنان التي انتزعت فيها خراسان من الدولة الغزنوية ثم بعد ذلك معركة منازدكرد ، كما ظهرت خلال جميع معارك الحروب الصليبية وخاصة في معركة حطين .

° ° °

ومع قيام سلطنة ألب أرسلان ازداد انسياح التركان في الأراضي البيزنطية معملين الدمار ويكفي أن نسوق هنا مثلا ما ذكره الصاحب كمال الدين ابن العديم في كتابه زبدة الحلب من تاريخ حلب في حوادث سنتي ٤٥٩ — ٤٦٠ هـ / ١٠٦٦ — ١٠٦٧ م ففي هاتين السنتين : « طلعت طائفة كبيرة من الترك ، فنزل بعضها على دلوك — من نواحي حلب — وتقدم منهم نحو ألف فنهبوا بلد أنطاكية عن آخره ، وأخذوا نحو أربعين ألف جاموس ، وقيل أكثر ، حتى أن الجاموس كان يباع بدينار ، وأكثره بدينارين وثلاثة ، وأما البقر والغنم والمعز والحمير والجواري فلم يقع على ذلك إحصاء من الكثرة ، وكانت الجارية تباع بدينارين ، والصبي بتطبيقة نعال تخيل ، وخرب بلاد الروم خراباً لم يسمع بمثله ، وبقيت الغلات في البيادر ما لها من يرفعها منهم ، حتى كان الفلاحون وسائر العوام يمضي الواحد منهم ويأخذ

ما يريد ، فلا يجد من يدافعه عن ذلك ؛ لأن الروم تحصنوا في الحصون والجبال والمغاير ، وتركوا بيوتهم على حالها لم يأخذوا منها شيئاً » .

وأمام أعمال التركمان هذه جهدت بيزنطة التي كان امبراطورها الآن رومانوس داجينوس Romanus Diogenes لإيقاف التركمان ومنعهم من غزو أراضيها ، وأرادت إغلاق حدودها في وجههم باحتلال بعض المواقع الاستراتيجية الحصينة داخل الأراضي الإسلامية ، ولما كان التركمان ينفذون إلى داخل الأراضي البيزنطية ويخرجون منها من ثلاثة مناطق كانت هي : ثغور شمالي بلاد الشام ، وثغور أعالي الجزيرة ، وبلاد أرمينية ، فقد وضع رومانوس كما يبدو خطة تستهدف إغلاق هذه المنافذ على ثلاث مراحل ، وفي هذا السبيل قام بنفسه بقيادة ثلاث حملات ضد بلاد الشام وأعالي الجزيرة وحدود أرمينية وذلك في السنوات ٤٦١ — ٤٦٣ هـ / ١٠٦٨ — ١٠٧١ م ، وقد وجهت الحملتان الأول ضد أراضي إمارة حلب في الشام والجزيرة ، وكانت معركة مناز كرد الشهيرة نتيجة الحملة الثالثة ، وطبعاً كانت أهمها على الإطلاق لان نتائجها كانت حاسمة بالنسبة للعالمين الإسلامي والمسيحي في العصور الوسطى وكانت سبباً مباشراً من أسباب قيام الحروب الصليبية .

ولم يكن للحملتين الأولى نتائج خطيرة ، وكل ما حصله رومانوس منهما هو إعمال الغارة في أراضي حلب ، ثم لم ينجم عنهما مع هجرة التركمان — حتى الآن — أي خطر حقيقي على الدول التي كانت قائمة في الشام والجزيرة ، ولكن الخطر جاء مع الحملة الثالثة ، لكن ليس بسببها ولا من الأراضي البيزنطية ، إنما من خراسان وبسبب ما كان يجري في مصر ؛ أو بالحري في القاهرة آنذاك ، فلقد كانت القاهرة تعيش في هذه الآونة فترة من المنازعات السياسية من أجل السلطة فيها ، وبغية التسلط على الخليفة الفاطمي المستنصر ، وكان ناصر الدولة الحمداني (أحد أحفاد ناصر الدولة الحمداني صاحب الموصل والأخ الأكبر لسيف الدولة ممدوح المتنبي وأمير حلب) أبرز أطراف النزاع في القاهرة ، وكان قد « قصد ابطال دعوة المستنصر بالله وتغيير دولته ، فندب الفقيه أبا جعفر محمد بن البخاري قاضي حلب ، وبعثه رسولا إلى السلطان ألب أرسلان أبي شجاع محمد بن داود ملك العراق وخراسان يسأله أن يسير إليه عسكراً ليقيم الدعوة العباسية وتكون له مصر ، فمضى أبو جعفر إلى خراسان ، وبلغ السلطان ألب أرسلان رسالة ناصر الدولة ابن حمدان ، فتجهز من خراسان في عساكر عظيمة » وتحرك ألب أرسلان على رأس قواته غرباً ، وكان تحركه بطيئاً ؛ وعلى كل حال لم يكن

بإمكان ألب أرسلان ، بسبب طبيعة قواته وطبيعة الحواجز التي اصطدم بها ، لم يكن بإمكانه الوصول إلى مصر ، ولم يتجاوز أبعد من أسوار حلب .

وعندما كان السلطان معسكراً قرب أسوار مدينة حلب ، يفكر بالعودة شرقاً إلى خراسان وبعد العدة لذلك ، بلغته أخبار تحرك جيش بيزنطي هائل نحو بلاد الإسلام بقيادة الامبراطور رومانوس دايجينوس نفسه ، لهذا غير وجهته ، وانحرف شمالا لمواجهة هذا الجيش الزاحف ، ولقد تصدى ألب أرسلان لقوات بيزنطة واشتبك معها في أرمينية عند موقع اسمه منازكرد (قرب بحيرة وان في تركية الآن) فهزمها ، ولولا هذا النصر المؤزر والخطير النتائج والتأثير لكانت حملة ألب أرسلان كلها بلا ثمرات .

ونظراً للأهمية القصوى لهذه المعركة ولكونها من معارك التاريخ الفاصلة في عالم العصور الوسطى ، ولأنها تعدل – إن لم تفق – معركة اليرموك بالنسبة للعلاقات الإسلامية – البيزنطية ، ثم لما تجلى خلالها من عبقرية عسكرية وتطبيق رائع للتقاليد العربية الإسلامية في القتال فقد اخترتها للدراسة واتخذتها أنموذجاً ثانياً يوضح طرق تطبيق العقيدة القتالية عند العرب .

لقد مثل بيزنطة في هذه المعركة الامبراطور رومانوس دايجينوس ، ويعود في أصله إلى عائلة أرستقراطية عريقة أصلها من آسية الصغرى ، ولقد وجد دايجينوس نفسه منذ أن أصبح امبراطوراً في سنة ١٠٦٨ م يواجه عدة مشكلات داخلية وخارجية ، فأولى معظم وقته ، وصرف معظم طاقاته وطاقات امبراطوريته ووقفها للمشكلات الخارجية ، حيث أنها كانت أكثر إلحاحاً ، ولقد تمثلت المشكلات الخارجية في الخطر الذي أبرزه التركمان في هجرتهم وفي أعمال اجتياحهم للأراضي البيزنطية ، ومن أجل إيقاف التركمان ، ووضع حداً لتغلغلهم ، وتخريبهم للأناضول ، قاد رومانوس الحملتين المتتاليتين اللتين أتينا على ذكرهما ثم أخذ بعد ذلك يعد العدة لحملة كبيرة جداً أراد أن يحتث بها التركمان من بلاده فيكتسب بعض المواقع داخل الأراضي الإسلامية ليشحنها بالجند حتى يقفوا للتركمان بالمرصاد ، وقاد رومانوس قواته التي أعدها تجاه أرمينية في سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م ، ويبدو أنه أراد أن يستغل فرصة غياب السلطان ألب أرسلان في بلاد الشام .

وبعد ما بلغ السلطان ألب أرسلان نبأ تحرك القوات البيزنطية ، وأثناء عودته – أو اعداده العدة للعودة – شرقاً استقبل بعثة بيزنطية أرسلها الامبراطور رومانوس ، كان هدفها كما يبدو تضليل السلطان وإعاقته ثم التجسس بنفس الوقت ، ويبدو أن السلطان أدرك هذا ، فقام بدوره بتضليل البعثة ، وكان لهذا نتائج حاسمة على المعركة .

ويذكر المؤرخون العرب والسريان والإغريق أن البعثة حملت إلى السلطان عرضاً بأن يتخلى له الإمبراطور عن منبج في بلاد الشام وأن يدفع له جزية سنوية إذا ما أوقف السلطان الغارات ضد الأراضي البيزنطية ، ولقد قبل السلطان – الذي كان عاجزاً عن إيقاف هذه الغارات – بالعرض تشليلا ، وليس لأنه كان يخشى من الاصطدام معه تقديراً بأن قواته لن تستطيع منازلة الجيش البيزنطي العرمرم ، هذا ومن المفيد أن نبين بأن السلطان لم تكن لديه آنئذ مطامح بالتوسع الخارجي بل كان همه محصوراً في بسط نفوذه وسيطرته على بلدان العالم الإسلامي ، ويبرهن على هذا أنه لم يحاول – بعد نصره الساحق في منازكرد – الذي نحن بصدد الحديث عنه – استغلال هذا النصر ، وإنما جهد في التعجيل لإيجاد تسوية عاجلة مع رومانوس ، ثم عاد إلى بلدان العالم الإسلامي وتابع جهده في مد سيطرته عليها حتى لقي حتفه .

ولم ينفذ الاتفاق ، وبحثاً عن أسباب ذلك نجد المؤرخ البيزنطي ميخائيل بسللوس الذي عاصر الأحداث وشارك في المعركة يقول : « بدلاً من تنفيذ الاتفاق ، وحيث أنه – أي الامبراطور – كان يائساً ، أو لأنه كان واثقاً من نفسه أكثر مما ينبغي زحف إلى القتال »؟!

إن في كلام بسللوس هذا بعض الغموض وهو لا يفي بالغرض ، لكن على الرغم من هذا فإن الامبراطور عندما استأنف زحفه كان – كما يبدو – قد صنع ذلك إنما وهو موقن بأن النصر سيكون حليفه ، وربما فعل ذلك بناء على المعلومات التي نقلتها إليه بعثته التي عادت من عند السلطان ، فوصفت له رحيل السلطان شرقاً وحالة الفوضى التي حلت في جيشه أثناء الرحيل .

ويقول المؤرخ البغدادي غرس النعمة محمد بن هلال الصابيء ، وهو ممن عاصر الأحداث : « وخبر السلطان من المقام بحلب ، فكر راجعاً ، فقطع الفرات ، وهلك أكثر الدواب والجمال ، وكان عبوره شبه صاحبه ، فقوى ذلك عزم ملك الروم على اتباعه وحربه » .

لقد كان تراجع ألب أرسلان هذا « شبه الهارب » قد تم تبعاً للطريقة التركمانية في خداع العدو والتغرير به ، فالتركمان كبدو كانت لديهم خططهم الخاصة ،في الزحف كما كان لهم مبادئهم المتميزة في فن السوقية العسكرية ، وتنطلق هذه المبادىء من الاعتماد على طبيعة البدو وخفتهم ومرونتهم في الحركة ، واستحالة خضوعهم لأنظمة ضبط وربط محددة ، فيها يعطي القائد أمراً عاماً يحدد فيه لقواته البدوية نقطة تواجد ، وليلة لهذا التواجد ، ويندفع البداة زمراً وأفراداً في اتجاهات مختلفة ، وهنا يخيل للعدو أنهم تفرقوا إلى غير ما عودة ، لكنه لا يدري أن تفرقهم يفيد قائدهم بتحريره من قضايا التموين ، ثم يدمر أراضي العدو ويضلل

قيادته ويجبرها في كثير من الأحيان على توزيع قواتها ، ثم عندما تصطدم أولى طلائع قوات البدو بجيوش عدوها ، يقوم هذا العدو في النهار على تحضير خططه لسحق بضعة آلاف من البدو ، ولكن هذا العدو يدهش في صباح اليوم التالي عندما يجد قوات البدو قد تضاعفت في الليل إلى أضعاف مضاعفة ، لذلك يتملك الارتباك قيادته ، وتنهار معنويات قواته ، ويتم عامل المفاجأة ، ويسهل تحقيق النصر خاصة إذا أدركنا استمرار تدفق قوات البدو ساعة الالتحام مما يرجح الكفة ويحسم القتال .

هذا ما طبقه ألب أرسلان ، حيث جعل القيادة البيزنطية تقرر الإقدام على القتال ونبذ الاتفاق والمصالحة بناء على معلومات وهمية غير صحيحة ، ثم عندما التقت قواته لأول مرة بقوات رومانوس كان عددها أقل بكثير من القوات البيزنطية ، ولكن بعد مضي ليلتين تضاعفت هذه القوات ذلك أن ألب أرسلان وصل إلى قبالة الامبراطور رومانوس في يوم أربعاء واشتبك معه ظهيرة الجمعة ، وكسباً للوقت والمعلومات ، وقبل أن يحدث الاشتباك أرسل السلطان بعثة لمقابلة الامبراطور والتفاوض معه وذلك من حيث الظاهر ، لكن لاستكشاف أحوال الجيش البيزنطي من حيث الواقع .

فلقد كان الجيش البيزنطي كبيراً للغاية قدرته المصادر العربية فجعلته يتجاوز المليون مقاتل ، ثم إن هذا الجيش كان مؤلفاً من عدد من الجنسيات غير المتجانسة ذلك أنه كان « لا يفهم الحداث – فيه – إلا التراجم » وكان من أبرز جنسيات هذا الجيش مجموعة من الخزر الوثنيين ، وكان هؤلاء أتراكاً من حيث الأصل واللغة لا يدينون بالإسلام أو سواه من حيث العقيدة ، يضاف إلى هذا أن عدداً من ضباط رومانوس كانوا قد عقدوا مؤامرة ضده قرروا فيها التخلي عن القتال ساعة الالتحام ، والتراجع إلى القسطنطينية ، للاستيلاء على السلطة وتعيين امبراطور جديد غير رومانوس .

لقد اتصلت بعثة السلطان بالامبراطور وعرضت عليه انجاز هدنة فرفض في صلف وغرور ، وأثناء ذلك اتصل رجال البعثة بزعماء المرتزقة الخزر وتم الاتفاق على أن يتخلوا ساعة الالتحام عن الجيش البيزنطي والانضمام إلى أبناء جلدتهم .

هذا ومن غير المعقول ان يصدق المرء أن تعداد الجيش البيزنطي كان من الضخامة كما وصف ، ذلك أن المصادر العربية أرادت أن تقول بأن النصر الذي حصل عليه السلطان كان عبارة عن معجزة سماوية وكرامة للسلطان الملك العادل ألب أرسلان واستجابة لدعاء المسلمين له بالنصر يوم الجمعة .

ومن المستبعد أن تكون المعركة قد حصلت فعلاً يوم جمعة ، ثم إنه لم يكن هناك أية معجزة سماوية وكل ما في الأمر أن قوة بيزنطية لم تتجاوز المئة ألف قد لاقت قوة تركمانية لم يقل عددها عن الخمسين ألف مقاتل مع عدد من المزايا تم شرحها وأخرى سنبين .

فلقد كانت قوات ألب أرسلان من الفرسان الرماة ، وكانت القوات البيزنطية مؤلفة من الفرسان الثقال مع المشاة ، وقامت خطة ألب أرسلان على مبدأ فصل المشاة عن الفرسان (يمكن تشبيه الفرسان الثقال بدبابات العصر الحالي التي تفقد الكثير من قيمتها بدون حراسة من المشاة ، كما أنه لا قيمة كبيرة للمشاة بدون دبابات) وقتل خيول الفرسان ثم القضاء على المجموعتين كل على انفراد .

لقد أحسن ألب أرسلان استغلال طبيعة الأرض لصالحه فأقام كائن على أطراف جيشه كانت مهمتها التحرك ساعة الالتحام لانجاح عملية الفصل بين المشاة والفرسان ، كما أقام كائن خلفية كان عليها الانقضاض على فرسان العدو بعد ابتعادهم عن المشاة .

وبدأت المعركة بأن وقف السلطان ألب أرسلان على رأس قواته التي اصطفت خلفه ، وكان حال القوات البيزنطية مماثلاً ، وحدث تراشق بالنبال بين الطرفين ثم اندفعت قوات الفرسان البيزنطية ، فقامت القوات السلجوقية بالتراجع لفتح ثغرة تمر منها قوات الفرسان دون أن تحقق هدفها ، وتم التراجع السلجوقي بطريقة اتفاقية مكنته من تطويق سلاح المشاة البيزنطي وفصله عن الفرسان ، وهنا تخلى المرتزقة الخزر عن البيزنطيين كما انسحب قسم كبير من الجيش البيزنطي وتخلى عن المعركة ميمماً صوب القسطنطينية ، وترك رومانوس في لجة من الفوضى والدمار ، فقاتل حتى أصابه الإعياء فسقط أسيراً في يد التركمان ، فكان أول امبراطور يأسره المسلمون في تاريخهم .

وكانت المعركة قصيرة لكن حاسمة فيها تحطمت قوى بيزنطة العسكرية ، وهكذا رسمت الخطوط الأولى لنهاية الامبراطورية البيزنطية والبداية الفعلية لتحول أراضيها إلى أراض تركية : في هذه المعركة أخذت شمس بيزنطة تميل بسرعة نحو الغروب في حين أخذت شمس امبراطورية اسلامية جديدة تستعد للاشراق ، وفيها تقرر وفاة الامبراطورية الرومانية المسيحية الشرقية وولادة الامبراطورية الإسلامية العثمانية .

وكانت الغنائم التي حازها التركمان أكثر من أن تحصى ، ولم يحاول ألب أرسلان استغلال نصره المؤزر هذا بمطاردة فلول البيزنطيين ، والزحف على القسطنطينية نفسها ، بل اكتفى

بأن أحضر رومانوس إلى حضرته ، وضربه ثلاث مقارع ورفسه برجله ووبخه وقال : ألم أرسل إليك رسل الخليفة أطال الله بقاءه في امضاء الهدنة فأبيت ؟ ألم أرسل إليك بالأمس أسألك الرجوع فقلت : قد أنفقت الأموال وجمعت العساكر الكثيرة حتى وصلت إلى ها هنا وظفرت بما طلبت ، فكيف أرجع إلا أن أفعل ببلاد المسلمين مثلما فعلوا ببلادي ؟ ولقد رأيت أثر البغي ! وكان قد جعل في رجليه قيدين ، وفي عنقه غلا ، فقال : أيها السلطان قد جمعت العساكر من سائر الأجناس ، وأنفقت الأموال لأخذ بلادك ، ولم يكن النصر إلا لك ، وبلائي ووقوفي على هذه الحال بين يديك بعد هذا ، فدعني من التوبيخ والتعنيف وافعل ما تريد ، فقال له السلطان : فلو كان الظفر لك ما كنت تفعل معي ؟ فقال : القبيح ، فقال : آه والله صدق ، ولو قال غير هذا لكذب ، هذا رجل عاقل جلد ولا يجوز أن يقتل ، ثم قال له : ما تظن الآن أن أفعل بك ثم قال : أحد ثلاثة أقسام : أما الأول فقتلي ، والثاني اشهاري في بلادك التي تحدثت بقصدها ، وأما الثالث فلا فائدة في ذكره فإنك لا تفعله ، قال : وما هو ؟ قال : العفو عني وقبول الأموال والهدية – أي الجزية – واصطناعي وردي إلى ملكي مملوكاً لك وبعض اسفهسلاريتك – ضباطك – ونائبك في الروم ، فإن قتلك لي لا يفيدك ، هم يقيمون غيري .

فقال السلطان : ما نويت إلا العفو عنك فاشتر نفسك ، فقال : يقول السلطان ما يشاء ، فقال : عشرة آلاف ألف دينار ، فقال : والله إنك تستحق ملك الروم إذ وهبت لي نفسي ، ولكن قد أنفقت أموال الروم واستهلكتها منذ وليت عليهم في تجريد العساكر والحروب وأفقرت القوم ، ولم يزل الخطاب يتردد إلى أن استقر الأمر على ألف ألف وخمسمائة ألف دينار ، وفي الهدنة (الجزية) على ثلاثمائة ألف دينار وستين ألف دينار في كل سنة ، وأن ينفذ من العساكر الروم ما تدعو الحاجة إليه ، وذكر أشياء فقال : إذا مننت علي عجل سراحي قبل أن تنصب الروم ملكاً غيري فيفوت المقصود ولا أقدر الوصول إليهم فلا يحصل شيء مما شرطته علي ، فقال السلطان : أريد أن تعيد أنطاكية والرها ومنبج ومنازكرد فإنها أخذت من المسلمين عن قرب ، وتفرج عن أسارى المسلمين ، فقال : أما البلاد فإن وصلت سالماً إلى بلادي أنفذت إليهم العساكر وحاصرتها وأخذتها منهم وسلمتها إليك . . . . وأما أسارى المسلمين فالسمع والطاعة إذا وصلت سرحتهم وفعلت معهم الجميل ، فأمر السلطان بفك قيوده وغله ، ثم قال أعطوه قدحاً ليسقينيه ، فظنه له فأراد أن يشربه ، فمنع ، وأمر بأن يخدم السلطان ويناوله القدح ، فأومأ إلى تقبيل الأرض ، وناول السلطان القدح فشربه ،

وجز شعره ، وجعل وجهه على الأرض . . . . فلما كان من الغد أحضره السلطان وقد نصب له سريره ودسته الذي أخذ منه ، فأجلسه عليه ، وخلع عليه قباءه وقلنسوة وألبسه إياها بيده ، وقال له : قد اصطنعتك وثقت بأمانتك وأنا أسيرك إلى بلادك وأردك إلى ملكك ، فقبل الأرض . . . . . وعقد له السلطان راية فيها مكتوب « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وأنفذ معه حاجبين ومائة غلام . . . وركب معه وشيعه قدر فرسخ ، فأراد أن يترجل فمنعه السلطان وحلف عليه وضمه إليه وتعانقا ، وعاد السلطان عنه »

ولقد أخفق رومانوس في دخول القسطنطينية ، وجهد بعد ذلك من أجل الوفاء بما التزم به للسلطان ، ومن أجل استعادة عرشه فأخفق وفقد حياته .

* * *

مفهوم الانسان عند كارل ماركس

بلال الجيوسي

المفاهيم الشائعة عن المفكر – أي مفكر – وعن مذهبه ، ليست بالضرورة المفاهيم الحقيقية . ذلك أن هذا الشيوع تحكمه عدة عوامل – مقصودة وغير مقصودة – فتختفي جوانب هامة من هذا المفكر في الظل ، وتظهر جوانب أخرى في الضوء . وفي هذا المناخ – مناخ الظهور والاختفاء – ينبت الإبهام وسوء التفسير ، يرويهما ضعف النقد ونسيان الدرس الديكارتي العميق .

وفي الحقيقة ، فإنه عندما يرد اسم « كارل ماركس » تتداعى إلى الذهن جملة مفاهيم اقتصادية واجتماعية ، قد تبدو – لأول وهلة – بعيدة عن مشكلة فلسفية مثل مشكلة « طبيعة الإنسان » . ولعل مرد هذا ما يشيع من أن الماركسية فيما يبدو « لا تلتفت إلى الإنسان ، لا تتعرف على أهمية الفرد ، وترد كل شيء إلى ما هو جماعي ؛ وأن الشيوعية تنفي المصالح والحاجات الشخصية ، والعالم الروحي للإنسان ، صراعاته ، طموحاته ، عواطفه ، أفراحه ، ومخاوفه وخبراته العاطفية » (٤ – ٥٠٧) * .

ويؤكد « اريك فروم » أن مفهوم الإنسان عند كارل ماركس لم يلق من الباحثين إلا اهتماماً قليلاً نسبياً ، ويعزو قلة الاهتمام هذه إلى أسباب عامة وخاصة . ويذكر من الأسباب العامة : الجهل . إذ يبدو « أن هذه المسائل التي لا تدرس في الجامعات ، ومن ثمة لا تخضع

---

* يرمز الرقم الأول إلى رقم المصدر في قائمة المصادر ، والرقم الثاني إلى رقم الصفحة في هذا المصدر .

للفحص ، يبدو أنها متاحة لكل شخص كي يفكر ويتحدث ويكتب عنها كما يشاء ، وبدون أي معرفة . فليس هناك سلطات معترف بها تصر على احترام الوقائع والحقيقة . ومن هنا ، يشعر كل إنسان بأن له الحق في أن يتحدث عن ماركس » دون أن يقرأه ، أو – على الأقل – دون أن يقرأ ما يكفي لحصول على تصور مناسب عن مذهبه الفكري المعقد والمتشابك والدقيق » (١ – ٥) . ويضيف « فروم » إلى هذا السبب سبباً آخر هو أن آراء « ماركس » السايكولوجية مبثوثة في كل أعماله ، وليست معروضة على نحو منظم ، ويجب أن تستخلص حتى تظهر طبيعتها المنظمة . وثالث الأسباب العامة هو إساءة تفسير « ماركس » في القول بأن الإنسان عنده هو « إنسان اقتصادي » وحسب ، لا تدفعه إلا الرغبة في الربح المادي . (٢ – ٤٥٤) .

وبالإضافة إلى مثل هذه الأسباب العامة ، يذكر « فروم » أسباباً خاصة تتعلق مباشرة بعلم النفس . يقول : « لقد أنتج سايكولوجيا ماركس الديناميكية مبكرة كثيراً فلم تلق انتباهاً كافياً . ذلك أنه لم يتطور علم نفس الاعماق ديناميكي منظم إلا مع فرويد ، حيث أصبح التحليل النفسي أهم مذهب سايكولوجي . وقد حجب انتشار هذا المذهب – الذي يعود إلى حد ما إلى ماديته الميكانيكية – التعرف على أساس علم نفس الأعماق الإنساني عند ماركس » (٢ – ٤٥٤) . ويتابع « فروم » تحليله ، فيتهم نزايد أهمية الاتجاه التجريبي في علم النفس بأنها ساهمت في تعطيل فهم آراء ماركس السايكولوجية ، ويتساءل : « وكيف يمكن أن يكون الأمر على غير هذا النحو ؟ وعلم النفس الأكاديمي الحديث – إلى حد بعيد – علم يشتغل بالإنسان الضائع « Alienated » الذي يدرسه باحثون ضائعون ، بمناهج ضائعة ومضيعة . وقد كانت سايكولوجيا ماركس – وهي مؤسسة على الوعي الكامل بواقعة الضياع – قادرة على تجاوز هذا الاتجاه السايكولوجي ، لأنها لم تأخذ الإنسان الضائع على أنه الإنسان الطبيعي ، على أنه الإنسان من حيث هو إنسان . ونتيجة لهذا ، فإن علم النفس الماركسي ظل – في الواقع – كتاباً مغلقاً أمام هؤلاء الذين يؤمنون بالانعكاس والإشراط على أنها الكلمات الأخيرة في معرفة الإنسان » (٢ – ٤٥٤) .

الثابت والمتغير

ولكن هل يوجد عند ماركس – حقاً – مفهوم عن الطبيعة الإنسانية ؟ عن الإنسان من حيث هو إنسان ؟ لقد رأى بعض المفكرين أنه لا يوجد مثل هذا المفهوم ، وأن الإنسان

– عند ماركس – يولد صفحة بيضاء « تكتب الثقافة عليها نصوصها » . ولما كانت الثقافة متغيرة باستمرار ، فإن نصوصها ستتغير أيضاً ، ومعها طبيعة الإنسان . يكتب الدكتور زكريا إبراهيم : « يقول دعاة الماركسية إن مفهوم الإنسانية على نحو ما تصوره كارل ماركس ، مفهوم نسبي . وذلك لأنه ليس ما يمنع البشرية من أن تستحيل إلى شيء آخر ، لا يجيء مفهومه متطابقاً مع المفهوم الموجود لدينا في الوقت الحاضر عن الإنسان . ولكن هذا الشيء الذي قد تستحيل إليه البشرية ، لن يكون هو الآخر نهائياً حاسماً ، بل سيكون بدوره نسبياً موقوتاً ، إن لم نقل متغيراً قابلاً للتحول ، ومعنى هذا أن الجنس البشري – في نظر الماركسية – لا يشارك مطلقاً في أي مبدأ أبدي خالد ، وإنما البشرية في صميمها ظاهرة متحولة متقلبة ، أو حقيقة نسبية قابلة للتطور والترقي والزوال . وما دام التاريخ – كما يقول انجلز – هو بأكمله مجرد تحول مستمر للطبيعة البشرية ، فليس بدعاً أن تكون لكل حقبة تاريخية « طبيعة بشرية » تختلف عن مثيلتها لدى غيرها من الحقب التاريخية الأخرى » (٧ – ٢٥٥) .

إن هذه الصورة الشائعة عن مفهوم الطبيعة الإنسانية عند ماركس صورة خاطئة . ومصدر هذا الخطأ هو أن الدكتور زكريا إبراهيم أو « دعاة الماركسية » الذي يلخص موقفهم يغفلون تمييزاً هاماً عند ماركس بين ما هو ثابت وما هو متغير ، فيعتبرون أن الطبيعة البشرية عند ماركس متغيرة . بجملتها . والواقع أن ماركس يميز بين « الطبيعة الإنسانية بشكل عام ، وبين الطبيعة الإنسانية كما تتغير في كل حقبة تاريخية » (١ – ٢٥) . ويتصل هذا التمييز مباشرة بالتمييز بين « الدوافع الثابتة » و « الدوافع النسبية » . فالدوافع الثابتة – كما يقول ماركس : « توجد في كل الظروف ، ولا تغيرها الشروط الاجتماعية إلا في شكلها واتجاهها » . أما الدوافع النسبية فهي مشروطة « بنمط معين من التنظيم الاجتماعي » (٢ – ٤٥٦) . والجوع – على سبيل المثال – دافع ثابت ، في حين أن الجشع – على سبيل المثال أيضاً – دافع نسبي . وأكثر من هذا ، فإن ماركس يقول : « إن الدوافع النسبية ليست جزءاً لا ينفصل عن الطبيعة الإنسانية » (٢ – ٤٥٦) . وإنما هي جزء مشروط – كما ذكرت – بالبنية الاجتماعية القائمة . والمسألة الأساسية هي أن الإنسان في ظل بنية اجتماعية ما ، ليس بالضرورة ، هو الإنسان الحقيقي ، الإنسان من حيث هو إنسان . فماركس « لم يفترض أبداً أن الطبيعة الإنسانية متطابقة مع التجلي الخاص الذي تظهر فيه في مجتمعه » (١ – ٢٤) . ومعنى هذا ، أنه لم ينظر إلى سلوك الناس حوله ليستنتج – كما فعل هوبز – ان الإنسان ذئب

الإنسان ، فيخلط بين ما هو طارىء وبين ما هو أصلي ، بين ما هو التعبير الحقيقي عن ماهية الإنسان ، وبين ما هو ضياع هذه الماهية . والواقع أن الدكتور إبراهيم يقترب من الحقيقة عندما يقول : « وإذن فإنه لم يعد في استطاعتنا اليوم أن نقول مع روسو أن الإنسان بطبيعته خير ، أو أن نقول مع هوبز إن الإنسان ذئب لأخيه الإنسان » بمعنى أنه بطبيعته شرير » (٧ — ٢٥٦) . ولكن سبب هذا ما ليس كما يقول الدكتور إبراهيم : « ان مثل هذه الأحكام العامة المجردة ، لا تتفق في شيء مع النظرة الجدلية إلى التاريخ والإنسان بصفة عامة » (٧ — ٢٥٦) ولكن لأن ماركس لا يخلط بين ما يراه تعبيراً عن ضياع الماهية الإنسانية وبين ما يرى أنه الماهية الإنسانية الحقيقية . . .

الفلسفة والاقتصاد السياسي :

يصر ماركس باستمرار على أنه ينطلق من الاقتصاد السياسي . يقول في « المخطوطات الفلسفية والاقتصادية » ٭ : « لقد بدأنا من افتراضات الاقتصاد السياسي . لقد قبلنا لغته وقوانينه » (١ — ٩٣) . وحين يتحدث عن ظاهرة « الضياع » يكتب : « لقد بدأنا بواقعة اقتصادية ، ضياع العامل وانتاجه . لقد عبرنا عن هذه الواقعة بمصطلحات عقلية مثل : العمل الضائع . وفي تحليلنا للمفهوم فإن ما فعلناه — فقط — هو أننا حللنا واقعة اقتصادية » (١ — ١٠٤) . كذلك يصر ماركس على ما هو واقعي ومشخص . يكتب في الايديولوجيا الألمانية : « في تباين مباشر مع الفلسفة الألمانية التي تنزل من السماء إلى الأرض ، فإننا نصعد هنا من الأرض إلى السماء . أي أننا لا نبدأ مما يقوله الناس أو يتخيلونه ، ولا من أناس

٭ تتألف من أربع مخطوطات كتبها ماركس في الفترة بين نيسان — آب ١٨٤٤ . وقد نشرت هذه المخطوطات لأول مرة ١٩٣٢ . وقد استخدمت هذه المخطوطات إلى حد بعيد في كتابة هذا المقال . واعتمدت على ترجمة ت . ب . بوتومور الانكليزية المنشورة في كتاب « اريك فروم » (١) . ولمزيد من التفاصيل بإمكان القارىء الرجوع إلى هذا الكتاب . وبطبيعة الحال فإن الاعتماد على هذه المخطوطات سوف يثير مباشرة مسألة العلاقة بين فكر ماركس الشاب وماركس الناضج . وهي مسألة دار حولها جدل كثير . ولكني سأنطلق من فكرة أن استمراراً — حتى لو كان غير ملحوظ — بين فكره الشاب وفكره المتأخر ، خصوصاً في مسألة « الإنسان » . فهناك نصوص في « رأس المال » تؤيد هذا الاتجاه . انظر : (١—٧٦) .

متصورين ومتخيلين كي نصل إلى الناس الواقعيين . إننا نبدأ من الناس الفعالين الواقعيين ، وعلى أساس من عمليتهم الحياتية الواقعية ، نظهر تطور الانعكاسات الايديولوجية ، وأصداء هذه العملية الحياتية » (١ — ١٩٨) .

ولكن — على الرغم من هذا التشبث بالاقتصاد السياسي ، وبما هو واقعي ومشخص ، فإن ماركس — كما سنرى — لم ينطلق في مناقشته لمفهوم الإنسان من أسس اقتصادية . وإنما كانت المسألة على العكس من ذلك . لقد أقبل ماركس على الاقتصاد السياسي وهو يحمل في ذهنه مفهوماً عن الإنسان ، تأثر فيه — إلى حد بعيد — بهيجل وفويرباخ . وأكثر من هذا ، فهو قد استخدم هذا المفهوم كمعيار أدان على أساسه الشرط الإنساني في المجتمع الرأسمالي . بعبارة أخرى ، فإن ماركس كان له طريقة أيضاً من « السماء إلى الأرض » . يكتب ماكليلان : (إن استعمال — ماركس — لمصطلحات مثل « الضياع » و « تحقيق الماهية الإنسانية » يظهر بوضوح أن تحليل ماركس لم يكن تحليلا علمياً بحتاً ، ولم يكن اختبارياً ؛ إذا عنينا بهذا أنه مجرد من أحكام القيمة . لأن وصف ماركس كان مملوءاً بأحكام دراما تيكية مبسطة جداً . وفي حين أن التحليل الاقتصادي كان مأخوذاً من الاقتصاد الكلاسيكي ، فإن الأحكام كانت مستلهمة من قراءة « شولز » و « بيكر » و « سيسموندي » و « بيريت » (٣ — ١١٥) .

الإنسان وفعالية الحياة :

ينطلق ماركس في تعريفه لماهية الإنسان من أن يميز نوعاً من الكائنات عن الأنواع الأخرى ، هو نمط فعالية هذا النوع . إذ أن « شخصية النوع الكلية تتجلى في نمط فعالية حياته » (٥ — ٧٣) . طبيعة الإنسان — إذن — تتجلى في فعالية حياته . فما هي الفعالية التي تميز النوع الإنساني عن غيره ؟ « الإنتاج » « العمل ، الحياة المنتجة هي حياة الإنسان النوعية » (٥ — ٧٣) . ولكن الحيوانات أيضاً — بمعنى ما — تنتج ، وهذا ينقلنا إلى السؤال : ما هو الفرق بين فعالية الإنسان وفعالية الحيوان ؟ يكتب ماركس في « المخطوطات » : « والحيوان — بطبيعة الحال — تنتج أيضاً . فهي تبني أعشاشها وأوكارها ، كما يفعل النحل والنمل . . . الخ ولكنها تنتج فقط ما هو ضروري لها ولصغارها . إنها تنتج فقط في اتجاه واحد ، في حين أن الإنسان يستطيع أن ينتج على نحو كلي . إنها تنتج تحت ضغط الحاجة المادية فقط ، في حين أن الإنسان ينتج عندما يكون متحرراً من الحاجة المادية ، وينتج — بحق — عندما يكون متحرراً من هذه الحاجة . تنتج الحيوانات نفسها فقط ؛ في حين أن الإنسان يعيد إنتاج الطبيعة

كلها . إن منتوجات الحيوان تنتمي مباشرة إلى جسمه المادي ، في حين أن الإنسان حر في مواجهة ما ينتجه . تبني الحيوانات وفق معايير وحاجات النوع الذي تنتمي إليه ، في حين أن الإنسان يعرف كيف ينتج وفقاً لمعايير كل نوع ، ويعرف كيف يطبق المعيار المناسب على الموضوع (المناسب) . وهكذا فإن الإنسان يبني أيضاً وفقاً لقوانين الجمال » (١ - ١٠٢) .

الحيوان إذن كائن فعال أيضاً ، ولكنه « لا يميز الفعالية عن ذاته ، إنه فعاليته ذاتها . موضوعاً لإرادته ووعيه ، ففعالية حياته واعية . إنها ليست تحديداً يتطابق معه تماماً » . (١ - ١٠١) .

الصفات التي تميز الإنسان عن الحيوان ، إذن ، هي :

١ - الحيوان ينتج فقط تحت ضغط الحاجة المادية ، وفي اتجاهها . والإنسان يستطيع أن ينتج متجاوزاً هذه الحاجة . وأكثر من هذا ، فإن الإنسان لا ينتج على نحو « إنساني » إلا إذا كان متجاوزاً لهذه الحاجة .

٢ - الحيوان ينتج وفقاً لمعايير نوعه وحسب . فالطائر - مثلا - يبني عشه ، والنملة تحفر أنفاقها ، على نحو نمطي ، ولكن الإنسان ، بالإضافة إلى أنه يستطيع أن يبني عش العصفور ويحفر نفقاً مشابهاً لنفق النملة ، فإنه يجدد ويبتكر باستمرار . إنه - في إنتاجه - يستطيع أن يطل على الأنواع الأخرى ، ويستطيع أن يجدد ويبتدع .

٣ - الحيوان متوحد مع فعاليته ، إنه فعاليته نفسها بدون فائض . ولكن الإنسان - على الرغم من العلاقة الوثيقة بينه وبين إنتاجه - فإنه يفيض عنه . إنه يتميز عنه ، ويعي أنه ينتج .

٤ - الإنسان - فوق ذلك كله - ينتج وفقاً لقوانين الجمال .

باختصار ، الإنسان كائن نوعي Species - being * ، فعاليته الأساسية والمميزة هي الإنتاج على نحو واع وحر .

---

* « مصطلح أخذه ماركس من فويرباخ في « ماهية المسيحية » . وفويرباخ يستعمل هذه الفكرة للتمييز بين الوعي عند الإنسان وعند الحيوان . فالإنسان ليس واعياً بنفسه كفرد وحسب ، وإنما بالنوع الإنساني . » (١ - ١٠٠) .

الإنسان والطبيعة :

ولكن على الرغم من هذه الاختلافات بين الإنسان والحيوان ، فإن الحياة النوعية لكليهما لها أساسها المادي . هذا الأساس يتمثل في أن الإنسان – شأنه في ذلك شأن الحيوان – « يعيش من الطبيعة اللاعضوية ، وما دام أكثر كلية من الحيوان ، فإن مدى الطبيعة اللاعضوي الذي يعيش منه يكون أكثر كلية أيضاً . فالنباتات ، والحيوان ، والمعادن ، والهواء ، والنور ..الخ تشكل من الناحية النظرية ، جزءاً من الوعي الإنساني من حيث هي موضوعات للعلم الطبيعي والفن ، إنها طبيعة الإنسان الروحية اللاعضوية ، وسائل حياته العقلية ، التي يجب أن يهيئها من أجل المتعة والاستمرار . ومن الناحية العملية – أيضاً – فإنها تشكل جزءاً من الحياة الإنسانية والفعالية الإنسانية . فن الناحية العملية ، يعيش الإنسان من هذه المنتوجات الطبيعية فقط ، سواء كانت في شكل طعام ، أو تدفئة ، أو ملابس . . . الخ . إن كلية الإنسان تبدو – عملياً – في الكلية التي تجعل من الطبيعة بجملتها جسماً لا عضوياً للإنسان : ١ – كوسيلة مباشرة لحياته ، وأيضاً : ٢ – كموضوع مادي وأداة لفعالية حياته . الطبيعة هي الجسم اللاعضوي للانسان . وعندما نقول ان الإنسان يعيش من الطبيعة ، فإننا نعني أن الطبيعة هي جسمه الذي يجب أن يبقى في تفاعل مستمر معه كي لا يموت ، والقول إن الحياة المادية والعقلية للإنسان تتفاعل مع الطبيعة يعني – ببساطة – أن الطبيعة متفاعلة مع ذاتها ، لأن الإنسان جزء من الطبيعة » (١ – ١٠٠) .

علاقة الإنسان بالطبيعة – عند ماركس – علاقة معقدة :

١ – فالإنسان جزء من الطبيعة ، ولكنه ليس جزءاً كسائر الأجزاء . فهو جزء ممتاز ، ممتاز بوعيه ونمط فعاليته . هو – إذا جاز التعبير – الطبيعة وقد وعت ذاتها في نقطة أثيرة من نقاطها ، في الإنسان .

٢ – والطبيعة هي – بتشبيه ماركس – جسم لاعضوي للإنسان ، بالإضافة إلى جسمه العضوي ، يمنح منها وسائل بقائه وحياته ، وهي المصدر الوحيد لذلك .

٣ – والطبيعة كذلك هي المجال الذي تتحقق فيه ماهية الإنسان ، فهو لا يتحقق ككائن نوعي متميز إلا بفضل الطبيعة « ففي عمله في العالم الموضوعي يثبت الإنسان نفسه على أنه كائن

نوعي حقاً.» وهو يفعل هذا بالإنتاج ، الذي تظهر الطبيعة بواسطته على أنها « من صنعه ، وعلى أنها واقعه » (١ – ٢ – ١٠٢) .

٤ – وليست الطبيعة مصدر البقاء ، ومجال تحقيق الماهية وحسب ، ولكنها بالإضافة إلى ذلك ، جزء من طبيعة الإنسان الروحية ، جزء من وعيه ، ما دامت موضوعات الطبيعة هي موضوعات للعلم والفن .

واضح – إذن – أن الإنسان ليس جزءاً بسيطاً من الطبيعة ، ولكنه جزء خاص ، ومتميز عن باقي الأجزاء . وماركس لا يرد الإنسان رداً بسيطاً إلى الطبيعة – على الرغم من اتصال الروابط بينهما – وهو في هذا يختلف عن المادية المبتذلة التي كانت سائدة في وقته . « لقد زعمت هذه المادية أن جوهر كل العمليات الفعلية والروحية يوجد في المادة ، والعمليات المادية . وهذه المادية – في أكثر أشكالها سطحية وابتذالا – كانت تقول إن المشاعر والأفكار يمكن أن تفسر كنتائج لعمليات جسمية كيماوية » (١ – ٩) . إن ماركس يتحدث عن « أساس مادي » ، وهو في حديثه عن هذا الأساس يميز نفسه عن موقف هيجل . ورأي ماركس يتضمن « دراسة الحياة الاجتماعية والاقتصادية الواقعية للإنسان ، وتأثير طريقة الإنسان الفعلية في الحياة على تفكيره ومشاعره » (١ – ٩) . وهو ، إن ركز على هذا الأساس فلأنه كان يرد على موقف فكري آخر لا يرى في العالم الواقعي إلا تجلياً لروح مطلق يكمن وراءه . يكتب ماركس في « العائلة المقدسة » : « إن فلسفة هيجل في التاريخ تفترض روحاً مطلقة أو مجردة ، تتطور على نحو يجعل النوع الإنساني مجرد أداة لحمل هذه الروح ، عن وعي أو غير وعي . إن هيجل يفترض أن التاريخ التأملي يسبق التاريخ المادي ويكمن وراءه . وتاريخ الإنسان تحول إلى تاريخ الروح المجردة للنوع الإنساني التي تتجاوز الإنسان الواقعي » .

والواقع أن « مادية » ماركس تتجلى في تحديده لعلاقة الإنسان بالطبيعة – كما بينا – وعلاقته بالإنتاج . وقد عرفنا أن ماهية الإنسان تتحقق في فاعلية حياته : الإنتاج ، لذلك كانت هناك علاقة خاصة بين الإنسان وبين الإنتاج وما يحيط بهذا الإنتاج من شروط . يشرح ماركس هذه العلاقة في « الأيديولوجيا الألمانية » : « إن الطريقة التي ينتج بها الناس وسائل عيشهم ، تعتمد – قبل كل شيء – على طبيعة الوسائل الفعلية الموجودة والتي عليهم أن يعيدوا إنتاجها . هذا النمط من الإنتاج لا يجب أن ينظر إليه – ببساطة – على أنه إعادة إنتاج الوجود المادي للأفراد . إنه – بالأحرى – شكل محدد من فعالية هؤلاء الأفراد ، شكل محدد من أشكال التعبير عن حياتهم ، نمط من الحياة محدد لهم . فماهية الأفراد تتحدد بالطريقة التي

يعبرون فيها عن حياتهم . لذلك تلتقي هذه الماهية مع إنتاجهم ؛ مع ما ينتجون ومع كيفية هذا الإنتاج . طبيعة الأفراد — إذن — تعتمد على الشروط المادية التي تحدد إنتاجهم » . (١ — ١٠) .

الإنسان وتحقيق الذات :

الإنسان عند ماركس — إذن — فعالية واعية حرة . وبالإضافة إلى ذلك يرى ماركس الإنسان من حيث هو كائن اجتماعي ، ومن حيث هو كائن حسي أيضاً . يقتفي « شاخت » أثر هذه المفاهيم ليعيدها في معظمها إلى هيجل . « تقابل فعالية الإنتاج الإنتاج عند ماركس وعند هيجل بعد الفردية أو الشخصية ، فمن خلال الفعالية تعبر الشخصية الفردية عن ذاتها — وبالتالي — تحققها » (٥ — ٧٤) .

صفات الإنسان عند ماركس — إذن — ثلاثة : الفردية (من حيث هي تتجلى في الإنتاج) ، والاجتماعية ، والحسية . أما عند هيجل فهي : الفردية والكلية (٥ — ٧٤) . وماركس يضيف البعد الحسي ليصحح — كما يعتقد — نقصاً خطيراً عند هيجل الذي يعتبره أنه لم يعط طبيعة الإنسان الحسية حقها (٥ — ٧٤) .

إن الأهمية التي يعزوها ماركس للإنتاج تكمن — كما رأينا — في العلاقة بين الإنتاج وتحقيق الذات . ويبدو أنه انطلق من هذه العلاقة كسلمة . ويعتقد « شاخت » أن ماركس اقتنع بهذه العلاقة من مناقشة هيجل لها في (فلسفة الحق) . « تواجه الإرادة الذاتية العالم الخارجي ، ومهمتها أن تجسد نفسها في هذا العالم الخارجي ، وأن تصوغ هذه المادة على صورة ذاتها . هذه الإرادة — على أية حال — شخص ، والموضوع الخارجي — بالمقابل — شيء . وللشخص سلطة على الشيء . هذه هي مؤسسة الملكية » (٦ — ٣٨٣) . قد تبدو محاولة تقصي مفهوم الإنتاج عند ماركس في مؤسسة الملكية عند هيجل ، غريبة لأول وهلة . ولكن الأمر يتضح عندما نعرف أن هيجل يميز بين ثلاثة أنواع من سلطة الإرادة أو حقها على الأشياء . وأحد هذه الأنواع هو فعل « الامتلاك » The act of Possession فهيجل يرى أنه « إذا كان لإرادتي أن تجسد ذاتها في موضوع خارجي ، فليس يكفي أن أرغب ذاتياً وداخلياً في أن يكون هذا الموضوع « لي » . إن مثل هذه النية البحتة تبقى ذاتية ، ومهمة الإرادة هنا هو أن تحقق ذاتها في موضوع . فيجب إذن أن يكون هناك فعل امتلاك إيجابي » . هذا الامتلاك — عند

هيجل – يمكن أن يتم بواحدة من ثلاث طرق . « إما بالإمساك المادي للشيء أو (بالعمل على الموضوع وصياغته بالشكل الذي أريده) ، أو بمجرد الإشارة إليه » (٦ – ٣٨٥) . ويعد أن يناقش هيجل الشكلين الأول (الإمساك المادي) والثالث (بالإشارة) ، ويقول أن الأول ذاتي ومؤقت ، وأن الثالث ليس امتلاكاً فعلياً وإنما تمثيل وحسب ، يستبقي الشكل الثاني وهو صياغة الشيء) . « فعندما أضفي شكلا على شيء ما ، فإن شخصية الشيء المحددة من حيث هو لي تكتسب وضعاً خارجياً مستقلا . وعلاقة الشيء بي ليست سطحية ولا حائمة ، لأنه – أساساً – تحول من خلال فعاليتي الإنتاجية أو التشكيلية على نحو يحمل آثاري . لقد وضعت إرادتي فيه ، وجعلته يعكس إرادتي وشخصيتي » (٥ – ٧٥) .

وكما يتحدث هيجل عن عملية « تجسيد الإرادة الذاتية في العالم الخارجي » ، فإن ماركس يتحدث نفس اللغة . فالفرد يجد نفسه في مواجهة العالم الخارجي الحسي . هذا العالم « هو المادة التي ينتج المرء الأشياء فيها ومن خلالها » (٥ – ٧٦) . « والشيء المنتج هو نتاج العمل ، وهذا النتاج هو تحويل العمل إلى موضوع ، وفيه يصبح العمل موضوعاً » . ويتحقق له وجود خارجي » (٥ – ٧٦) . فالمرء – إذن – يعيد « إنتاج ذاته على نحو فعال وواقعي ؛ ويرى انعكاس ذاته في عالم بناه هو » (٥ – ٧٦) . وبدون هذه العملية تبقى الذات مضمرة ، أو على حد تعبير هيجل « تبقى الإرادة في ذاتها » ومن خلال « الخرجنة » Externalization يصبح الإنسان واقعة موضوعية لذاته ، وهذا يكمل تحقيق ذاته .

الإنسان كائن اجتماعي وحسي :

وليس الإنسان – عند ماركس – كائناً فعالا واعياً وحسب ، ولكنه – أيضاً – كائن اجتماعي . « وأي مظهر من مظاهر حياة الإنسان – حتى لو لم يبد بشكل مباشر مظهراً جماعياً لحياة يتحقق بالاشتراك مع الآخرين – فإنه ، على الرغم من ذلك ، تعبير عن الحياة الإجتماعية وتأكيد لها » (٤ – ١٣ ٥) . والحياة لا تكتسب صفتها الإنسانية بالعمل وحده ، ولكن بالعيش مع الآخرين على نحو إنساني أيضاً . وماركس يضع الفرد الذي ينظر إلى الآخرين على نحو عدائي في مقابل الفرد أو الإنسان من حيث هو كائن اجتماعي ، أي كائن إنساني حقاً » . وكما يتحدث ماركس عن الإنسان وهو يعمل في شروط حرة ، فهو يتحدث أيضاً عن « دعوة الإنسان إلى حياته الإنسانية أي إلى حياته الاجتماعية » (٥ – ٨٠) . ولما كان الإنسان كائناً نوعياً ، فإنه لن يحقق ماهيته إذا كانت علاقاته « بنوعه » قاسية (٥ – ٨٠) .

إن التمييز بين الفرد والمجتمع تمييز مصطنع « فالحياة الفردية والحياة الاجتماعية للإنسان ليست أشياء مختلفة على الرغم من أن لها أشكالا مختلفة للتعبير . فكل من هذه الجوانب من حياة الإنسان متصل بالآخر ، وكل منها متجل في الآخر إلى درجة كبيرة أو صغيرة » (٤ — ٥١٣) . وكذلك ، فإن المشكلة التي تتساءل : من الأهم ، الفرد أم المجتمع مشكلة زائفة . فالمجتمع مكون من أفراد ، والفرد لا يعيش إلا داخل المجتمع . والعلاقة الاجتماعية التي يتحدث عنها ماركس هي « العلاقة الإنسانية » ، والفرد عنده غاية في ذاته ، شريطة أن تكون هذه الغاية عضواً في « مملكة الغايات » .

والواقع أن القول باجتماعية الإنسان مسألة تكاد تكون حدسية ، وليست بحاجة إلى مقدمات وحجج تبنى عليها . إلا أن ماركس — فيما يبدو ولأول وهلة — يحاول استنباط البعد الاجتماعي من تعريفه الأول للإنسان وهو أنه « كائن نوعي » . فيتحدث عن « الكائن النوعي » وروابطه مع « نوعه » . ويعترض « شاخت » (٥) على هذا الضرب من المحاكة على أساس أن ماركس « يقدم تعبير « الكائن النوعي » بمعنى معين ثم يستعمله بمعنى آخر . فماركس يعني قوله أن الإنسان « كائن نوعي » على أساس أنه قادر على وعي طبيعته . وهو هنا يتبع فويرباخ » (٥ — ٨٠) . ويقول شاخت إن عبارة « كائن نوعي » يمكن أن توحي بذاتها بفكرة كائن يعيش — بانسجام — مع أفراد نوعه الآخرين . واعتراض شاخت أن ماركس استنبط اجتماعية الإنسان من المعنى الثاني ، في حين أنه قدم تعبير « الكائن النوعي » بالمعنى الأول : معنى الإنسان الواعي ، وأن الاجتماعية لا تستنبط من الوعي . ولكن « شاخت » يفترض أن ماركس عندما يقول : « إن الفرد لا يتطابق تماماً مع « طبيعته النوعية » الأساسية عندما تكون « روابطه النوعية » مع الآخرين قاسية كما هي في المجتمع المدني » أنه يقوم باستدلال منطقي يستنبط فيه الاجتماعية من النوعية ، أي من الوعي . ولكن هذا الافتراض بحاجة إلى مراجعة ما فمن المحتمل أن ماركس لم يكن يستعمل كلمة النوع هنا إلا بمعناها العادي دون أن يقوم بأي استدلال دقيق بالمعنى الذي يفترض « شاخت » .

والبعد الثالث الذي يكمل حديث ماركس عن طبيعة الإنسان هو البعد الحسي . ويعزو ماركس إلى تهذيب الحواس دوراً كبيراً . « إن تهذيب الحواس الخمس هو عمل كل التاريخ السابق » . ودور الحواس يظهر في أن الإنسان لا يصبح إنساناً — بمعنى الكلمة — إلا إذا كانت حواسه إنسانية . والحواس لا تصبح إنسانية إلا عندما يصبح موضوعها إنسانياً اجتماعياً ينتجه الإنسان ومكرس للإنسان أيضاً . « فالتمتع بالحواس أو إبداعها يمكن أن يتحقق فقط في شروط محددة » . (٣ — ١٢٠) .

وكما ميز ماركس بين فعالية حيوانية تعمل تحت ضغط الحاجة ، وفعالية إنسانية تعمل بوعي وتلقائية ، فإنه يميز بين « حاسة خاضعة لحاجة الفجة وبين حاسة إنسانية ! » ، فالحاسة الأولى تنظر إلى الأشياء من زاوية مادية نفعية ، في حين أن الحاسة الثانية « تربط ذاتها بالشيء من أجل الشيء ذاته » (٥ — ٨٢) . والأمثلة التي يضربها ماركس على هذه الحساسية الإنسانية أمثلة فنية بالدرجة الأولى : « أذن موسيقية ، عين حساسة لجمال الشكل » . وحتى الحواس « الدنيا » لها صفتها الإنسانية فماركس يقارن بين « الشكل الإنساني للطعام » وفعالية الأكل عند الحيوان والناس الجائعين » . ببساطة كي تصبح ملكات الإنسان إنسانية فإنه يجب أن يتحرر من كل الضغوط الخارجية .

الإنسان الضائع :

إذا كان الإنسان يحقق ذاته بالعمل ، فإن هناك شروطاً يجب أن يتم فيها العمل حتى يكون محققاً لذات الإنسان أي : واعياً وتلقائياً . وإذا كان الإنسان يحقق ذاته — أيضاً — بالعيش مع الآخرين ، فإن هناك شروطاً محدودة — أيضاً — حتى يصبح الاجتماع بالآخرين إنساني الطابع . وإذا كان الإنسان يحقق ذاته — ثالثاً بإستخدام حواسه فإن الشروط المحددة مطلوبة أيضاً لجعل هذه الحواس إنسانية أي لجعلها متحررة من الضغوط الخارجية ، ولربطها مع الأشياء لذات الأشياء وليس لمجرد الانتفاع . عند هذه « الشروط المحددة » يدخل التحليل الاقتصادي والاجتماعي . فهذا التحليل هو الذي سيبين لماذا لم تتوفر هذه الشروط ، وكيف ستتوفر في المستقبل كما يعتقد ماركس . إن عدم توفر هذه الشروط منع الإنسان من تحقيق ذاته فعالية واجتماعاً وحساسية ، أي بعبارة أخرى : أضاع الإنسان عن ماهيته . ونظرية الضياع عند ماركس مبنية مباشرة على نظريته في الطبيعة الإنسانية . ذلك أنه عندما يعمل المرء فإنه يضع جزءاً من ماهيته في إنتاجه ، أي أن جزءاً من ماهيته ينفصل عنه . ولكن هذا الانفصال — في شروط العمل الحر والواعي — يبقى تجسيداً للذات المنتجة ، ما دام نتاج العمل يبقى تحت سيطرة منتجة ولكن بمجرد أن تتغير هذه الشروط ، ويتم العمل في شروط غير واعية وغير تلقائية ، فإن هذا التجسيد يتحول إلى ضياع ، وتنحدر الماهية الإنسانية إلى مرتبة حيوانية ، لأن المرء عندها لا يعمل على أساس من وجوده النوعي المتميز ، وإنما يعمل — كما الحيوان — تحت ضغط الحاجة المادية . ذلك هو صلب وصف ماركس للطبيعة الإنسانية في ظل الإنتاج الرأسمالي ، « . . . . الموضوع المنتج بالعمل ، يقف الآن في مواجهة العمل ككائن

ضائع أو غريب ، كقوة مستقلة عن المنتج . إن نتاج العمل ، هو العمل وقد تجسد في موضوع وتحول إلى شيء مادي . هذا النتاج هو تحول العمل إلى موضوع ، وأداء العمل هو – في نفس الوقت – تحويله إلى موضوع . وأداء العمل يظهر في ميدان الاقتصاد السياسي كإلغاء للعامل ، والتحول إلى موضوع كفقدان وعبودية لهذا الموضوع . » (١ – ٩٥) . بعبارة أخرى ، إن قدرة الإنسان على تحويل ذاته المضمرة ، الموجودة بالقوة ، إلى ذات صريحة ، موجودة بالفعل ، عن طريق العمل الحر الواعي الذي يجسد ذات الإنسان أمامه في موضوعات الإنتاج هذه القدرة تنقلب على الإنسان في ظل شروط الإنتاج الرأسمالي لتصبح – بعدما كانت أساساً لتحقيق ذاته – أساساً لضياع هذه الذات . فهناك فرق – إذن – بين انفصال الإنتاج عن العمل في ظل شروط إنسانية ، وبين انفصاله في شروط غير إنسانية ، الإنفصال الأول تحقيق للذات ، والانفصال الثاني ضياع .

يشرح ماركس مسألة « الضياع » ، وكيف يتردى الإنسان فيها إلى مرتبة الحيوان . يكتب في « المخطوطة الأولى » : « ما الذي يشكل ضياع العمل ؟ أولا : يكون العمل خارجاً عن العامل External ، أي أنه ليس جزءاً من طبيعته ، ولذلك فإن العامل لا يحقق ذاته بعمله ، ولكنه ينكرها ، ويستولي عليه شعور بالتعاسة لا بالسعادة ، والعامل ، كذلك ، لا ينمي قواه المادية والعقلية بحرية ، ولكنه يصبح – من الناحية المادية – مرهقاً ، ومن الناحية العقلية متخلفاً . » (١ – ٩٨) . هذا ما يشعر به العامل في مكان كان عليه – في شروط إنسانية – أن يحقق قدراته فيه . ولكن الذي يحدث هو أن « العامل لا يشعر بالراحة إلا في وقت فراغه ، في حين أنه في عمله لا يشعر إلا بالغربة » . ذلك أن عمل العامل في هذه الشروط « ليس طوعياً ولكنه مفروض ، عمل قسري ، ليس إشباعاً لحاجة ، ولكنه وسيلة لإشباع حاجات أخرى » (١ – ٩٨) . هكذا يتحول ما هو حيواني إلى إنساني ، ويتحول ما هو إنساني إلى حيواني . فالعامل لا يشعر أنه يعمل بحرية إلا في وظائفه الحيوانية ، الأكل والشرب والتناسل . في حين أنه في وظائفه الإنسانية يرتد إلى حيوان .

وليس ضياع العامل في علاقته بإنتاجه هو الضياع الوحيد الذي يتعرض له في شروط الإنتاج الرأسمالي . فماركس يعرض ما يعتقد أنه ضروب أخرى من الضياع . فالضياع يظهر أيضاً في عملية الإنتاج ، في الفعالية الإنتاجية ذاتها . « إذ كيف يستطيع العامل أن يقف في علاقة ضائعة مع نتاج فعاليته إن لم يضع نفسه في فعل الإنتاج ذاته ؟ ذلك أن النتاج هو – حقاً – امتداد الفعالية ، امتداد الإنتاج . فإذا كان نتاج العمل ضياعاً ، فإن الإنتاج ذاته يجب

أن يكون ضياعاً فعلياً : ضياع الفعالية وفعالية الضياع . فضياع الموضوع يلخص الضياع في فعالية العمل ذاتها » (١ – ٩٨) .

وإذا كان الإنسان كائناً اجتماعياً أيضاً ، فإنه يتعرض كذلك لضياع اجتماعي « إن إحدى النتائج المباشرة لضياع الإنسان عن نتاج عمله ، عن فعالية حياته ، وعن حياته النوعية ، هي أن الإنسان ضائع عن الآخرين » (١ – ١٠٣) . إن ماركس يعتقد أن الضياع الإنساني ، ضياع الإنسان عن ذاته ، يعبر عن نفسه – أولا – في العلاقة بين الإنسان والآخرين . وهكذا « ففي علاقة العمل الضائع ، ينظر كل إنسان إلى الآخرين وفقاً للمعايير والعلاقات التي يجد نفسه فيها كعامل » (١ – ١٠٣) . هذه المعايير والعلاقات هي علاقات المصلحة الخاصة التي تنفي مصالح الآخرين . إن المجتمع المدني Civil Society هو – كما يقول ماركس « مجال الأنانية » . وفيه : « ينفصل الفرد عن الجماعة ، وينسحب إلى داخل نفسه منشغلا بمصالحه الخاصة ويعمل على أساس من نزواته الشخصية . والرباط الوحيد بين الأناس الأنانيين هو الضرورة الطبيعية ، الحاجة ، والمصلحة الخاصة ، والاحتفاظ بالملكية ، والحفاظ على أشخاصهم الأنانية » (٢ – ٨٥) .

العمل المبدع والواعي ، الفعالية التي لا تستخدم كوسيلة لقضاء حاجات أخرى ، وإنما تعبر هي ذاتها عن حاجة وضرورة داخلية ، واتصال الحواس بالأشياء – لا لمجرد استخدامها النفعي – وإنما بالأشياء كغايات في ذاتها ، والعيش مع الآخرين كغايات ، تلك هي الأبعاد الثلاثة التي تحقق – عند ماركس – إنسانية الإنسان . هذا الإنسان ليس كائناً موجوداً في الماضي السحيق علينا أن نعيد إيجاده ، وليس إنساناً راهناً في ظل شروط « المجتمع المدني » فماركس لا يعتبر الإنسان في هذه الشروط « إنساناً » بمعنى الكلمة . أين هو هذا الإنسان إذن ؟ عند ماركس ، هو إمكانية قابلة للتحقق في شروط معينة ، فهو إذن إنسان في المستقبل . إن ماركس ينطلق مما هو ممكن وما هو مستقبل ليصف ما هو متحقق الآن ، وما هو حاضر . ينطلق من الإنسان كما يتخيله هو ، وكما يتصوره ليدين شروط الإنسان الواقعي . ألم أقل منذ البداية أن له طريقه – أيضاً – من السماء إلى الأرض ؟

* * *

المصـــادر

1 — From, Erich. **Marx's Concept of Man,** with a translation from Marx's « Econmic and philosophical manuscripts ». N. Y, Frederick ungar, 1961.

2 — **Marx's contribution to the Knowledge of man.** Published in « Marx and contemporary scientific thought », The Hague - Paris, Mouton, 1969.

3 — Mclellan, David. **Karl Marx, His life and thought.** London, Macmillan, 1973.

4 — Mitin, Mark. **The concept of Man in Marxist thought.** published in Radhakrishnan's « The concept of Man », London, george Allen and unwin LTD, 1966.

5 — Schacht, Richard. **Alienation,** London, george Allen and unwin LTD, 1972.

6 — Stale, W.T. **The philosophy of Hegel,** N.Y., Dover, 1955.

(٧) ابراهيم زكريا . الطبيعة البشرية في فلسفة كارل ماركس . مجلة عالم الفكر ، المجلد الثاني ، العدد الأول ، ١٩٧١ .

° ° °

إنسان الواقع وإنسان المثل الأعلى

د. عـزة مـريـدن

في المؤتمر العالمي للبيولوجيا ومصير الإنسان ، الذي دعيت إليه ، من قبل القائمين عليه ، ومثلت فيه الجمهورية العربية السورية ، قال الأستاذ الدكتور ماله (Mallet) ، عميد جامعة السوربون ، حيث انعقد المؤتمر ، وكان هو رئيسه ، قال في حفلة الافتتاح : « إن الحالة التي تردى فيها إنسان اليوم ، والمصير المظلم الذي ينتظره ، والخوف من تفاقم هذه الحالة وتعاظمها ، كان المنطلق الأكبر إلى عقد هذا المؤتمر » .

فقد تنادى علماء جامعات فرنسا ، إلى دعوة أساطين العلم في العالم ، لبحث أفضل السبل المؤدية إلى محو التعاسة والشقاء ، وجلب السعادة والهناء ، كيما يستطيع إنسان اليوم الحاضر ، والغد القريب أو البعيد ، أن يستعيد عزته وكرامته ، ويستمتع بصحته وقيمته وهنائه ، ذلك أن الإنسان الحاضر ، أصبح على الرغم من النهضة العلمية الشاملة ، بعيداً عن المثالية التي يبتغيها ، في كثير من شؤون حياته ، فإذا كان الفرق بين إنسان اليوم ، وإنسان الماضي كبيراً جداً ، من حيث الرقي العلمي ، على الرغم من اعترافنا بعظمة الكثير من المدنيات المندثرة فإن مما يؤسف له حقاً ، أن ينصرف الكثير الكثير من هذا الرقي العلمي ، إلى غير سعادة الإنسان وهنائه ، بل إلى الكثير الكثير من سبل الشر والتعاسة والشقاء ، فالمثالية المنشودة لا تزال بعيدة كل البعد عن عالم اليوم ، على الرغم مما يعتقده بعض الداعين إلى حرية الإنسان وانطلاقه ، وعودته إلى أحضان الطبيعة ، مهملاً كل ما تواضع عليه البشر ، منذ القديم القديم ، حتى هذا اليوم ، من قواعد الحياة والسلوك والأخلاق ، وحفظ الجنس والنوع ،

والتي أحاطها الفلاسفة وعلماء النفس والأخلاق ، بقيود لا تكبلها ، ولكنها توجهها الوجهة الخيرة الصالحة .

وقبل أن أدخل في صميم هذا الموضوع ، سوف أمر قليلا على معنى الإنسانية والإنسان ، والمثل الأعلى والمثالية ، وهو ما سيدور عليه محور هذا الحديث .

ليس الإنسان ذلك المخلوق المؤلف من جسم يضم الأجهزة والأعضاء والحواس ، ومن روح تسير هذا الجسم في طريق الحياة إلى أجل محدود ، وإنما الإنسان بنفسه وعقله وفكره ، وبما ينبثق عنه من فضائل ومشاعر وصفات ، تختلف بين الواحد والآخر ، فإذا كنا نشهد ونؤمن بالتقارب المطلق الظاهر ، بين كل شخص وآخر ، سواء من حيث الخلقة والتكوين أم من حيث الحفاظ على الجنس والنوع ، فإننا لا بد أن نعجب كيف أخذ الناس بعدئذ ، يمتاز بعضهم عن الآخر ، الأفراد عن الأفراد ، والجماعات عن الجماعات ، فهل يدخل في طوق الإنسان ، أن يتصرف بنفسه وبأترابه ، تصرفاً حكيماً رشيداً ، فيوجد على سطح هذه الأرض إنساناً آخر ، جديداً بجسمه وصحته ، جديداً بعقله وأخلاقه ، جديداً بتفكيره وإنتاجه ؟ مما لا شك فيه ، أن الوراثة تلعب دوراً كبيراً في كثير من مظاهر الإنحراف في الصحة والعقل ، والأخلاق والعادات ، كما أن السموم الداخلية ، التي تنجم في الغالب عن سوء تصرف الإنسان ، في طريقة حياته ، وفي غذائه وجميع أعماله الفسيولوجية ، وفي عاداته المكتسبة السيئة ، التي قد تجر إلى ممارسة السموم الخارجية ، من غول وتبغ وأرواح وأبازير ، ومن غازات سامة وسواها ، تفضي باستيلائها على الجسم ، إلى بعض الغرائز السيئة ، من أنانية وحسد ، وحب للسيطرة والانتقام ، مع ميل للأذى والإجرام ، ولا بد لنا أن نعلم أن أصالة الخلق الكريم ، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالجسم القويم ، الخالي من الشوائب والأمراض ، منذ الآباء والجدود ، حتى أجداد الجدود ، ولا بد من مرورها إلى الأبناء والأحفاد ؛ وليس الوجدان الحي ، والضمير النقي ، إلا صوت الأجداد ، يتردد في قلوب الأبناء والأحفاد . هل يدخل في طوق الإنسان وعقله ، أن يتصرف تصرفاً حكيماً رشيداً ، ليوجد على سطح هذه الأرض ، إنساناً جديداً بجسمه وعقله وأخلاقه ؟ إنه لمطلب غال عزيز ، يشمر معه المصلحون والفلاسفة والعلماء ، بالعمل المجهد الشاق ، للوصول إلى هذه الأمنية الحلوة ، فهناك عقبات وعقبات ، تعترض هذا السبيل ، وتقف حائلا في وجه هذه الغاية السامية النبيلة . وليس ينكر أحد أن العلماء والباحثين والأطباء ، قد استطاعوا بالبحث والدأب والتفكير ، أن يصلوا إلى درجة حسنة من حفظ كيان الإنسان ، بعيداً عن الكثير من الأوبئة والأمراض التي كانت

تنتابه ، حينًا كان يجهل الأدوية والقاحات والمصول ، ولسنا نستطيع أبداً ، كما يحاول بعض الفلاسفة ، أن نفصل حوادث العقل عن حوادث الجسم ، ففي جهاز الهضم مثلا ، يفضي الوهن المعدي المعوي والإمساك ، والقرحة الهضمية ، وقصور الكبد ، والتهاب الكولون ، والزحار المزمن إلى اضطرابات نفسية كثيرة ، قد تكون أقسى على المريض ، من تلك الأمراض الجسمية ، فيعتريه اضطراب فكري واختلاط عقلي ، ويرى الحياة تعيسة شقية ، ثم تحدث الحلقة المفرغة المعيبة ، إذ الأمراض المذكورة ، توهن الأعصاب والدماغ ، فيفضي هذا الوهن إلى التأثير كرة أخرى في أعراض تلك الأمراض ، فتزداد حدتها ، وتشتد وطأتها ، وتؤثر بدورها في المجموع العصبي مرة جديدة ، ولا تنقطع هذه الحلقة المعيبة ، إلا بعد جهود جبارة يصرفها طبيب حازم رشيد .

ولنعد إلى الإنسان والإنسانية ، فإن هذه النسبة من وضع المتأخرين ، الذين جعلوا للإنسانية معنى جليلا واسعاً ، إذ أن هذه الكلمة ، لا وجود لها بهذه الصيغة ، في لغتنا العربية ، وكل ما في المعاجم ، أن كلمة الإنسان ، جاءت من الإنس أو الأنس التي يوصف بها هذا المخلوق ، والذي قال فيه أحدهم :

وما سمي الإنسان إلا لأنسه ولا القلب إلا أنه يتقلب

ولقد عرفنا كلمة الإنسانية ، منذ ما اختلط أدب الشرق بأدب الغرب ، وصار أدباء العرب في العصور الأخيرة ، يغترفون من معين الأدب الغربي ، كل مستطرف جديد ، وقد جعلنا هذه الكلمة ، ترجمة لما يسميه الغربيون (Humanisme) أو (Humanité) ، فما هي هذه الإنسانية ، وهل استطاع الإنسان ، أن يكون جديراً بحمل الصفات التي ترمز إليها هذه اللفظة الجديدة ؟ ليست كلمة الإنسانية وحدها ، هي التي لم يرد ذكرها في معاجمنا اللغوية ، فقد شاعت في أيامنا الحاضرة ، كلمات كثيرة ، لم أجد لها وجوداً بهذه الصيغة ، في معاجمنا اللغوية ، وإن أصبحت كلها تحمل مفهوماً خاصاً ، ومثال ذلك : الوطنية ، والقومية ، والتقدمية ، والرجعية ، والإقليمية ، والعنصرية وسواها ، والذي يهمنا من جميع ذلك ، أن نعود إلى الإنسانية لنرى أن مفهوم هذه اللفظة المحببة إلى الأسماع ، أصبح يضم الكثير من المعاني الجليلة . يقول (آلكسيس كاريل) في كتابه الشهير : « الإنسان ذلك المجهول » : الإنسانية أن يكون الإنسان ذا عقل وعاطفة ونفس وروح وجسد ، وكل واحدة من هذه الصفات ، عالم قائم بنفسه ، لم يستطع العقل والعلم حتى اليوم ، أن يحيطا ببعضه إحاطة شاملة ؛ ويقول أبو حيان التوحيدي في المقابسات : الإنسانية أفق لا حدود له ، والإنسان متحرك إلى

أفقه بالطبع والغريزة، ولكن من رفع عصاه على نفسه وغيره، وألقى حبله على غاربه، وسيب هواه في مرعاه، ولم يضبط نفسه عما تدعو إليه بطبعه، بل كان لين العريكة لاتباع الشهوات، فقد خرج عن أفقه لسوء إيثاره. ولعل مقياس المثالية، ما يكون عليه الإنسان، من عفة وجود وحلم وشهامة وأخلاق كريمة، حتى ليقال: إن فلاناً أكثر إنسانية من غيره، ولقد أسهم المفكرون والمصلحون، فيما نعرفه اليوم باسم: وثيقة إعلان حقوق الإنسان، والتي يؤسفنا أن نصرح أنها ما زالت بمجموع موادها حبراً على ورق، وإن كانت تهدف بنصوصها، إلى تحقيق العزة والكرامة الإنسانية، ونشر الخير والحق والعدل، إذ أنها لم تحقق إلا جزءاً يسيراً من غايتها، إلا إذا سقنا مثلاً أخيراً، ما انتهت إليه لجنة تقصي الحقائق، بشأن انتهاكات إسرائيل لحقوق الإنسان في الأرض المحتلة، ولا سيما قضية اعتقال المطران هيلاريون كبوجي، فقد صوتت إحدى وعشرون دولة في لجنة حقوق الإنسان، ضد إسرائيل وامتنعت ست دول عن التصويت، وعارضته أربع دول فقط، ولكن ما قيمة هذه الأكثرية التي صوتت إلى جانب الحق، طالما لا توجد قدرة تنفيذية، فكم أدينت إسرائيل في الأمم المتحدة ومجلس الأمن، مئات المرات، وظلت القرارات حبراً على ورق. يقول (مازيني) بطل الوحدة الإيطالية، في كتابه: واجبات الإنسان، إنما نعمل من أجل الإنسانية، حينما ننشر الحق والعدل والحرية، ونقدس الحب والخير والجمال. وفي هذا المعنى يقول الشاعر ايليا أبو ماضي:

إن نفساً لم يشرق الحب فيها هي نفس لم تدر ما معناها

انا بالحب قد وصلت الى نفسي وبالحب قد عرفت الله

وعلى هذا تكون الإنسانية، شعوراً غريزياً، يعرفه الإنسان عن طريق ضميره ووجدانه، وهي تتجلى بالقرابة التي تربطه، بأترابه بل بجميع من ذرأ خلق الله، وهذا الشعور صورة إيجابية للغريزة والفطرة، وسعي صادق للقيام على خدمة البشرية، في حدود المواهب والإمكانات، إنها رسالة تطهر النفوس من أوضارها، وتوجهها نحو الأفضل والأمثل، حتى تكون من الكمال، قاب قوسين أو أدنى. إنها إحساس الإنسان، نحو أخيه الإنسان، بل إنها نظرة حانية على حيوان أعجم يعتدى عليه، ومن هنا لا يألم حين يرى الجراء الصغيرة تطلق العواء الحزين حيناً تلاحقها أطفال أغرار، بالحجارة والسياط، أو يرى طائراً يسعى لأطفاله، يزق لهم الطعام والشراب، فإذا برصاص صياد لا يرحم، يرديه من صميم عليائه وحريته، فيموت وتلحق به أطفاله، أو يرى وردة في خميلة، لم تتفتح بعد عن أكمامها

تعبث بها أيد لاهية ، تقطفها لتمزقها ثم تلقي بها على الأرض ، ناهيكم عن تعذيب الإنسان للإنسان ، بالضرب والسجن والقتل والتشريد دون موجب أو سبب مقبول . يقول الأديب الحر والشاعر المفكر فوزي المعلوف : إن مفهوم الإنسانية المثالية ، يتلخص في شعور الإنسان مع الإنسان ، بكل ما في هذا التعبير من شمول ، بل هو شعور الإنسان مع الحيوان والنبات ، من الفيل الذي يقتل ليستفاد من عاجه ، إلى تلك النملة الساعية ، التي تعلم الإنسان الدأب والجد والعمل ، أو تلك النباتات المختلفة ، ولو كانت كلأ أخضر ، تعيش عليه السوائم ، أو كانت ورداً جميلا فواحاً ، أو شجراً مثمراً مفيداً ، بل وشعوره أحياناً مع الجماد ، بدافع الألفة والمحبة والحنين .

وأكثرنا يعلم أن الأديب والفيلسوف الكبير ، ميخائيل نعيمة ، يطلق عليه اسم أديب الشخروب ، أو فيلسوف الشخروب ، وهي الصخرة الجميلة المطلة ، في جبال قريته (بسكنتا) ، والتي كان نعيمة ، يأنس بوجوده قربها ، كلما أراد كتابة أو اعتكافاً .

وبعد فهل نستطيع أن ننزع من طريق الحياة المثالية السعيدة ، أشواك التعاسة والشقاء ، ونزرعها بالورد والعطر والخير ؟ ليس بيننا من ينكر أن اتساع نطاق العلوم المختلفة ، وما توصل إليه العلماء والباحثون من منجزات هامة ، منذ أوائل هذا القرن ، حتى يومنا هذا ، قد فاقت بصورة تبعث على الدهشة ، كل ما سبقها من المنجزات العلمية والفنية ، التي عرفها الإنسان ، خلال الحقبة الطويلة من تاريخه البعيد ، ويدلنا جميع ذلك ، على أن الأدمغة المفكرة والعقول النيرة ، واستخدام وسائل البحث وأدواته ، قد أفضت إلى ما نراه بين أيدينا اليوم ، من آثار وكشوف ومنجزات ، في مختلف الميادين ، العلمية والطبية والهندسية والزراعية والصناعية ، غير أن مما يؤسف له حقاً ، أن تقوم إلى جانب البحوث العلمية الخيرة ، التي تهدف إلى إسعاد البشر ، بحوث شريرة ، غايتها ابتكار آلات التخريب وأدوات الشر والهدم والدمار .

هل بيننا من ينكر الفضل الذي قدمه للانسانية ، اولئك الذين أوجدوا الأدوية النافعة ، من الحشائش المغلية والاسبيرين ، الى البنسلين وبقية الزمرة النافعة ، التي خلصت البشرية ، من أوبئة وأمراض مهلكة قتالة ، ومن شق الداخس الى زرع القلب ، ومن الكي بالنار ، الى استعمال الراديوم والكوبالت ، والأدوية المضادة للجلطة والقرحة والسرطان .

سئل الفيلسوف البريطاني الراحل (برتران رسل) عن رأيه في عظمة العلم الحاضرة ، التي بلغت الذروة أو تكاد ، وهل هذا التعاظم كان لخير الانسانية وسعادتها ، أم كان لشرها

وشقائها فأجاب : لا نستطيع القول ان العلم قد بلغ الذروة ، فلا تزال أمامه أشواط وأشواط ، وفي كل يوم كشف جديد ، ولكن مفتاح النهضة العلمية الشاملة ، أصبح في أيدي العلم والعلماء ، ولم تثمر محاولات الفلاسفة السابقين ، في الكشف عن الحقائق العلمية ، بطريق المنطق المجرد ، بل ثبت أن الفلسفة العلمية الموزونة ، المبنية على التجربة والبحث والاختبار ، هي الطريقة المثلى لمعرفة الغوامض والأسرار ، وحل مشكلات الحياة العديدة ، التي لا حدود لها ؛ ثم أردف يقول : أما ان هذه النهضة العلمية ، كانت لخير الإنسان وسعادته ، أم لشره وشقائه ، فأمر يرتبط البحث فيه بعدة أمور ، منها أن النهضة الطبية والوعي الصحي المنتشر في العالم ، قد قضى على الكثير من الأوبئة والأمراض ، مما دعا إلى زيادة عدد السكان الذي يعتبر اليوم ، من أهم المشكلات التي لا عهد للإنسان بمثلها من قبل ، وسيكون حل هذه المشكلة ، على حساب الأراضي المستصلحة ، التي تجاور المدن والقرى ، والتي كانت تمد البشر بالغذاء الذي يحتاج إليه ، فأصبحت الضحية لإقامة المساكن عليها ، والمثل واضح في كل بقاع الأرض ، لذلك فان العلم يبحث كل يوم ، عن الوسائل المجدية ، لتلافي هذا النقص ، ومكافحة المجاعات ، الآخذ بعضها برقاب بعض ، في كثير من الدول النامية والفقيرة ، ثم قال : ومنها خوف البشر الدائم ، من حرب نووية ، تقوم بين الدول المستعلية ، المتسابقة دوماً نحو التفوق في القوة وعظمة السلاح ، فإذا ركب المتنازعون رؤوسهم ، وقدر لا سمح الله ، أن تستعمل القنابل الذرية أو الهيدروجينية فإن ذلك سوف يقضي حتماً على الحضارات والمدنيات والحياة ، وفي ذلك نهاية العالم ، لأنها سوف تجر إلى حرب كونية ، لم يسمع التاريخ بمثلها ؛ ومنها أن العلم قد توسع في صنع الآلات والأدوات ، التي أصبحت تغني عن الحاجة إلى اليد العاملة ، مما أدى ويؤدي إلى زيادة العاطلين الذين يصبحون عبئاً على الدول ، وأداة إزعاج مستمر لها .

أما العالم اليوناني ديكسياديس (Dexiadis) الذي يعمل اليوم في الأمم المتحدة ، فقد قال : إن إسكان العدد المتزايد من البشر ، سوف يكون على حساب الأراضي الزراعية التي يقلبها الإنسان ، إلى مساكن وأبنية ، فإذا ما نقصت مساحة الأراضي المزروعة ، فإن على الإنسان أن يعمد إلى استصلاح أراض جديدة ، وهذا يتطلب وقتاً وجهداً ومالا ، لا قبل للدول – بله الإنسان – على احتمالها .

وأما فالدهايم ، الأمين العام للأمم المتحدة ، فقد قال رداً على سؤال وجه إليه ، عن أهم مشكلات العالم اليوم : إنها المرض والجهالة والبطالة وتلوث البيئة وتزايد السكان ؛

يقول فالدهايم : لقد قمت بزيارة صغيرة ، استغرقت عشرة أيام ، فإذا بالإحصاءات الرسمية ، تدل على أن سكان الأرض ، قد ازداد عددهم في هذه الأيام العشرة ، أربعة ملايين نسمة ، وإذا شئنا التعليق ، قلنا : إذا كانت الملاريا والسل والحمى التيفوئيدية ، وبعض الأمراض الوبائية قد قضي على غير قليل منها ، بعد أن عرفت طرائق المعالجة الواقية والشافية ، فقد برزت إلى الوجود ، أمراض أخرى ، لم تكن مفقودة ، ولكنها تضاعفت مرات كثيرة ، بعامل الحياة القاسية ، والخوف والصخب والمدنية الزائفة . صحيح ان الطب والجراحة ، قد نهضا نهوضاً كبيراً لا عهد لنا به من قبل ، فظهرت المرديات ، وأدوية الجلطة والقرحة وبعض أنواع السرطان كما ظهرت عمليات القلب المفتوح ، مثلما ظهر زرع القلب والكلية وبقية الأعضاء ، صحيح كل هذا ، ولكنه لم يمنع تكاثر الجلطة والقرحة والداء السكري والسرطان ، وكثير من الأمراض العصبية والنفسية ؛ وقد شاع في الحقبة الأخيرة ، ظهور أمراض التلوث وأصبح هذا التلوث حديث العالم كل يوم ، ينسبونه لفضلات الإنسان وغازاته ، وما تنفثه المعامل الصناعية والكيمياوية ، مثلما ينتج عن محاصيل الاحتراق ، في السيارات والبواخر والطائرات ، بالإضافة إلى غازات المستنقعات والمقاهي والنوادي والأماكن المكتظة ؛ وفي إحصاء لأحد علماء البحار ، أن الثروة السمكية ، وما يستفاد منها في غذاء المحتاجين المواد البروتينية ، آخذة بالتناقص المخيف ، إذ أن كثيراً من الأسماك ، ولا سيما التي تعيش قرب السواحل ، آخذة بالانقراض ، بسبب التلوث السام ، بالمفرغات والزيوت والفضلات الصناعية . على أنني لن أمر على حديث التلوث ، دون أن أنوه بتلك المناقشة الحادة ، التي قامت بين المسهمين في المؤتمر العالمي لمصير الإنسان ، حيث أعلن أحد المؤتمرين ، أن الضجة العارمة ، التي تطلق اليوم حول التلوث وأمراضه ، ليست إلا ضجة مصطنعة ، سعت إليها الدول الصناعية ، لتخويف الدول الآخذة في تنمية صناعتها ، من عواقب إقامة المعامل ، واستخدام وسائل النقل الكثيرة ، وجميع ما يزعمون أنه يدعو إلى التلوث ؛ والحقيقة هي أن التلوث أمر ملحوظ ، بعد تكاثر المعامل ونمو الصناعات ، وتزايد وسائل النقل من سيارات وقاطرات وطائرات ، وتقام اليوم مؤتمرات عديدة في بلاد كثيرة ، للبحث في هذا التلوث وطرق مكافحته ولكني أعتقد أن في هذه الثورة بعض الاندفاع والمبالغة ، فهناك أن العيوب الصحية والأخطاء الاجتماعية ، ما هو أدهى وأمر ، وما يدعو إلى اهتمام أكبر بكثير ، من الاهتمام بالتلوث ، إنها اللامبالاة أمام التيارات الإباحية ، وجبهات العهر والفسق والفجور ، إنها المخدرات والميوعة والأفلام الزرقاء ، إنها السموم المنتشرة بين الكبار والصغار ، من تدخين وعقارات وغول وأرواح ، إنها الحروب وويلاتها وآلاتها الجهنمية ، إنها الداء

العياء ، المتغلغل في كل بقاع الأرض ، والمسيطر على الكثير من مرافق الحياة ، إنها الصهيونية . وهذه الكرة الأرضية التي نعيش عليها ، والمستمرة في الدوران حول نفسها وحول الشمس ، بحاجة إلى مصادر طاقة تسيرها ، فالكهربائية الأرضية ، والجاذبية الموزونة بين الكواكب لا بد لها من قدرة تحفظها في النظام الشمسي المعروف ، ولعل النفط المخزون في باطن الأرض والمختلفة ، ولا سيما ذات القدرة الشعاعية ، كاليورانيوم والراديوم وسواهما ، هي التي تتداخل في جعل الأرض محتفظة بتوازنها في فلكها الذي تسير فيه ، منذ الخليقة حتى اليوم ، فإذا ما عمد الإنسان العائش على سطحها ، إلى استنفاد مدخراتها ، فليس يدري أحد مصيرها ، وإن العلماء عامة ولا سيما علماء البترول ، ليضجون بالنداء عن إمكان نفاده في وقت قريب إذا ما ظل نفحه جارياً على النحو الحاضر ، الأمر الذي أصبحت تخشاه جميع الدول النفطية والصناعية ، وتسعى لتخفيف النضح بنسبة قليلة أو كثيرة ، مثلما تسعى إلى إيجاد البديل ، من الطاقة الشمسية والنووية ولعل الإنسان اليوم ، وفيما سيأتي من الإيام ، هو الذي سيجر الأرض إلى كارثة ، باستنزاف خيراتها ، وتلويث أجوائها واستهلاك مائها ومعادنها ، وكل ما عليها من حيوان أو نبات أو جماد . وإذا نظرنا إلى النسبة الهندسية ، التي يتزايد بها عدد السكان ، وتتزايد معها حاجاتهم للمأكل والمشرب والمسكن ، عرفنا أن الحياة سوف تصبح محفوفة بالخطر ، بسبب نقص الغذاء والماء والمأوى والهواء ، ولعل المرحلة قد أخذت تظهر بدايتها ، في الجفاف القاتل ، الذي قضى على الإنسان والمواشي والمزروعات ، في بعض المناطق الافريقية ، حتى أصبح السكان العطشى ، يتزاحمون للاستسقاء من ماء الصهاريج التي حملت إليهم بعض الماء ، والتي لم تكن تسمن أو تغني من عطش أو جوع . ويقول الأستاذ (هربان) : إن التجارب النووية ، قد جاءت ضغثاً على إبالة ، فهي أكبر مصادر التلوث ، وسوف يؤدي استمرارها إلى صعوبة الحياة على الأرض ولا سيما بعد أن أصبح عدد السكان ، ضعفي ما كانوا عليه قبل عهد قريب ، وقد تنبأ الكثيرون بأن عام الألفين ، لن يحل إلا وقد أصبح عدد سكان الأرض ، ٦ — ٧ مليارات نسمة ، وأنه لن يمر خمسون عاماً بعد ذلك ، حتى يصبح العدد ١٥ ملياراً ، وهذا هو التحذير الذي أعلنته شركة (ماك كينزه) ، وهي من أعظم الشركات الإدارية والإحصائية في العالم ، وتضم أكابر العلماء والمفكرين ، وأساطين المهندسين والإداريين ، وقد نشرت مؤخراً كتاباً فيه كل الخوف والتحذير ، وهي على كل الحق في ذلك ، ولنتصور منذ الآن ، ماذا ستكون عليه حال البشر وهم يتزاحمون على اللقمة ، بل على الحد الأدنى من وسائل العيش والحياة ، ألا نرى الآن ، شيوع شريعة الغاب ، القوي يأكل

الضعيف ، مثلما يفترس النمر الأسد ، الحيوانات الضعيفة في الغابة والأدغال ، والواقع إننا نعيش اليوم ، حياة الخوف والقلق والاضطراب ، مثلما نعيش مرحلة المصطلحات الغامضة ، التي يضطرب فيها الوضوح ، مصطلحات ليس لها مدلول صريح : السلام المسلح ، الحرب الباردة ، الوفاق الزئبقي ، حالة اللاسلم واللاحرب ، كما أن في عالمنا اليوم ، مشكلات وتناقضات : جوع وتخمة ، علم وجهل ، قصور وأكواخ ، انصراف عن الزراعة إلى الصناعة ، عزوف عن اليد العاملة ، إلى الآلة والذرة ، والعقل الالكتروني ، تخبط عشوائي في اختيار السبيل الأفضل ، تسابق في ابتكار آلات الحرب الجهنمية ، تمييز عنصري ، سيطرة القوة على الحق ، وإلى غير ذلك من المفارقات العجيبة ، شبه المفارقات بين الحرب والسلام ، والأمن والخوف ، والجبن والشجاعة ، والأبيض والأسود ، كل ذلك سلب وإيجاب ، فأين المثالية في جميع هذه المفارقات العجيبة ، التي نعيشها ، نحسها ونلمسها ونرضى بها كارهين ؟ إننا اليوم ، أحوج ما نكون إلى العالم المخلص التحرير والفيلسوف المتمكن القدير ، والحكيم الفارس الخطير ، ليدلنا على المثالية الحقيقية ، وأين تختفي بين هذه العوالم المتضاربة .

هذه صورة مختصرة عن بعض النواحي الإيجابية لمثالية الإنسان ، فلا بد أن ننظر بقوة وحذر ، إلى النواحي السلبية الشائعة في حياة الإنسان الحاضرة .

فأما الحروب ، فيقوم في وجهها تساؤل كان ومايزال يفور على كل شفة ولسان ، وهو هل الحرب وسيلة لا بد منها بين البشر ؟ يبدو أن الحرب كانت ومازال منذ القديم ، وسيلة تلجأ إليها الشعوب والدول ، كلما ألمت بها الكوارث ، حتى أصبح في عرف القانون الدولي امراً مشروعاً حينما تكون له مبرراته ، واكثر من هذا ، فان هناك الكتب والدعايات والصحف ، والمجلات ، التي تتحدث كلها عن صناعة الحرب ، كعلم له قوانينه وقواعده وأساليبه ، وقد نشر غاستون بوتول (Gaston Bouthoul) عام ١٩٤٥ كتابه الشهير عن الحرب ، كعلم له طرقه واحصاءاته ، وكيفية الوقاية منه ، وكيف يكون الفوز فيه أو تكون الخسارة ، وله في ذلك موسوعة عن أفانين الحرب وهي الـ Traité de Polenologie وقد نشر مؤخراً رسالة وجهها إلى أنصار السلم ، قال فيها : ان السلام في يومنا الحاضر ، أصبح حديث خرافة ، لأن الحرب والسلام ، كلمتان متقاربتان ، لايفصل بينهما الا حجاب رقيق ، تقيمه ارادة واهنة ، اما أن تتجه نحو الشر فتقوم الحرب ،

او تتجه نحو الخير فيكون السلام ، وأنهى رسالته بقوله : اذا كنت تريد السلام ، فعليك أن تتهيأ للحرب ، وقد سئل لماذا وجهت رسالتك الى أنصار السلم ولم توجهها الى المحاربين ، فأجاب : كي يتذرعوا بالحذر الدائم . أماويلات الحروب ، فالحديث عنها طويل معروف ، ولنأخذ مثلا عليها ، آخر ماتفتقت عنه عقول تجار الحروب ، ألا وهو القنبلة النووية ! لقد كانت قدرة القنبلة ، التي قضت على مدينة هيروشيما وسكانها تعادل ٢٠ الف طن من مادة الديناميت (T. N. T) ، اما اليوم فقد ارتفع مخزون هذه القنابل ، الى مايزيد على ٥٠ الف مليون طن من مادة الـ (تري نتروطولوئين) أي مايصيب بالقتل والتدمير ١٦٥ مليار انسان ، يقطنون مساحة تزيد سبعا عن المساحة التي يقطنها سكان الأرض اليوم اربعة وسبعين مرة ، ويدعونا حديث الذرة التي ظهرت معالمها منذ رذرفورد وآنيشتاين الى العلماء الذين احتجز الاتحاد السوفياتي بعضهم ، واختطفت وأغرت الولايات المتحدة بعضهم الاخر ، الى التساؤل : هل كان آنيشتاين وزملاؤه القدماء والمحدثون ، أبطالا حقاً حينما عرفوا الذرة وكنهها ؟ لقد كان يمكن ذلك ، لو لم تتسابق الدول العظمى لاستخدامها في صنع القنابل والآلات الجهنمية ، قبل أن تسخرها في خدمة الانسان المسالم ، لخيره وسعادته ، إن البشر في العالم كله اليوم ، اليوم ، لتحتوشه الأزمات العنيفة ، وتلفه الهموم والاحزان ، وتبعث في نفوسه الهلع والفزع على مصير هذا العالم ، وفي المؤتمر الذي انعقد في ستوكهولم ، بدعوة من منظمة الصحة العالمية ، لدراسة الشدة التي انغمس فيها عالمنا اليوم ، والأمراض التي انبعثت عنها ، تبين أن الربو العصبي ، والقرحات الهضمية ، المعدية والمعوية ، ووظائف الكلية ، وبعض أمراض القلب والأوعية ، وغير قليل من حوادث السرطان والامراض العصبية والنفسية ، هي حصيلة هذه الغمرة الغامرة ، من الشدة التي عمت البشرية اليوم . ولقد كفر الكيمياوي السويدي (آلفريد نوبل) مخترع الديناميت عما شاهده من آثار الدمار والتخريب التي كانت نتيجة اختراعه ، وخشي أن يكون قدارتكب بذلك إثماً عظيماً ، فأحدث جائزته المعروفة (جائزة نوبل) للطب والعلوم وسواها ، ولسنا ندري بماذا يجب أن تفكر الزمرة التي ابتكرت القنابل الذرية ، لهلاك الحرث والنسل ، والقضاء على الأخضر واليابس ؟ يقول بعض العسكريين العارفين : إنه لولا جسر الاسلحة الجوي واستنفار السلاح النووي في حرب تشرين ، لكانت اسرائيل أثراً بعد عين وحينما قررت هيئة الأمم المتحدة ، الاستماع الى كلمة رئيس منظمة التحرير ، قامت قيامة اسرائيل ولم تقعد بعد ، وقد نشرت صحيفة (هاتسوفيه) الصهيونية ، في مقال افتتاحي ، بعد أن أقتحم الحق العربي الفلسطيني هيئة الأمم المتحدة تقول : إن ظهور قادة منظمة التحرير

الفلسطينية ، على منبر الأمم المتحدة ، إنما يجرد الهيئة الدولية ، كل أثر من آثار القانون والعدل الانساني ، وقد نسي الصهاينة أو تناسوا ، أن قيام أدولتهم ظلماً وعدواناً ، إنما كان قد صدر عن هذه الهيئة الدولية نفسها ، كما نسوا أو تناسوا ماارتكبوه من اغتصاب الاراضي بالقوة ، وماقاموا به من جرائم ، في دير ياسين وكفر قاسم وسواهما ، مماتقشعر له الابدان ، وقد أعلنت شمطاء الصهاينة غولدا مائير ، أن منظمة التحرير ، ماهي إلاجماعة من المخربين ، تقوم باغتيال النساء والاطفال ، أما عصابات الهاغانا والإرغون وشتيرن ، اللذين بقروا بطون الحاملات ، وقتلوا الاطفال امام أبويهم ، والآباء امام اطفالهم ، في قبية ونحالين والعريش وغزة ورفح وخان يونس وغيرها ، ونسفوا البيوت فوق رؤوس ساكنيها ، وشوهوا معالم المدينة المقدسة ، وقصفوا مدارس الاطفال ، والمدن والقرى الآهلة بالمدنيين في جنوب لبنان ، وهدموا كل بناء قائم في مدينة القنيطرة ، قبل انسحابهم منها مخذولين ، وغير ذلك من الاعمال الوحشية ، التي يسود لها وجه الانسانية ، فهؤلاء هم رسل الحضارة ، ورافعو لواء السلام والعدل والحرية ، في نظر انفسهم واسيادهم .

ومن السلبيات ، وجود من لايزالون يعتقدون ، أن الانسان المريض عبء على الانسانية ، وقد ارتفع الاحصاء الذي أجري في الولايات المتحدة ، حول إنهاء حياة المرضى الذين لايرجى شفاؤهم من ٣٦٪ عام ١٩٥٠ الى ٥٧٪ في عام ١٩٧٣ ، بينما أقيم مؤتمر من أساطين الطب في الدول الأوربية ، للبحث في هذا الموضوع ، فكانت النتيجة أن ٧٣٪ من المقترعين ، رفضوا قيام الاطباء ، بانهاء حياة مثل هؤلاء المرضى ، ولو بطريقة حلوة كما يسمونها .، ولعمري كيف يكون إنهاء الحياة حلواً مهما كانت طريقته ، واعتبر المؤتمرون مثل هذا الاجراء ، عملا كل البعد عن الانسانية ، فهو يتعارض مع واجب الطبيب المقدس ، في اطالة الحياة ومكافحة الموت ، ومن يدري ، فلعل ادوية جديدة يكتشفها الباحثون يمكن أن تشفي أمثال هؤلاء المرضى المعذبين ، ولايزال هذا الأمر ، يتأرجح بين المؤيدين والمعارضين ؛ كما أن من العجب حقاً ، أن يعلن الدكتور (فرانسيس كريك) وهو الحائز على جائزة نوبل في الطب ، أنه يمكن تحديد الحد الاقصى لعمر الانسان بـ ٨٠ سنة ، وانه حينما يتجاوز هذه السن ، لايعود له الحق أن يطالب بالعناية الطبية ، ولعمري هل نجد وصفاً لمثل هذا الاقتراح المشؤوم ، الا الجهل والحماقة والقتل ، بينما ترى الجمعيات الخيرية والانسانية ، تنتشر في مختلف أنحاء العالم ، للعمل على إقامة دور السعادة للمسنين ، وجعل الشيخوخة حلوة « كريمة « سعيدة » .

وبعد فلست ادري إن كانت الجهود الجبارة ، تستطيع الوقوف امام الهجمات الضارية ، التي تدعمها اللا مبالاة -- وهي أشد قسوة -- أو أن تفعل شيئاً لصد هذه التيارات الجارفة ، من المخدرات والعهر الاباحية ، ففي الولايات المتحدة ، ينتشر الهيروئين وحمض الـ ليزرجيك الذي رمز له بـ L. S. D. مثلا ينتشر الحشيش (الماريجوانا) ، وينتشر الافيون في اسيا وأوربا ، كما ينتشر الكوكائين في امريكا اللاتينية ، وقد تقلص استعمال الافيون في الصين ، بعد قيام الثورة الاشتراكية ، وحينما انعقد مؤتمر مكافحة المخدرات ، في مدينة بيروت ، منذ عهد قريب ، صرح المؤتمرون بأسفهم لتصاعد حمى المخدرات بين شباب العالم ، حتى بين صغار الطلاب ، وطالبوا جميع الدول باقامة اجهزة اكثر فاعلية في ملاحقة مهربي المخدرات ومستعمليها ، والويل كل الويل ، لأولئك الحمقى والمغفلين ، والصغار الاغرار ، الذين يستعملون هذه المخدرات ، وهم مغمورون باوهام الخديعة الزائفة ، فان مستعمل الـ L. S. D. يشعر بعالم تسوده الاضواء البراقة ، ويبدو عليه إحساس طاغ بالقدرة على كل شيء ، فقد يقف أمام سيارة مسرعة ، يعتقد بقدرته على وقفها فتكون النتيجة أن يموت مدهوساً او يلقي بنفسه من النافذة ، زاعماً أنه طائر قادر على التحليق ، فيهوي ويموت محطماً ، وقد يعتريه الهذيان أو يصاب بالخرس أو يقدم على الانتحار، واذا سلم من كل هذا ، فانه لا يلبث أن يصاب بفقر الدم أو السل ، ويموت مثلا يموت الالوف من امثاله في الولايات المتحدة ، وبعض البلاد الأخرى . وأما مستعملو الهيروئين ، فتقل فيهم رقابة العقل على الجسم ، ويبطؤ تنفسهم كثيراً ، حتى أن غير قليل منهم يموتون بالاختناق .

ولعل أخطر ماجرى مثالية الانسان واخلاقه في العصر الحاضر ، تلك الوسائل الخداعة التي ظهرت في الولايات المتحدة أولا ، ثم انتشرت منها الى عدد غير قليل من بلاد العالم الاخرى ، إنها هذه الموجة العارمة من الافلام الزرقاء ، التي كانت تعرض في السر والخفاء ، فاصبحت تعرض علانية لكل الراغبين من الناس ، رجالا ونساء ، كباراً أوصغاراً ، شباباً وشيوخاً ، وقد طبعت محتويات هذه الافلام ، ملونة مغرية ، وهي توزع سراً وعلانية في البلاد المختلفة . كما أن من العجيب حقاً أن تختلف نظرة المفكرين والفلاسفة بين الاستحسان والاستهجان . يقول المستحسنون إن الفن الحديث ، الذي يعبر فيه المثل عن حقيقة ذاته ، دون التقيد بالاعراف والتقاليد ، وبما يعرف منذ القديم حتى اليوم ، باسم الاداب العامة ، أما المحايدون فيؤكدون أن أصابع الصهيونية ، تمتد واضحة في هذا

التردي الاخلاقي ، الذي ينتظرون من ورائه أن يخلو الجو لهم في آخر المطاف ، حسبما يخططون للحاضر والمستقبل .

ومثال المنشورات الفاسقة ، كتاب العراب (Le Parrain) الذي بيع منه اكثر من ١٢ مليون نسخة ، وربح (ماريو بوزو) منه ما يزيد على المليون دولار ، اصبح بها غنياً ، بعد ان كان غارقاً في بحر من الديون ، خلال سنين عديدة .

واما هافنر ، صاحب مجلة الـ (بلاي بوي) فقد كان فقيراً معدماً ، واصبح اليوم من اصحاب الملايين ، وحينما لاقت مجلته الداعرة ، نجاحاً كبيراً ، تفتحت عيون الطامعين لانشاء مجلات منافسة ، فقام (بوب) العضو البارز في عصابة المافيا ، واسمه الحقيقي (روبرتو غوكسيوني) واخرج مجلة الـ (بانت هاوس) ، وقد تناوله القانون شكلياً بغرامة قدرها ١٥٠ جنيهاً ، ولكنه كان قد ربح من منشوراته ملايين الدولارات ، وحينما شاهد أن نساء كاليفورنيا ، قمن بتظاهرة ضد رافعات النهود ، بحجة أنها تقيدحرية أجسامهن ، تشجع وتنشر صوراً فاضحة لنساء عاريات ؛ والحق ليس هذا العمل الشائن ، ظاهرة بسيطة ، وانما هو الانحلال الخلقي الذي لايمكن أحد أن يتنبأ شيئاً عما ستجر اليه هذه الموجة العارمة ، في هذا العالم القلق المضطرب . ولعل من أهم الامراض الاجتماعية والاخلاقية مايتجلى واضحاً في أعمال تلك العصبة الشريرة ، التي انطلقت هزيلة من جزيرة (صقلية) الإيتالية ، ووجدت مرتعاً خصباً لنموها في الولايات المتحدة ، إنها (المافيا) التي أخذت تتسع يوماً فيوماً ، حتى اضحت الدولة الكبرى الفعلية ، في داخل الدولة الصغيرة الحاكمة ، فهم يرفعون ويخفضون ، ويمنحون ويمنعون ، ويقتلون ويحيون ؛ وهم اكبر المتاجرين بالمخدرات ، والموكلون بالقتل والتعذيب والإخفاء ، كل ذلك بين سمع الدولة الحاكمة وبصرها ، بل ان فريقاً غير قليل منهم ، يحتل اعظم مراكز الدولة في السلطتين التشريعية والتنفيذية ، والذين يسهمون في الارباح الطائلة التي يجنونها من التجارة بالمخدرات ، وغير ذلك من الاعمال والتصرفات ، وقد اشترت اسرائيل ، كبار الرؤوس في هذه المنصة ، بل ان بعض هذه الرؤوس ، هم من أقطاب الصهاينة ، وذلك كجزء من مخططهم الجهنمي .

لقد فاتني أن أبدأ حديثي عن التبغ وأضراره ، إذ انه لا يقل ضراراً عن السموم الأخرى وتبدو اللامبالاة واضحة في تزايد عدد المدخنين والمدخنات ، على الرغم مما يجده الداخل إلى أي مطعم من مطاعم الولايات المتحدة ، حيث يرى لوحة كتب عليها : التدخين ممنوع ، وفي السيارة يقول السائق للراكب ، أرجو عدم التدخين واطفاء اللفيفة ، وعلى كل علبة من علب

اللفائف يشاهد مكتوباً بخط واضح : احذروا التدخين تسلموا من السرطان ، انهم يندبون بالصغيرة ، ويتغاضون عن الكبيرة ، إنهم يفتون على الإبرة ويبلعون الجمل كما يقال . على أن من الثابت أن التبغ يؤذي الكثير من أعضاء الجسم ، فهو يساعد على تصلب الشرايين ، والتهاب المعدة والامعاء وهو السبب الغالب في سرطان الرئة والشفة واللسان ، كما انه يساعد على حدوث الجلطة وخناق الصدر ، واما الاشربة الغولية والأرواح ، فلا ترحم عضواً في جسم الانسان ، وإذا لم تبد آثارها العاجلة في الشارب المدمن ، فلابد ان تظهر في أجسام أولاده أو عقول أحفاده ، وهكذا يصدق القول المأثور : الآباء يأكلوم الحصرم ، والأبناء يضرسون.

وأما ذكري لمختلف هذه الموجات المتشعبة ، التي ترتبط ارتباطاً كلياً في مثالية الانسان فلك لأنها لن تبقى مطلقاً في حدود الامراض الاجتماعية والاخلاقية ، بل إنها ستفضي عاجلا أو آجلا ، إلى أمراض جسمية ونفسية ، كثيرة وخطرة ، وها نحن أخذنا نرى في السنوات العشر الأخيرة ، تكاثر السل وعودة الموجة الكاسحة للامراض الزهرية ، التي تقلص ظلها بعض الزمن على أثر استعمال البينسيلين وبقية المرديات ، ولكن الهاوية الاخلاقية ، التي ظهرت على يد الهيبين ، والخنافس والإباحيين ومخرجي الافلام الزرقاء ، وناشري كراريس الدعارة والفساد ، وتمرجل بالمفاخرة بها غير قليل من الجنسين ، في الولايات المتحدة أولا ، ثم في غير قليل من البلاد الغربية والشرقية قد أعادت كلها إلى الوجود ، تلك الموجة الضارية ، من الداء الافرنجي والسيلان ، وكثير من الامراض المعدية الأخرى ، بشكل عنيف مخيف .

ولقد انتشر مع هذه الأمراض ، داء قد يكون أخطر وأعظم ، ألا وهو داء اللامبالاة القاتل ، فبعد أن كانت الاصوات الصاخبة ، ترتفع هنا وهناك ، للتنديد بأي من هذه المفاسد والشرور ، إذا بخفوت ذليل لهذه الاصوات ، يعلن عدم المبالاة ، وكأن الأمر لايعني مصير الانسانية . لقد قال افلاطون في الجزء الثالث من الجمهورية الفاضلة : على كل انسان يحيا فوق هذه الأرض ، أن يتمتع بالخير والصحة والسعادة ، وقبل ٣٠٠ سنة قال الفيلسوف بنيديكت سبيزا (Benedict spitza) إن سعادة الانسان في حياته حق مقدس ، وعليه أن يحافظ على هذه السعادة ، وأن يصونها من كل ما يضعفها أو ينقص من فضائلها . فعلى الانسان ، وعلى الدولة مفردة ومجموعة ، وعلى كل المسؤولين أينما كانوا ، أن يقوموا بالقسط الأوفى من الاصلاح ، مدركين أن العمل وإن كان مرهقاً وعظيماً ، ولكنه ضرورة حتمية تتطلب جهداً جباراً لاتفتر فيه الهمم ، ولا سيما في ظروف الحياة الحاضرة ، التي تشعبت فيها الآراء ، وتعددت المذاهب والنظريات ، فلنحاول النفوذ إلى الصميم والاعماق ،

حتّى تصل إلى المثالية المنشودة ، متوجهين الوجهة الصالحة ، رافعين لواء الحرب الشعواء ، على تلك المجموعة الفاسدة ، من العوامل الاجتماعية القذرة ، حتّى تعود للحياة صورتها الحلوة الرائعة ، وحتّى تكون روعتها قطعة من صميم كل حي يعمل للخير والانسانية ، على مثال ترتاح اليه النفس ، ويطمئن الضمير والوجدان ، وحتّى تعود الحياة بشروطها الفاضلة ، جديرة بالحياة . .

أما بعد — فهل لي أن أتساءل مثلما يتساءل الآخرون ، والجواب واضح بين أيدينا يمكن استنتاجه : هل الانسان المثالي وهم أم حقيقة ؟.

الرواية الجديدة والواقع

لوسيان غولدمان
ترجمة: بدر الدين عرودكي

بعد أن استمعتم إلى بياني كاتبين (١) ، سوف أتحدث إليكم الآن من منظور مختلف تماماً هو منظور عالم الاجتماع . والواقع أن ثمة اختلافاً بين وجهة نظر عالم الاجتماع ووجهة نظر الكاتب يماثل الاختلاف الذي يقوم بين وجهة نظر العداء أو المصارع ووجهة نظر عالم النفس أو عالم الفيزيولوجيا اللذين يدرسان البنية النفسية أو الفيزيولوجية لسلوكهما .

ولا يقل عن ذلك صحة أنه يمكن لهاتين الدراستين أن تكونا متناقضتين مثلما يمكن لهما أن تكونا متكاملتين . ودون أن نتعرض للاحتمال الممكن الوقوع دوماً ، ونعني به احتمال ضلال ناقد أو عالم اجتماع ، عالم نفس ، أو عالم فيزيولوجيا ، واعداده نظريات خاطئة فقد يحدث في الواقع ألا يعرف العداء أو المصارع البنى النفسية والفيزيولوجية التي تسمح لهما بادراك خصائصهما أو ألا يكون الكاتب على وعي تام بآلية ابداعه ، وذلك بمعزل عن الصفة الخاصة

---

(١) ناتالي ساروت وآلان روب غرييه . وقد نشرت المعرفة في العدد (١٦٥) حديث كل من هذين الكاتبين في الندوة التي دعا إليها غولدمان لمناقشة موضوع « الرواية الجديدة والواقع » . والدراسة الحالية هي نص الحديث الذي ألقاه غولدمان في هذه الندوة بعد أن أضاف إليه التحليل الذي قام به لروايات آلان روب غرييه والذي سبق نشره على حدة في مجلة « Mediations » ، العدد (٤) عام ١٩٦٢ .

بهذه الخصائص أو بهذا الابداع . بيد أنه يحدث في أغلب الاحوال لحسن الحظ أن يتكامل المنظوران ويوضح الواحد منهما الآخر بالتبادل . وهذا هو حالنا اليوم ، بما أن ناتالي ساروت وآلان روب غرييه قد حدثانا بوصفهما منظرين دون أن يكون الواحد منهما ناقداً أو عالم اجتماع ، الأمر الذي يعني أنهما قد قاما بعمل النقاد الأدبيين بألمعية وبذكاء ثاقب .

واذ أتحدث في المقام الثالث وبوصفي عالم اجتماع فان ما سأقوله لن يكون إلى حد كبير سوى اضافة وتتمة لما استمعتم إليه قبل قليل . وسيكون من المستحسن ولاشك أن أبدأ بالاشارة إلى ما يبدو لي في هذين البيانين لا صالحاً فحسب ، وإنما هاماً على وجه الخصوص ، وكذلك إلى ما يبتعد بي عن تحليل ناتالي ساروت – على الرغم من أن ذلك ليس إلا تفاوتاً ثانوياً في نهاية التحليل – .

لنبدأ بالنقطة المشتركة بين الدراستين : جهرهما بالانتماء إلى الواقعية الأدبية . والواقع انه في حين يرى عدد من النقاد وقسم كبير من الجمهور في الرواية الجديدة مجموعة من التجارب الشكلية المحضة وفي أفضل الاحوال محاولة للتسلل خارج الواقع الاجتماعي ، فإن اثنين من من الممثلين الرئيسيين لهذه المدرسة قالا لنا لتوهما ، على العكس ، إن مبدعاتهما كانت نتيجة جهد صارم وجذري إلى أقصى حد ممكن بذل من أجل ادراك واقع عصرنا . إن تعقيبي على هاتين الدراستين وعلى مبدعات هذين الكاتبين يرد في المقام الأول أن يوضح وان يجسم هذا التأكيد الذي يبدو لي هاماً ومشروعاً في آن واحد .

هناك عنصر مشترك آخر بين الدراستين يبدو لي أن من المفيد الاشارة إليه ، وأعني به التأكيد على أنه اذا كان هذان الكاتبان قد تبنيا شكلا روائياً مختلفاً عن شكل روائيي القرن التاسع عشر فذلك لأنه كان يتوجب عليهما في المقام الأول أن يصفا وأن يعبرا عن واقع انساني (وعالم الاجتماع يستخدم تعبير واقع اجتماعي بما أن كل واقع انساني في نظره هو واقع اجتماعي) يختلف عن الواقع الذي كان على روائيي القرن التاسع عشر أن يصفوه وأن يعبروا عنه

وأخيراً فإن تحليل ناتالي ساروت بدا لي فريداً في دقته وفي أمانته عندما كانت توضح كيف أن العادات النفسية والبنى والأطر العقلية القديمة التي تستمر قائمة في وعي معظم الناس تحول بينهم وبين ادراك الواقع الجديد ، وهو واقع جوهري بقدر ما يبنين حياة الناس اليومية اليومية بصورة فعلية ولو لم يكن عدد منهم على وعي بذلك . والمسألة الوحيدة التي أخشى أن تكون فيها مهنتها ككاتبة قد حالت بينها وبين ادراك أهمية الواقع الاجتماعي والتاريخي هي

الطريقة التي تتصورها ناتالي ساروت عملية تغير الواقع التي جعلت الانتقال من الرواية الكلاسيكية إلى الرواية الجديدة ضرورياً ، والقوى التي أسهمت في تحقيق هذا الانتقال . أخشى أن تكون ناتالي ساروت ، في هذه العملية ، قد بالغت في تقدير أهمية الكتاب وحطت ، ضمنياً ، من أهمية الناس الآخرين . انها ، اذ تتحدث – بحق – عن تقدم الأبحاث الادبية ، تتخيلها على صورة تاريخ العلوم الفيزيائية والكيميائية ، وهي ، فيما أرى ، تبالغ في ذلك إلى حد ما . ويبدو أن ثمة في نظرها واقعاً انسانياً معطى مرة واحدة وإلى الأبد (مماثلا للواقع الكوني) يقوم الكتاب باستكشافه بعضهم في أثر البعض الآخر ، شأنهم في ذلك شأن العلماء ، خالقين بذلك عبر تتابع الأجيال توجيهاً بسيطاً للاهتمام نحو قطاعات جديدة ، وانه ما إن تنجلي مشكلات هذا الواقع القديمة حتى ينبغي ، انطلاقاً من ذلك ، الكشف عنها ودراستها . فلأن بلزاك وستندال قد حللا سيكولوجية الشخصية وعما بذلك معرفتها وجعلاها عادية ، لم يعد لهذه الشخصية في نظر ناتالي ساروت أية أهمية ، وكان على الكتاب اللاحقين : جويس ، بروست ، كافكا ، أن يتجهوا نحو واقع أشد خفاء وأكثر دقة ، فاتحين بذلك طريقاً على روائيي اليوم أن يجهدوا بدورهم في متابعة السير عليه .

ويبدو لي في الواقع أن روب – غرييه كان يرى الأمور بوضوح أكثر في هذه الناحية . اذ ليس ثمة في المجال الانساني واقع ثابت معطى مرة وإلى الأبد يتوجب علينا أن نستكشفه بدقة متزايدة عبر تتابع أجيال الفنانين والكتاب دون أن نقوم بأي شيء آخر . ان جوهر الواقع الانساني هو نفسه جوهر حركي ومتغير عبر التاريخ ؛ وبالاضافة إلى ذلك فإن هذا التغير هو ، بدرجات متفاوتة بالطبع ، عمل جميع الناس واذا كان الكتاب نصيبهم من هذا العمل ، فإن هذا العمل لاينحصر مع ذلك بهم كما أن نصيبهم منه لايرجح على نصيب الآخرين .

واذا كان قد غدا من الصعوبة وصف تاريخ وسيكولوجية الشخصية دون الوقوع في شباك النوادر والتوافه فليس ذلك لأن بلزاك أو ستندال أو فلوبير قد وصفوه من قبل فحسب بل لأننا نعيش في مجتمع يختلف عن المجتمع الذي كانوا يعيشون فيه ، في مجتمع أضاع أهمية الفرد بوصفه فرداً ، كما أضاعت فيه سيرته وسيكولوجيته كل أهمية أولية حقاً ، وانتقل ذلك كله إلى مستوى النادرة والخبرة التافهة . وكما قال روب – غرييه في حديثه ، اذا كانت الرواية الجديدة تصف بطريقة مختلفة علاقات غيور مع امرأته وعشيق هذه المرأة والموضوعات المحيطة بهم جميعاً فليس ذلك لأن المؤلف يبحث بأي ثمن عن شكل مبتكر وانما لأن البنية التي تشترك بها كل تلك العناصر قد غيرت هي نفسها من طبيعتها . والواقع أن المرأة ، ولابد من اضافة

العشيق والغيور نفسه ، قد غدوا جميعاً موضوعات ، وضمن مجموع هذه البنية وكل بنى المجتمع المعاصر الجوهرية تعبر المشاعر الانسانية الآن (وهي المشاعر التي كانت دوماً وما تزال تعبيراً عن العلاقات بين الناس من جهة وبينهم وبين العالم المادي الطبيعي أو المصنوع من جهة أخرى) عن علاقات تملك فيها الموضوعات بقاء واستقلالا تفقدها الشخصيات بالتدريج .

بعد هذه الملاحظات الأولية على بيانين يشكلان فيما أرى وثيقتين هامتين على وجه الخصوص من أجل فهم الأدب المعاصر ، اسمحوا لي – بما أنني أتحدث اليكم بوصفي عالم اجتماع – أن أثير قضية التحولات الاجتماعية التي خلقت الحاجة فعلا لشكل روائي جديد ، وكذلك أن أوضح ، في ضوء بعض الأمثلة ، الطريقة التي عبرت بها مبدعات ناتالي ساروت وآلان روب غرييه عن بعض الملامح الجوهرية لهذا الواقع الانساني الجديد .

من الواضح أنه ليس بوسعنا ، ضمن اطار عرض موجز ، أن نقوم بكتابة تاريخ شامل للمجتمعات الغربية منذ القرن التاسع عشر . سأكتفي إذن ، مضطراً ، بالتنويه ببعض النقاط المهمة على وجه الخصوص بالنسبة للمشكلة التي تشغلنا اليوم ، وأعني بها مشكلة الرواية الجديدة .

سأنطلق من صلة تبدو لي ، منذ الوهلة الأولى ، بليغة الايحاء .

على المستوى الأدبي ، يتناول التحول الجوهري في المقام الأول – ولقد حدثنا بذلك ناتالي ساروت وآلان روب – غرييه كلتاهما – الوحدة البنيوية : شخصية – موضوعات ، معدلة باتجاه اختفاء جذري تقريباً للشخصية يلازمه تمزز لايقل جذرية لاستقلالية الموضوعات .

والحق أن أبحاثنا حول الشكل الروائي ضمن فريق علم اجتماع الأدب في جامعة بروكسل كانت قد قادتنا من قبل إلى فرضية مفادها أن الشكل الروائي هو أكثر الأشكال الأدبية ارتباطاً بشكل مباشر وفوري بالبنى الاقتصادية بالمعنى الدقيق للكلمة أي بنى التبادل والانتاج من أجل السوق . ومن هذا المنظور يبدو لي أن من الأهمية بمكان أن نتبين أنه منذ ١٨٦٧ بل ومنذ ١٨٥٩ ، أي في الوقت الذي لم يكن فيه أي شخص يفكر بالمشكلات الادبية التي أتى على اثارتها كل من ناتالي ساروت وآلان روب – غرييه ، كان كارل ماركس ، وهو يدرس التحولات الرئيسية في بنية الحياة الاجتماعية التي سببها ظهور وتطور الاقتصاد ، يضع هذه التحولات ، على وجه التدقيق ، على مستوى علاقة الفرد – الموضوع الجامد ويشير إلى الانتقال التدريجي لعامل الواقع والاستقلال وفعالية العنصر الأول في هذه العلاقة إلى العنصر الثاني . وتلك هي

النظرية الماركسية الشهيرعن توثين السلعة أو ، لكي نستخدم مصطلحاً تبنته معظم الأدبيات الماركسية منذ كتابات لوكاتش ، نظرية التشيء » .

ومهما كانت الاتفاقات بين تحليلات ماركس النظرية في القرن التاسع عشر واكتشافات عدد من الكتاب المعاصرين مشجعة وعميقة الدلالة بالنسبة لفرضيتنا فإنها ماتزال تبدو لنا مع ذلك عامة إلى درجة لن يكون بوسع بحث سوسيولوجي أن يكتفي بها . ويبقى أن نتساءل في الواقع : كيف يمكن تفسير مرور قرابة قرن يفصل بين توضيح ظاهرة التشيء وبين ظهورالرواية بلا شخصية ؟.

ان السؤال الذي يطرح نفسه في الأساس هو التالي : هل ثمة علاقة واضحة أو تماثل بين تاريخ البنى التشيئية وبين البنى الروائية ؟. للاجابة عن هذا السوال لابد في رأيي من أن نأخذ بعين الاعتبار أربعة عناصر حاسمة ينبغي علينا تحديد طبيعتها ، وهي :

أ) التشيء بوصفه عملية نفسية دائمة مؤثرة منذ عدة قرون بدون انقطاع في المجتمعات الغربية المنتجة للسوق .

وثلاثة عناصر خاصة تحدد المظهر المادي للبنى التشيئية في تاريخ هذه المجتمعات وبالتالي المراحل التي مرت بها هذه البنى :

ب) الاقتصاد الحر الذي احتفظ حتى بداية القرن العشرين بالوظيفة الأساسية للفرد في الحياة الاقتصادية ، وانطلاقاً منها في مجموع الحياة الاجتماعية..

ج – تطور التروستات والاحتكارات ورأس المال ،في أواخر القرن التاسع عشر وخاصة في بداية القرن العشرين الذي أحدث تغيراً نوعياً في طبيعة الرأسمالية الغربية ، تغيراً يشير إليه المنظرون الماركسيون بـ « الانتقال من الرأسمالية الليبرالية إلى الامبريالية » . وكانت نتيجة هذا الانتقال في المقام الأول من الزاوية التي تهمنا – وهو الانتقال الذي يقع منعطفه النوعي في أواخر العشر الأول من القرن العشرين – تعليق كل أهمية أساسية للفرد وللحياة الفردية داخل البنى الاقتصادية وانطلاقاً منها في مجموع الحياة الاجتماعية .

د) ان تطور تدخل الدولة في الاقتصاد وخلق آلية انتظام ذاتي بفضل هذا التدخل خلال السنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية وخاصة منذ نهاية هذه الحرب جعل من المجتمع المعاصر مرحلة نوعية ثالثة في تاريخ الرأسمالية الغربية .

وبما أننا نفترض أن مفاهيم الاقتصاد الحر والاحتكارات والتروستات ورأس المال وتدخل الدولة معروفة تقريباً ، فإننا سنكتفي بالالحاح هنا على مفهوم التشييء .

ما الذي نعنيه بهذه الكلمة ؟ . انها ما يحدده ماركس في الفصل الأول من رأس المال بمصطلح توثين السلعة ، وهي ظاهرة تبلغ من البساطة حداً يمكن معه فهمها بسهولة بالغة .

ان المجتمع الرأسمالي ، وهو مجتمع تنتج فيه الأموال جميعاً من أجل السوق ، يختلف بصورة جوهرية عن كل الأشكال الأخرى السابقة (وربما اللاحقة) للتنظيم الاجتماعي للانتاج. وهذه الاختلافات تتخذ بطبيعة الحال مظاهر متعددة . لكنها مع ذلك تنحدر في أغلب الأحوال من أول اختلاف أصولي ونعني به افتقار المجتمع الرأسمالي الليبرالي لأي نوع من أنواع المؤسسات القادرة على ضبط الانتاج والتوزيع معاً داخل وحدة اجتماعية ما بشكل واع .

مثل هذه المؤسسات كانت قائمة في كل أشكال المجتمعات قبل الرأسمالية ، سواء في المجتمع البدائي الذي كان يعيش على الصيد البري أو المائي أو ، في القرون الوسطى ، في الأسرة الفلاحية أو في الوحدة المكونة من قصر الاقطاعي وعدد من أسر الفلاحين في القرية ، المرغمة على القيام بأعمال السخرة ، أو على تقديم الاتاوات ، بل وحتى في الاقتصاد السلعي في بدايات تكون المدينة الأوروبية إلى حد ما (على الرغم من أن خطة ضبط الانتاج هنا كانت موجودة في شكل نوع من لا — وعي شفاف ، وأن دراسة معمقة يمكن لها على وجه الاحتمال أن تجد فيها البواكير الأولى لظاهرة التشييء) .

كان يمكن لضبط الانتاج هذا أن يكون تقليدياً أو دينياً أو اجبارياً ، الخ ، لكنه كان يملك على كل حال طابعاً واعياً (أو شفافاً على الأقل كما هو الأمر في مدينة القرون الوسطى) . كذلك ، فهو واع في مجتمع اشتراكي أو ذي طابع اشتراكي يتم تنظيم الانتاج فيه بواسطة تخطيط مركزي للمشروع .

في حين أنه لايوجد ، في المجتمع الليبرالي الكلاسيكي ، على أي مستوى من مستوياته ، ضبط واع للانتاج وللاستهلاك بشكل دقيق . وبما لاشك فيه أن الانتاج في هذا المجتمع منظم بعد كل حساب ، فهو لاينتج على المدى الطويل اطلاقاً سوى كمية القمح أو الأحذية أو المدافع المطابقة للطلب المدفوع ، وبالتالي للاستهلاك الفعلي للمجتمع . غير أن هذا الضبط يتحقق بشكل ضمني ، غريب عن وعي الأفراد ، ويفرض نفسه على هؤلاء كما لو أنه فعل آلي لقوة خارجية .

أنه يتحقق عبر السوق وعبر قانون العرض والطلب وخاصة عبر الأزمات التي تصحح بشكل دوري اختلالات التوازن .

وتتخذ الحياة الاقتصادية على الصعيد المباشر لوعي الأفراد مظهر الأنانية العقلانية للانسان الاقتصادي ، والبحث عن الربح الأقصى حصراً دون أي اهتمام بمشكلات العلاقة الانسانية مع الآخر وبشكل خاص دون أي اعتبار للمجموع . وضمن هذا المنظور ، يغدو الآخرون في نظر البائع أو المشتري موضوعات مماثلة للموضوعات الأخرى ، ومجرد وسائل تسمح للواحد منهما بتحقيق مصالحه ، وهي مصالح ليس لها من الصفات الانسانية الهامة سوى قدرتها على ابرام العقود وتوليد التزامات جبرية .

غير أنه لما كانت الضوابط التي تفرضها متطلبات المجموع ليست أقل تأثيراً على وعي الأفراد ، فإن وجودها لابد أن يتجلى بطريقة أو بأخرى ، بل انه يحدث أن هذه الضوابط ، باعتبارها بعيدة عن وعي الناس ، تعود للظهور في المجتمع على صورة ملكيات جديدة لموضوعات جامدة تنضاف إلى الملكيات الطبيعية : قيم تبادل وثمن .

من الطبيعي أن الأشجار كانت وتبقى خضراء في الصيف يابسة في الشتاء ، كبيرة أو صغيرة ، قوية أو منخورة الخ .. لكن لهذه الأشجار ، في اقتصاد منتج من أجل السوق ، بالاضافة إلى ذلك كله ملكية ليست لها في أي اقتصاد طبيعي (كما أنها ، بالرغم من المظاهر ، لاتملكها في أي اقتصاد مختلط) ونعني بها كونها تساوي هذا المقدار أو ذاك من النقود ، كونها تملك سعراً مرتبطاً بالعرض وبالطلب الذي يحدد في نهاية الأمر عدد الأشجار التي ستقطع في هذه السنة أو تلك لتستخدم في الانتاج — وهذا الأمر ينسحب — بطبيعة الحال ، على جميع السلع الأخرى .

وهكذا ، فإن مجموعاً كاملا من العناصر الأصولية للحياة النفسية ، أي كل ما كان في الأشكال الاجتماعية قبل الرأسمالية — وما سيكون في الأشكال الاجتماعية المستقبلية فيما نأمل — مكوناً من المشاعر فوق الفردية والعلاقات مع القيم التي تتجاوز الفرد — وهذا يعني الأخلاق والجمال والرحمة والإيمان — ؛ يختفي عن وعي الأفراد في القطاع الاقتصادي الذي يزداد وزنه وأهميته في الحياة الاجتماعية كل يوم لكي يعطي وظائفه إلى ملكية جديدة للموضوعات الجامدة : أي إلى ثمن هذه الموضوعات .

ان نتائج هذا التغير خطيرة ، وليس بوسعنا أن نقوم بتحليلها في هذا المكان(٢) . انها تحمل أيضاً جوانب ايجابية كما أنها سمحت بتطوير عدد من الأفكار الأصولية في الثقافة الأوربية الغربية (ومنها أفكار المساواة والتسامح والحرية الفردية) ، لكنها زادت بالتدريج من تطور سلبية وعي الأفراد ومن استبعاد العنصر النوعي في العلاقات بين الناس من جهة وبين الناس والطبيعة من جهة أخرى .

ان ظاهرة الفاء قطاع بالغ الأهمية من وعي الأفراد لكي تحل محله ملكية جديدة ، ذات أصل اجتماعي محض ، للموضوعات الجامدة التي تدخل السوق كيما تتم فيه مبادلتها ، وانطلاقاً من ذلك انتقال وظائف الناس الفعالة إلى الموضوعات ، هذا الوهم الخارق (الذي شبهه ماركس بمنظور الشخصية الشيكسبيرية التي ترى أن معرفة القراءة والكتابة ميزة طبيعية في حين أن الجمال نتيجة جدارة) هو المعنى بهذا المصطلح الموحي إلى حد كبير : توثين السلعة ثم فيما بعد التشيء .

ان التشيء في بنية المجتمع الليبرالي الذي كان ماركس يحلله يلغي بذلك كل القيم فوق الفردية ويحولها إلى ملكيات أشياء ولا يترك وراءه كواقع انساني جوهري واضح سوى الفرد المحروم من كل رابطة مباشرة وملموسة وواعية مع المجموع .

لقد كان يمكن لعالم متوازن مطابق لهذه البنية أن يكون في أقصى حدوده عالم روبنسون : الفرد المعزول في مواجهة عالم الموضوعات والمزروعات والحيوانات (الذي لايوجد فيه الناس الآخرون الا بوصفهم أجراء ، وهو ما تعبر عنه شخصية فاندوردي) . وبالمقابل ، فإن الانسان — كما لاحظ لوكاتش في تحليل أكثر عمقاً — لايمكن له أن يبقى محافظاً على صفته الانسانية وأن يقبل في الوقت نفسه غياب الاتصالات الملموسة والمستمرة مع الناس الآخرين، بحيث أن الابداع الانساني الذي كان يطابق واقعياً البنية التشيئية في المجتمع الليبرالي كان تاريخياً للفرد الاشكالي كما عبر عنه الأدب الغربي منذ دون كيشوت وحتى ستندال وفلوبير

---

(٢) راجع حول هذا الموضوع: التاريخ والوعي الطبقي Histoire et conscience De Classes لجورج لوكاتش ، من منشورات Minuit ، باريس ، وكذلك دراسة لوسيان غولدمان عن التشيء La Rélfication في كتابه دراسات ديالكتيكية Recherches Dialectiques ، من منشورات Gallimmard ، باريس .

مروراً بقوته (وكما بين رينيه جيرار مع بعض التعديلات الطفيفة ، حتى بروست وفي روسيا حتى دستويفسكي) (٣) .

ولقد قال روب – غرييه ذلك لتوه : ان الرواية الكلاسيكية هي الرواية التي تملك فيها الموضوعات أهمية أولية بيد أنها لاتوجد إلا من خلال علاقاتها مع الأفراد . والمرحلتان اللاحقتان في المجتمع الرأسمالي الغربي ، المرحلة الأمبريالية – التي تقع بين ١٩١٢ و ١٩٤٥ تقريباً – ومرحلة رأسمالية التنظيم المعاصرة ، تتميزان على الصعيد البنائي ، الأولى بالاختفاء التدريجي للفرد بوصفه واقعاً جوهرياً وبالاستقلال المتزايد للموضوعات بصورة مترابطة ، والثانية بتكون عالم الموضوعات هذا – الذي أضاع فيه الانساني كل واقع جوهري سواء بوصفه فرداً أو بوصفه جماعة – كعالم مستقل ذاتياً له بنيانه الخاص الذي يسمح ، وحده ، للانساني أحياناً ، وبصعوبة ، أن يعبر عن نفسه .

اسمحوا لي أن أصوغ هنا فرضية سيكون من الضروري ضبطها بطبيعة الحال بعدد من الأبحاث اللاحقة . يبدو لي أن المرحلتين الأخيرتين من تاريخ الاقتصاد والتشيىء في المجتمعات الغربية تطابقان فعلياً مرحلتين كبيرتين في تاريخ الأشكال الروائية : المرحلة التي سأميزها بذوبان الشخصية ، وهي المرحلة التي تنتمي إليها مبدعات بالغة الأهمية كمبدعات جويس وكافكا وموزيل والغثيان لسارتر والغريب لكامو وربما إلى حد كبير مبدعات ناتالي ساروت بوصفها واحدة من أشد مظاهر هذه المرحلة جذرية ؛ والمرحلة الثانية التي بدأت لتوها العثور على تعبيرها الأدبي والتي يعتبر آلان روب – غرييه واحداً من أكثر ممثليها أصالة وألمعية ، وهي ، على وجه التدقيق ، المرحلة التي تسجل ظهور عالم مستقل للموضوعات ، له بنيته الخاصة وقوانينه الخاصة ، يمكن ،عبره وحده ، للواقع الانساني أن يعبر عن نفسه إلى حد ما .

واذ أتصدى الآن لمعالجة المبدعات المباشرة لهذين الروائيين أود أن أبدأ بالاشارة إلى مايلي : انهما ، بالرغم من كل مايفصلهما ، يكتبان في الحقبة نفسها ، أي حقبتنا ، وبالتالي ، فإن ما يقولانه لنا عن الواقع ربما لم يكن مختلفاً كلياً .

أن التعارض بين ناتالي ساروت وآلان روب – غرييه يقوم في ما يهمهما وفيما يبحثان عنه

---

(٣) راجع كتاب رينيه جيرار Girard : الأكذوبة الرومانتيكية والحقيقة الروائية Mensonge Romantique et verté romanesque من منشورات Grasset هـ.م

أكثر مما يقوم فيما يقررانه . فما تزال ناتالي ساروت ، ضمن أشد الاشكال تقدماً وتطرفاً — روائية من المرحلة التي ميزناها بوصفها مرحلة ذوبان الشخصية . ان البنى الشاملة للعالم الاجتماعي لاتهمها كثيراً ، فهي تبحث في كل مكان عن الانساني الأصيل وعن التجربة المعاشة المباشرة ، في حين أن آلان روب — غرييه يبحث هو أيضاً عن الانساني ولكن بوصفه تعبيراً مجسداً في الخارج ، بوصفه واقعاً يندرج في بنية شاملة .

ولكن ماإن نصوغ هذا الفارق بين الراوئيين حتى تبدو لنا اثباتاتهما متقاربة جداً . ففي بحثها عن التجربة المعاشة المباشرة ، تقرر ناتالي ساروت أنه لا وجود لهذه التجربة على الاطلاق في التجسيدات الخارجية التي تتسم جميعاً بالزيف والانحراف والتشوه . كذلك ، فانها ، أمام هذا الذوبان الأقصى للشخصية ، تحد عالم مبدعاتها بالميدان الوحيد الذي يمكن لها فيه أن تعثر على الواقع الذي يبدو لها جوهرياً على الرغم من أنها بطبيعة الحال تعثر عليه هنا أيضاً مشوهاً وساخطاً بسبب استحالة التجسيد الخارجي (، كما تحده أيضاً بالمشاعر وبالتجربة الانسانية المعاشة السابقة على كل تعبير ، وبما تطلق عليه الانتحائيات والمحادثات الجزئية والابداع الجزئي . انها ، بهذا المعنى ، تبدو لي (وآمل الايغضبها ذلك مني) الكاتبة التي تعبر عن جانب جوهري من الواقع المعاصر في شكل أبدعت له ولاشك طريقة جديدة ولكنه مازال شكل كتاب ذوبان الشخصية : كافكا ، موزيل ، جويس ، الذين تدعي الانتماء إليهم في أغلب الأحيان .

إن ناتالي ساروت ، اذ تهتم على وجه الخصوص بعلم النفس وبالعلاقات الانسانية ، ليست ضحية الوهم المثي . كما أنها تظل واعية لواقعة أن كل جوانب العلاقات الانسانية — حتى أشد هذه الجوانب زيفاً وافتقاراً للأصالة ، تلك التي تحول دون التوصل إلى أقصى حد — تنتج في النهاية عن انحطاط الانساني والنفسي . وكنا نود لو تمكنا من أن نضيف أنها تضع في اعتبارها أن الاستغلال الذاتي المتزايد للموضوعات ليس إلا مظهراً خارجياً لهذا الانحطاط ؛ لكن ذلك سيكون مفتقراً إلى الصحة اذ أنها بعدم توجيهها سوى قليل من الاهتمام لكل ماهو مجسد في الخارج فانها لا تسجل الوضع الجديد للموضوعات في الحياة الاجتماعية . ويكفي أن نضرب مثلاً على ذلك من بين عديد من الأمثلة الأخرى الصفحات الأربعين المخصصة لمقبض باب في بداية رواية Planetarium (٤) ؛ فهي لاتمنح قبضة الباب هذه أقل قدر من الاستقلال الذاتي ، وكل شيء يجد تعبيره دفعة واحدة عبر الاستجابات

(٤) آلة تبين حركة الكواكب السيارة : محركة السيارات . هـ.م .

النفسية لكل من المرأة المسنة والعال وابن الأخ وأبيه وأمه وأصدقائه . إن البنية الجوهرية للعلاقة موضوع – فرد ماتزال نفس البنية الجوهرية لهذه العلاقة في الرواية الكلاسيكية . ولم تسجل ناتالي ساروت سوى التحولات النفسية التي تشكل مضمون هذه العلاقة ؛ ضمن هذا المنظور ، ليس ثمة اختلاف جوهري بين « وظيفة » مقبض الباب » داخل العقل الفني » ووظيفة كافة المظاهر الخارجية للناس ومنها على سبيل المثال مظهر الكاتب الشهير الذي كتب « بحثاً عن موسرل » أو مظهر جير مين لومير في مشهد المكتبة .

وعلى العكس من ذلك ، فإن روب – غرييه ، بتركيزه على المظاهر الخارجية للحياة الاجتماعية ، لايسجل الطابع الانساني والنفسي جوهراً للعلاقات التي هي في أساس التشيء والاستقلال المتزايد للموضوعات . وربما كان بوسعنا تمييز كتابات هذين الروائيين بتطبيقنا على الرواية الجديدة التمييز اللوكاتشي بين رواية المثالية المجردة التي تركز على الفعل الخارجي للبطل وعدم تلاؤمه مع العالم والرواية النفسية عن الخيبة التي تركز على استحالة الفعل الناتجة عن عدم تلاؤم من نمط متمم . كذلك لابد من الاشارة إلى أن هذين النمطين للبنية نفسها يخفضان ، في هذه الحالة أو تلك ، التعديل مرده اختفاء الشخصية (٥) .

ان روب – غرييه يعبر عن ذات واقع المجتمع المعاصر هذا ضمن شكل جديدجوهرياً .

كما أن اختفاء الشخصية بالنسبة إليه أيضاً أمر مقرر ، لكنه يسجل أن هذه الشخصية قد استبدلت بواقع مستقل آخر (واقع -لاتلتفت إليه ناتالي ساروت :) هو عالم الموضوعات المتشيء . وبما أنه يبحث هو أيضاً عن الواقع الانساني – وتلك نقطة مشتركة أخرى بين الكاتبين – فانه يقرر أنه ليس من الممكن أن يتم العثور على هذا الواقع – الذي لايمكن له أن يوجد في البنى الشاملة بوصفه واقعاً عفوياً معاشاً بصورة مباشرة – إلا من خلال تعبيره عن نفسه عبر بنية وملكيات الموضوعات .

انكم تدركون السبب الذي يجعلني ، بوصفي عالم اجتماع ، أعتقد أن مبدعات ناتالي ساروت وآلان روب – غرييه تشكل ، ضمن الحدود التي يفرضها تقلص العالم الانساني في عصرنا على كل ابداع ثقافي ، ظواهر ذات أهمية خاصة . الا أنني أعتقد أن مبدعات روب

(٥) وبما أمكن تحقيق الخطوة الحاسمة نحو أدب واقعي على يد كاتب ينجح في دمج جانبي الواقع اللذين سجلت الواحد منها ناتالي ساروت وسجل الآخر آلان روب – غرييه بصورة دقيقة للغاية .

– غريبه هي كذلك (وآمل ألا يغضبه ذلك مني هو الاخر) بسبب ماحققه فيها فعلياً بسبب ماأراد أن يحققه فيها .

ذلك أنه قد يحدث ، في الاطار الذي أتينا لتونا على الاشارة إليه ونعني به اطار العالم المستقل ذاتياً الواقعي جوهرياً والغريب انسانياً عن الأشياء ، أن يكون روب – غرييه قد بحث عن واقع سيكولوجي : عقدة أوديب في رواية الماحي والوسواس في رواية البصاص وشعور الغيرة في الرواية التي تحمل الاسم ذاته ، وربما معالجة بواسطة التحليل النفسي في السنة الفائتة في مارينباد . بيد أن المهم فيما يبدو لي هو أن هذه المقاصد – بفرض أنها كانت مقاصد فعلية – لم تنجح في الاندماج بالمبدع إلا بقدر ماكانت تستطيع أن ترتبط بتحليل اكثر جوهرية لبنى الواقع الاجتماعي الشاملة .

ان عقدة اوديب تظل حلية خارجية في رواية الماحي ؛ أما وسواس ماتياس وغيرة الزوج فليسا سوى نقطتي انطلاق ، مادتين تسمحان بالتعبير عن بنى اكثر جوهرية كان يمكن أن يتم التعبير عنها بشكل مماثل انطلاقاً من مشاعر مختلفة ؛ بينما تغدو العلاقات بين الرجل والمرأة في السنة الفائتة في مارينباد تعبيراً عن العلاقات الانسانية في مجموعها .

وبالاضافة الى ذلك ، وأخشى أن أخيب هنا أمل معظم النقاد الذين ركزوا جهودهم على القضايا الشكلية في مبدعاته ، فانني سأقول إنه في ضوء قراءتي لكتاب روب – غرييه ، تكون لدي انطباع مفاده أن القضايا الشكلية فيها ، على أهميتها القصوى ، لم تكن تملك أي طابع مستقل ؛ إن لدى روب – غرييه مايقوله ، وشأن كل كاتب ، فهو يبحث عن اكثر الاشكال ملاءمة لكي يفعل ذلك . ان مضمون كتاباته لايمكن أن ينفصل عن الابداع الأدبي ولا هذا الأخير عن مجمل المبدع الذي أنجزه . لقد تحدثنا كثيراً عن القضايا الشكلية في روايات روب – غرييه وربما حان الوقت للحديث عن مضمونها .

لن يكون المقصود بالطبع أن نعثر في هذه الروايات على مضمون خفي . فالبحث الشكلي الذي يقوم به روب – غرييه هو محاولة لجعل المضمون واضحاً ومقبولا قدر الامكان ، واذا كان النقاد والقراء قد واجهوا كثيراً من المصاعب في ادراكه ، فلم يكن ذلك نتيجة خطأ الكاتب ، وانما نتيجة العادات العقلية والمشاعر المتحيزة والأحكام المقررة سلفاً التي يتصدون بها لقراءته .

لقد بدأ روب – غرييه نشر أعماله في عام ١٩٥٣ بنشر نوع من الرواية البوليسية تحت عنوان الماحي . وفي هذه الرواية ، يحافظ الى حد كبير على المخطط التقليدي لهذ النوع الأدبي (جريمة قتل فاشلة ، تحقيق بوليسي ، الخ) ، غير أنه يدمج به مضموناً جديداً يؤدي بطبيعة الحال الى عدد من التعديلات الشكلية ذات حظ من الأهمية . إلا أنه يبدو لي هذا أن التباين بين المضمون الجديد والشكل المجدد بصورة جزئية هو الذي كان يقود روب – غرييه إلى أن يذكر في مجموعة من التفاصيل الهامشية ماأراد أن يقوله . وتلك هي ، مشكلة الايماءات إلى أسطورة أوديب التي أكثر منها المؤلف بطريقة كانت تجعل منها غريبة تقريباً على تكوين العمل نفسه (مقاطع ستائر نافذة ، تزيين مدخنة ، لغز أبي الهول ، مقطع يتعلق بوجود محتمل لابن ما للضحية ، الخ) ، وذلك ليسترعي انتباه القارىء الى أنه ليس المقصود بهذا العمل مجرد رواية بوليسية من النمط المعروف ، وانما هو كتاب ينتمي مضمونه الاساسي إلى مضمون المأساة القديمة . كان من الممكن أن تكون هذه الايماءات ولاشك عديمة الفائدة (ونحن لانجد ماعاثلها على الاطلاق في المؤلفات اللاحقة لروب – غرييه) لو أن شكل الكتاب كان مناسباً بما فيه الكفاية لحمل المضمون واضحاً فعلام تقوم اذن صلة القربى التي أراد روب – غرييه أن يقيمها بين رواية الماحي وبين أسطورة أوديب ؟ . ان هذه الصلة تبدو لنا في آخر التحليل ضئيلة بل وموضع نقاش ؛ فالكتاب لايستعيد على وجه التأكيد الاسطورة نفسها . ومن المؤكد تقريباً أن دانييل دييون لم يقتل على يد ابنه ؛ ولاشيء في الكتاب على كل حال يجعل من هذه الفرضية معقولة . ان صلة القربى بين الماحي وأسطورة أوديب تقوم على أساس أن تسلسل الأحداث في كلا الحالين يتم وفق ضرورة حتمية لايمكن لمقاصد وأفعال الناس أن تغير منها شيئاً . إلا أنه ليس ثمة ، بنيوياً ، غير قليل من الاشياء التي تشترك بها ضرورة المأساة القديمة ، التي تنتج من الصراع بين ارادة الآلهة وجهود الناس وتحول الحياة الانسانية إلى مصير ، مع العملية الميكانيكية التي تجري داخل عالم فقد فيه الأفراد وبحثهم عن الحرية كل واقع وكل أهمية (وربما كان روب – غرييه – ، الذي سيقلع فيما بعد عن كل اشارة إلى هذه المأساة ، وقد لاحظ ذلك بنفسه) .

مضمون الكتاب على هو وجه التدقيق هذه الضرورة الميكانيكية والمحتومة التي تحكم العلاقات بين الناس مثلما تحكم العلاقات بين الناس والأشياء في عالم يشبه آلة حديثة مزودة بآليات الضبط الذاتي . هناك منظمة سرية مضادة للحكومة قررت قرارها على أن تقتل انساناً

كل يوم وتتجه اليه بالمسمى دانييل ديبون . غير أنه يحدث لسوء الحظ ، وهو مايمكن أن أن يحصل في اكثر آليات دقة ، أمر غير متوقع : فقد أثار دانييل ديبون مصباح مكتبه مبكراً عن موعده المعتاد ؛ الأمر الذي جعل المجرم يباغت بذلك ، فيسيء التصويب ولايسبب له الا جرحاً طفيفاً في الذراع . ولكي يحمي ديبون نفسه ، بعد أن أدرك أنه المقصود بوصفه شخصية تربطها بالحكومة علاقة قوية ، فانه سيجعل جريمة القتل تبدو ناجحة ، ويختفي بعض الوقت آملا بذلك أن يتخلص من رقابة المجرمين . ومن ناحية أخرى ، يرسل شرطي سري التحقيق في جريمة لم تنفذ في الواقع . ويبدو أن الطابع المحتوم والآلي للعملية قد اختل وأنه أمكن حدوث انحراف عن خطه الطبيعي . والواقع أن ذلك لم يكن إلاوهماً : فالعملية محتومة والآلية كاملة . اذ ، بمفارقة الاحداث البسيطة ودون أن يكون أي شخص واعياً بها أو مريداً لها ، سوف يقتل الشرطي السري الضحية المزعومة التي غدت بذلك ضحية حقيقية ، وهو ماسيسمح بمتابعة التحقيق حول جريمة فعلية . أما بالنسبة لفريق المجرمين ، فانه سيتابع العمل حتى دون أن يعلم بالخطأ المقترف ويعمل على قتل انسان آخر في اليوم التالي هو ألبير ديبون .

من الممكن أن يطرح سؤال أخير : لم كان اختيار الماحي عنوان هذا الذي لايكاد يرتبط باحداث الرواية الا من خلال واقعة دخول الشرطي السري « والاس » إلى المكتبة عدة مرات لشراء مماح ؟ يبدو لي أن المقصود هنا ، كما هو الامر بالنسبة للايماءات إلى اسطورة أوديب ، مجرد تذكير خارجي بمضمون الرواية : فعلى المستوى المباشر ، هناك الضوابط الذاتية التي تمحو الاخفاق ، وعلى مستوى اكثر عموماً هناك آلية مجتمع تمحو كل أثر للفوضى الحية ولواقع الفرد .

هذه الثيمات نفسها تتواجد في الرواية الثانية للمؤلف ولكن على أرفع المستويات الأدبية ، وهي الرواية التي أثارت أعتى المناقشات بين النقاد الأدبيين ونعني بها : البصاص. وربما سيتذكر البعض الآن عنف وصخب مقال أ . هنريو الأول المنشور في اللوموند ثم تراجعه اللاحق عندما اقترح تصنيف الكتاب بين أفضل عشرة كتب يمكن قراءتهاأثناء الاجازة .

ان رواية البصاص تطرح نفس المشكلات التي طرحتها رواية الماحي ولكن علىمستوى اكثر جذرية بكثير استدعى تحولات شكلية عميقة . ومن الطبيعي أن هذه التحولات وحدها هي التي استرعت انتباه النقاد الذين لم يروا على صعيد المضمون سوى النادرة وحكاية خبر

تافه لم تكن تستثير اهتمامهم أو أنها كانت ، في حدود ضيقة ، تفضحهم ؛ ومن الطبيعي أننا اذا لم ننطلق من المضمون الذي يبرر هذ التحولات الشكلية ويجعلها ضرورية فانها ستبدو تعسفية أو مصطنعة . وقليل من النقاد من أثار ، على ما نعلم ، ولو مسألة العنوان البسيطة البصاص ، الذي يشير مع ذلك بوضوح كاف الى مضمون الكتاب ، لوضعها على الصعيد الذي كانت تستحق أن توضع عليه . اذ من هو البصاص ؟ . من الواضح أن الكلمة لاتعني سوى بطريقة جزئية للغاية التاجر المسافر ماتياس الذي اقترف فعلا الجريمة موضوع الكتاب . لقد لاحظ أحد النقاد أن الكلمة تنطبق على الشاب ماريك اكثر من انطباقها على ماتياس ، غير أن اعتراضاً وجيهاً يقف في وجه هذا التأويل : اذ سيكون صعباً علينا في الواقع أن نجعل من ماريك شخصية الكتاب المركزية .

لنتساءل مع ذلك عن مضمون الكتاب وسنرى أن الجواب يفرض نفسه بنفسه .من الطبيعي أن مضمون الكتاب ليس رواية خبر تافه ، أي خبر قتل الفتاة الصغيرة ، اذ ليس في ذلك أي جديد بالنسبة للرواية التقليدية .

على اكثر المستويات مباشرة ، يعيد المؤلف ثانية نقل الحكاية التي يحاول التاجر المسافر ماتياس أن يعيد صياغتها عن اقامته خلال أربع وعشرين ساعة في الجزيرة التي ذهب إليها ليبيع فيها بضاعته من الساعات . ان ماتياس ، الذي قتل أثناء اقامته هذه فتاة صغيرة ، محاصر بذكرى هذه الجريمة وبالخوف من أن يعتقل . ولذلك فان روايته تتميز دفعة واحدة بعنصرين : رغبته في أن يقدم عن اقامته في الجزيرة صورة معقولة لاتعتورها أية ثغرة ويستبعد منها كل اشارة إلى الجريمة من جهة . وخوفه من أن يكتشف ويعتقل ، وهو خوف يترجمه وسواس القيود وكل ما يذكره بـ « الثمانية النائمة » التي تملك القيود شكلها من جهة أخرى .

ان هذا الخوف يشوه البنية القصدية للحكاية ويحول بينها وبين السير على هدي مسار القصد الأساسي ، ويؤدي بها على الدوام إما إلى جريمة قتل الفتاة ذاتها التي تهدف إلى اخفائها أو إلى بعض الاحداث التي مرت في طفولة ماتياس والتي ترتبط في تجربته المعاشة (وروب–غرييه يستفيد هنا إلى حد ما من التحليل النفسي) بجريمة القتل ، مضفية على هذه الأخيرة دلالتها النفسية .

هذا المضمون يفسر أسلوب الكتاب ، وبوجه خاص التبدل الدائم داخل نفس الجملة بين شخصيات مختلفة وأحداث وقعت في حقب مختلفة .

ان البصاص هو اذن ، على مستوى مباشر ، ماتياس نفسه بما أن أحداث الحكاية قد وقعت لا في اللحظة التي اقترف فيها الجريمة وانما بعد ذلك ، أي في اللحظة التي كان يحاول فيها اعادة صياغة روايته الخاصة عن يومه في الجزيرة التي يستبعد فيها كل ذكرى للجريمة على الرغم من أن روايته ترتد بشكل متتابع إما إلى الجزيرة ذاتها أو الى مختلف الموضوعات المتعلقة بها .

ومع ذلك فإن اكتشاف ماتياس الكبير الذي سيتحقق تدريجياً أثناء الحكاية (٦) هو أنه ليس من المستحيل عليه اخفاء جريمة يرده إليها باستمرار خوفه الاستحواذي فحسب بل كذلك أن جهده في سبيل هذا الاخفاء لاطائل من ورائه على وجه الخصوص ، مادام يعتمد على تقديم صورة زائفة كلياً عن الواقع الاجتماعي . والواقع أن ماتياس يبدأ باكتشاف وجود شخصين في الجزيرة كانا شاهدين على الجريمة (والأمر أكيد على الأقل بالنسبة لواحد منهما وشديد الاحتمال بالنسبة للآخر) ، يتمسكان ، كلاهما ، بتبيان عدم دقة تأكيداته في كل مرة ينزع فيها إلى إخفاء فعله . وهذا الاكتشاف يسبب له قلقاً ، إلا أنه قلق عابر ، اذ مايلبث أن يلاحظ أنه إذا كان كل من الشاهدين يتمسك دون أي شك بتصحيح تصريحاته فإنهما لايفعلان ذلك الا بهدف تقرير الحقيقة ، وأنه ليس لديهما النية على الاطلاق للابلاغ عنه والعمل على ملاحقته : انهما مجرد بصاصان بسيطان . وسيكتشف ماتياس عما قريب أن كل سكان الجزيرة ، في هذه الرواية كما في كل مبدع فني ، لايؤلفون قطاعاً جزئياً من عالم شامل وانما يؤلفون هذا العالم نفسه ، ويستطيعون ، بسهولة بالغة وبقدر ضئيل من الجهد ، أن يكتشفوا المجرم ، لكنهم لايهتمون به أكثر من اهتمام الشاب ماريك أو الصغيرة ماريا به . ان هذه الجريمة ، في الأساس ، شأنها شأن جريمة الماحي تندرج في نظام الأشياء ومن حيث إن الفتاة الصغيرة المقتولة لم تكن تشبه سكان الجزيرة الآخرين ، وانما كانت تمثل عنصراً من التلقائية والفوضى ، فإن اختفاءها

(٦) وهي حكاية لا تقف على مستوى الشخصية المركزية بالضبط وإنما تقف إلى درجة ما فوق هذا المستوى ، كما هو الأمر لدى الروائيين الكلاسيكيين ، أي على العكس مما يقوله روب – غرييه غالباً عن رواياته .

سوف يؤدي إلى التخفيف عنهم (٧) .

وهكذا فالعالم يتكون فقط من بصاصين سلبيين لايقصدون ولا يملكون امكان التدخل في حياة المجتمع لتغييره نوعياً وجعله أكثر انسانية . والانسان الوحيد الذي استطاع أن يفكر للحظة بأن جريمة قتل الطفلة كانت عملا يعاقب عليه ويستدعي استبعاده من الحياة الاجتماعية كان ماتياس نفسه الذي اذ فهم في نهاية الحكاية خطأه يحتقر امكانات الفرار المتاحة له وينتظر الصباح التالي بهدوء لكي يمتطي المركب الذي يقوم بالخدمة المنتظمة بين الجزيرة والقارة .

هكذا اندمجت الجريمة في النظام العام الذي تميز في الماهي بالضبط الذاتي الذي يستبعد كل امكانية تعديل تنشأ عن عنصر غير متوقع في مزاج فردي أو عن خطأ فردي غير منتظر ، كما تميز في البصاص بسلبية كافة أعضاء المجتمع (٨) .

---

(٧) ربما كان هنا عنصر خارجي أخير أضيف ثانية إلى المضمون الجوهري للرواية على الرغم من أنه يرتبط بهذا المضمون بصورة أوثق بكثير من ارتباط الإيماءات إلى أسطورة أوديب بمضمون الرواية السابقة . وبالنظر إلى مشكلة طبيعة العالم الإنساني الذي يتخيله روب - غرييه ، وهو عالم يطابق عن كثب كما قلنا جوهر المجتمع الصناعي الغربي ، فإن حقيقة كون الضحية كائناً هامشياً وغريباً يعني ما وأن اختفاءها قد أزاح عنصر اضطراب ، تبقى ، على أهميتها ، حكائية .

(٨) استرعى الروائي كلود أوليه وجان كاتريس الأستاذ في جامعة كاراكاس ، كل منهما على حدة ، انتباهنا إلى واقعة أن نص روب - غرييه ، بعيداً عن أن يؤكد أن ماتياس قد قتل الفتاة الشابة فعلا ، يوحي ، على العكس ، بالشك وبامكان إساءة خيالية محضة . ان هذه الملاحظة تبدو لنا مبررة ، ونحن نعتقد اليوم أنه من حيث إن ماتياس يعي بالتدريج السلبية الأصولية لهذا العالم فإن واقع فعله يتزعزع - شأنه شأن واقع كل الأفعال - إلى أن يمحي محولا هذا الفعل إلى حلم أو هلوسة أو محض خيال . ان ماتياس الذي بدأ بقتل الفتاة الشابة ينتهي إلى ألا يكون قد قتلها على الإطلاق وإلى أن يصبح هو الآخر أيضاً مجرد بصاص .

ومن جهة أخرى ، فإن آن أوليفيه قد استرعت انتباهنا إلى إمكانية تأويل مختلف ومتمم للبصاص وللغيرة بل وحتى للسنة الفائتة في مارينباد انطلاقاً من تحليلها لفيلم « الخالدة » . ومن الممكن أن يكون روب - غرييه قد أراد ، في هذه المبدعات كما في فيلم « الخالدة » أن يعارض وعياً موجهاً نحو الخيالي الذي يراه والذي يعيشه بعالم أصبح فيه الناس موضوعات يجهلونه ويستبعدونه (ويبقى مقبولا جزئياً على الأكثر من قبل الأطفال) .

ولابد من أن أضيف بضع كلمات هنا (على الرغم من أنها قد تكون عديمة الفائدة) لئلا في أي سوء تفاهم . إن ثيمة هاتين الروايتين وتلاشي كل أهمية وكل دلالة للفعل الفردي قد جعلا منهما فيما أرى اثنين من أكثر الأعمال واقعية في الأدب الروائي المعاصر . غير أنه قد يوجدهناك قراء أو نقاد يواجهونني بحجة تبدو وقد أملاها الحس السليم : فليس صحيحاً أنه في كل مرة يخطىء مجرم ضحيته تأتي آلية اجتماعية لتصحيح هذا الخطأ ، كذلك ليس صحيحاً أنه عندما يقتل تاجر مسافر فتاة صغيرة يظل الجيران ازاءها لامبالين كما ان السلطات لاتهتم بتوقيفه وتسليمه للعدالة .

للوهلة الأولى تبدو هذه الاعتراضات بطبيعة الحال مسوغة ؛ الا أن المشكلة مع ذلك تطرح نفسها على مستوى أكثر جذرية بكثير . فهناك عدد لايحصى من الجرائم اليومية ضد ماهو انساني تشكل جزءاً من الوضع الاجتماعي نفسه كما يقبلها أو يتحملها قانون المجتمع والبنية النفسية لأفراده . قديماً ، كان يمكن لوجود هذه العناصر اللاانسانية في الأشكال الاجتماعية السابقة (ويكفي أن نتذكر امتيازات الاقطاعيين أو الرسائل المختومة) بل وعليه في لحظة ما من التطور أن يستثير النقمة لدى أعضاء بعض الجماعات الاجتماعية أو لدى الكتاب والمفكرين الذين يعملون ناطقين بأسمها (ويكفي أن نذكر فولتير أو ليسينغ على سبيل المثال) وهي نقمة يمكن أن تؤدي إلى تحول اجتماعي هدفه جعل بقاء هذه العناصر مستحيلا مع احتمال استثارته لظلامات أخرى أو لأفعال لا انسانية أخرى تنتهي بدورها إلى إثارة النقمة ، وهلم جرا .

ان مايتبينه روب - غرييه ، ما يؤلف موضوع أول روايتين له هو التحول الاجتماعي والانساني الكبير الذي ولد من ظهور ظاهرتين جديدتين هامتين هما من جهة الضوابط الذاتية

= إن الصلاحية الممكنة - وهي تبدو لنا محتملة - لتحليل موجه في هذا الاتجاه ، وهو تحليل ربما أمكن أن يتطابق حتى مع المقاصد الواعية للكاتب - لا تبدو لنا منسجمة مع واقع البنى التي حاولنا توضيحها فحسب ، بل موضحة ومتممة بالنسبة لها أيضاً .

والواقع أن هذا المجموع الذي يضم الشخصية الإنسانية - أي البطل الاشكالي القديم وقد تقلص إلى حالة بصاص تخيالي - وعالماً يماثل المجتمع الصناعي المعاصر الذي أدرك روب - غرييه بطريقة واعية أو غير واعية ولكنها واقعية على كل حال ، مشكلاته وقوانينه وطبيعته هو الذي يشكل عالم هذه المبدعات .

إن « آن أوليفيه » تقترح دراسة مبدع روب - غرييه من خلال هذا المنظور .

للمجتمع ومن جهة أخرى السلبية المتزايدة وطابع « البصاصين » الذي يتخذه الأفراد بالتدريج في المجتمع المعاصر وغياب المشاركة الحية في الحياة الاجتماعية وهو مايسميه علماء الاجتماع المحدثون في أشد مظاهره وضوحاً نزع التسييس والذي هو في أساسه ظاهرة أشد أصولية يمكن تسميتها في تتابع تدريجي بأسماء من مثل: نزع التسييس ، نزع الصفة القدسية ، نزع الصفة الانسانية ، التشيىء .

وانما هذا التشييء نفسه هو الذي يؤلف ، على صعيد أكثر جذرية أيضاً ، موضوع رواية آلان روب – غرييه الثالثة : الغيرة . وكان هذا المصطلح نفسه الذي استخدمه لوكاتش يشير إلى أن تلاشي كل أهمية وكل دلالة لفعل الأفراد (٩) . وتحولهم إلى بصاصين وكائنات محض سلبية ليس سوى مظاهر محيطية لظاهرة أصولية ، هي على وجه التدقيق ظاهرة التشييء ، ظاهرة تحول الكائنات الانسانية إلى أشياء ، إلى حد يغدو معه الصعب أكثر فأكثر تمييز هذه الكائنات عن الأشياء . والحق أنه على هذا المستوى انما يستعيد روب – غرييه تحليل المجتمع المعاصر في الغيرة . لقد كتبت هذه الرواية من وجهة نظر مراقب غيور ، يحتمل أن يكون الزوج ، يراقب من خلال أباجور نافذة (١٠) ؛ ان عنوان الرواية نفسه يشير إلى أن من المستحيل في هذا العالم فصل الشعور عن الموضوع . كما أن مجموع الكتاب يوضح الاستقلال الذاتي المتزايد للموضوعات التي تؤلف الواقع الملموس الوحيد والتي ليس للواقع الانساني

---

(٩) أكد اقتصادي محدث على نفس الظاهرة بتذكيره أنه ليس ثمة أفراد على حظ كاف من الأهمية في الحياة الاقتصادية لكي يكون بوسع البورصة أن تسجل وفاتهم .

(١٠) في الأصل الفرنسي Jalousie ؛ ويمكن أن نترجم الجملة أيضاً على هذا النحو : « يراقب ما حوله من خلال غيرته » ، ذلك أن الكلمة الفرنسية التي استخدمها روب – غرييه عنواناً لروايته La Jalousie تحتمل معنيين في آن واحد : الغيرة من جهة وأباجور النافذة من جهة أخرى . وليس في اللغة العربية ، على ما نعلم ، كلمة عربية يمكن أن تحتمل هذين المعنيين معاً ؛ لذلك فإننا إذ نترجم الكلمة الفرنسية تارة بالغيرة وتارة بأباجور النافذة فإننا نغامر بتحديد معنى كلمة تحتمل ، في الأصل ، معنيين . ومن هنا الدلالة الرئيسية لاختيار كلمة Jalousie عنواناً للرواية : صعوبة الفصل بين الشعور وبين الموضوع في عالمنا المعاصر . م.ه

والمشاعر خارجها أي كينونة فعلية مستقلة . ان حضور الغيور لايشار إليه الا من خلال حضور كرسي ثالث أو كأس ثالثة ، الخ .

وهناك عدة مقاطع في الرواية تؤكد استحالة فصل النفسي والمعرفي والشعوري عن الموضوع :

« كان لابد من نظرة إلى طبقها الفارغ ، المتسخ ، لكي تقتنع بأنها لم تنته عن تناول الطعام ... يرفع الخادم الأطباق الآن . ويغدو بذلك مستحيلا علينا أن نضبط من جديد الآثار التي لطخت طبق « آ » ... — أو غياب هذه الآثار فيما اذا لم تكن قد تناولت شيئاً . » .

غير أن مايعنينا أكثر من أية تفاصيل من هذا القبيل هو بنية عالم اكتسبت فيه الموضوعات واقعاً خصوصياً ومستقلا ؛ وتشابه فيه الناس مع هذه الموضوعات اذ لم يتمكنوا من السيطرة عليها ؛ عالم لاوجود فيه للمشاعر الا بقدر ماتستطيع أن تتبدى عبر التشيء .

وطالما أن المناقشة لم تكن تتناول سوى هذه الروايات الثلاث الأولى ، فقد كان روب غرييه يتمسك بالاشارة إلى فارق هام بين عالمه الروائي وبين كل محاولة ماركسية لتأويل هذا العالم على أنه تمرد ضد نزع الصفة الانسانية . فالماركسيون ، حسبما يقولون ، أناس يتخذون مواقفاً . أما أنا فإني كاتب واقعي ، موضوعي ؛ انني أبدع عالماً خيالياً لا أحكم عليه ولا أحبذه ولا أدينه وانما أسجل وجوده بوصفه واقعاً جوهرياً .

وهذا ما كان يكوّن بالفعل أصالة روب — غرييه داخل صيرورة الرواية الحديثة التي جعلت من التشيء ، منذ زمن طويل ، مركز الابداع الفنّي نفسه . ان كافكا وسارتر في الغثيان وكامو في الغريب ما يزالون يحافظون على منظورات انسانية صريحة أو ضمنية كانت تجعل من هذه الكتب مؤلفات عن الغياب . وكان عالم روب — غرييه يدفع بتقرير الغياب كلياً إلى الخلفية ، إلى مستوى الضمني ، بحيث لايكاد يراه ذلك الناقد الذي كان يحاول العثور على دلالة شاملة لعالمه .

ومع رواية في المتاهة ، وهي آخر رواية منشورة حتّى اليوم (١١) ، يدخل الحكم

(١١) بعد روايته الرابعة هذه ، أي بعد كتابة هذا البحث أيضاً ، كتب روب — غرييه ونشر خمس روايات سينمائية : السنة الفائتة في مارينباد ، الخالدة ، الانزلاق التدريجي للذة ، اللعب بالنار ، شرقي عدن ؛ ومجموعة قصص قصيرة بعنوان « قوربات » ؛ وروايتان : دار اللقاء العابر ، ومشروع من أجل ثورة في نيويورك . م.م

الانساني على العالم الذي يصفه روب – غرييه في مبدعه للمرة الأولى . فمنذ الصفحة الأولى وحتى الصفحة الأخيرة يسود شعور القلق الكتاب . وهذا هو العنصر الجديد الذي ينضاف إلى التيمات والوسائل الشكلية التي كان روب – غرييه قد اكتشفها واستخدمها في أعماله السابقة . وبهذا المعنى انما يهمنا هذا الكتاب بوصفه مرحلة ، بوصفه حلقة في سلسلة ممدودة نحو المستقبل أكثر مما تهمنا جماليته الخاصة . لقد بدا لنا روب – غرييه في كل أعماله كاتباً على قدر من الجذرية لايمكن له أن يكتفي معه بحضور انساني مختصر في القلق ، وهي تيمة غدت عادية تقريباً لايكاد الكاتب يمنحها دلالة جديدة بادراجها في عالم رواياته السابقة الفارغ . كذلك فقد أضاف إلى القلق في عمله الأخير ، الذي لم يكن كتاباً بل فيلماً : السنة الفائتة في ماريانباد ، وجهه الآخر ، وهو الوجه الوحيد الذي يسمح لنا باعطاء الواقع الانساني في العالم المعاصر بعده الشامل : الأمل . وهذا لايعني أن روب – غرييه قد أصبح متفائلا بالنسبة للقيم التي هي في أساس هذه المبدعات اذ من المؤكد أنه لايمكن للنزعة التفاؤلية في المجتمع الراهن أن تكون سوى أكذوبة سهلة ورخيصة ، وانما يعني أنه عندما تطرح مشكلة الوجود الانساني الأصيل في هذا المجتمع نفسه ، كما هو الأمر في سائر المجتمعات الأخرى ، فإنها تبدو أولا بوصفها مشكلة طبيعة الزمن الفردي والتاريخي . لقد كانت الروايات الثلاث الأولى لروب – غرييه تعبر ، من بين ما تعبر عنه ، عن الطابع المتشيء لعالمه بسبب كل عنصر زمني . ورواية الغيرة ، التي كانت أكثر هذه الروايات جذرية ، تدور في حاضر مستمر . فهناك أربعة فصول من أصل سبعة تبدأ بكلمة « الآن » . وكان القلق بالطبع احدى طرق ادخال الزمن في عالم لازمني . إلا أنه كان يمكن لوصف هذا القلق ، وقد سبق لنا أن قلنا ذلك ، أن يظل ناقصاً لو لم يضف إليه الجانب الآخر من التجربة المعاشة الزمنية الذي لم يكن سوى مقابلة السلبي : الأمل (واقعياً ومبرراً أو وهمياً وخائباً) . تلك هي التيمة التي لم يفطن إليها معظم النقاد على الرغم من أنه لم يكن من الضرورة ، كما هو الأمر في الروايات تماماً ، البحث عنها على مستوى أعماق خارقة صعبة البلوغ وانما على مجرد مستوى القصة كما كانت تروى مباشرة في السنة الفائتة في ماريانباد . ان قصر ماريانباد الباروكي ، بعد نقله إلى السينما ، هو نفس عالم الفراغ والموت الذي لايمكن أن يحدث فيه شيء والذي تستسلم فيه لألعاب تفترض سلفاً أنه يمكن للاعب أن يخسر ، ولكن بعض اللاعبين فيه

يربح وبعضهم الآخر يخسر دوماً (على الرغم من أنه لاوجود لهذه الفئةالأخيرة في الفيلم)(١٢) والذي مايزال فيه كائنان يطرحان مع ذلك مشكلة الأمل . فالأمل والقلق ليسا سوى الجانبين الذاتيين لواقع مظهره الانطولوجي هو الزمن لافي بعده المستقبلي وانما في كل أبعاده ، وبشكل ضمني في بعده الماضي . ان مشكلة معرفة ما اذا كان قد حدث شيء أم لم يحدث في السنة الفائتة في ماريتباد هي ، على مستوى الحس السليم ، مشكلة اتفاق علاقات وشهادات وذكريات . وفي عالم روب – غرييه لايمكن لأي ذكرى ولا لاي شهادة أن تحسم أمراً في مشكلة معرفة ما إذا كان البطلان قد التقيا فعلا أم إذا كان ، على العكس لم يحدث في السنة الفائتة في ماريتباد أي شي سوى أحداث مزيفة خالية من الدلالة والزمنية ، مماثلة لكل ما يحدث في القصر كل لحظة . كما انه لايمكن أن تكون لأية صورة ولا لأي كعب حذاء مكسور ولا لأي ذكرى مشتركة عن طقس بارد بصورة استثنائية أهمية حاسمة . إن واقعة أن الرجل والمرأة قد التقيا أو أنهما لم يلتقيا في السنة الفائتة في ماريتباد تتعلق فقط بالطابع الحقيقي أو الوهمي للأمل الذي مايزال موجوداً في وعيهما والذي يؤلف واقعه مضمون الفيلم . فإن نجحا ، لافي ترك القصر فحسب ، وانما في العثور ، في مكان آخر (هو الحديقة في الفيلم) على حياة أصيلة ، حياة يمكن فيها للناس وللمشاعر الانسانية أن توجد بشكل واقعي كما يمكن فيها للأحداث أن تحدث ، فمن المؤكد اذ ذاك أنهما التقيا في ماريتباد . أما في الحالة المعاكسة ، فلن تغير الصور ولا الشهادات المتعذر دحضها شيئاً من حقيقة عدم وجود مثل هذا اللقاء . وروب – غرييه كاتب جذري إلى الحد الذي لايمكن معه أن يجهل أن حل مشكلة الفيلم لاتتوقف على ارادة البطلين فحسب وانما تتوقف في المقام الأول على طبيعة القصر وطبيعة الحديقة . وهذا ما اكتشفه علماء الاجتماع منذ زمن طويل بتأكيدهم الطابع التاريخي والاجتماعي للدلالة الموضوعية للحياة العاطفية والعقلية للأفراد.

وروب – غرييه هنا أيضاً ليس مجرد كاتب شمولي فحسب وانما هو أيضاً (وربما كان ذلك شيئاً واحداً) كاتب ذو أمانة تامة . فالجواب الذي يقدمه لنا على مرتين في نهاية الفيلم وكذلك في بدايته (وان لم يتنبه لذلك المشاهد الذي يرى الفيلم للمرة الأولى) جواب لا لبس فيه . ان البطلين قد فعلا أفضل ما يمكن للناس أن يفعلوه في المجتمع الذي نعيش فيه : لقد انطلقنا نحو عالم مختلف ، سوف يبحثان فيه عن الحياة دون أن يتمكنا من أن يتمثلا بوضوح (وهما يقولان

(١٢) ان اللاعبين الذين يخسرون لا يشكلون سوى الوجه الآخر لمن يربح كأنهم لا يملكون واقعاً خصوصياً . وفي ذلك كان روب – غرييه على حق ، إذ أن الذين يخسرون فعلياً في الحياة لا يستطيعون الدخول في الفيلم دون تحطيم وحدته .

ذلك بنفسيهما أثناء الفيلم) علام يمكن أن تقوم . لقد ذهبا إلى الحديقة التي كانا يأملان أن تكون بالنسبة لهما عالماً جديداً ، عالماً يستطيع فيه الناس أن يكونوا أنفسهم ؛ لكنهم لم يعثروا على شيء ، اذ لم تكن الحديقة ، شأنها شأن القصر ، سوى مقبرة .

« كان بستان هذا الفندق يشبه حديقة فرنسية : بلا أشجار ولا أزهار ولا أي نوع من النباتات ... وكانت الحصى والحجارة والرخام والخط المستقيم تميزها بأجواء صارمة وسطوح لاسر فيها ، وكان يبدو للوهلة الأولى أن من المستحيل أن يضيع المرء فيها ... للوهلة الأولى ... وعلى امتداد الممرات المستقيمة بين التماثيل ذات الحركات المجمدة والشواهد الصوانية حيث كنت الآن على وشك أن تضيع نفسك إلى الأبد ، في الليل الهادىء ، وحدك معي » .

إن مبدع روب — غرييه يطرح بطبيعة الحال كثيراً من المشكلات الأخرى ذات طابع استطيقي محض ، وهي مشكلات تخص في المقام الأول التعديلات التي فرضها المضمون على الشكل الروائي . ويبدو لنا مع ذلك أن هذا التحليل البسيط للمضمون المباشر لكتابات ناتالي ساروت وآلان روب — غرييه ولفيلم هذا الاخير كما أتينا على تحليله يكفي أساساً لبيان أننا اذا كنا نعطي لكلمة الواقعية معنى ابداع عالم مماثل لبنية البنية الجوهرية للواقع الاجتماعي الذي كان المبدع قد كتب فيه ، فإن ناتالي ساروت وآلان روب — غرييه يعدان من بين أكثر الكتاب الواقعيين جذرية في الادب الفرنسي المعاصر .

«عناقيد الغضب»

رواية عظيمة تقريباً

د. منير صلاحي الأصبحي

تعتبر رواية «عناقيد الغضب» The Grapes of wrath لجون ستاينبك واحدة من أكثر الروايات الأمريكية التي تنتقد على نحو صريح مباشر المجتمع الأمريكي وأسسه الاقتصادية نجاحاً من الناحية المادية، ان لم نقل أنجحها على الإطلاق. ففي العام الذي نشرت فيه (عام ١٩٣٩) بيعت منها نسخ تفوق في عددها ما بيع من أية رواية أخرى (٤٣٠ ألف نسخة) واحتلت مكاناً ثابتاً في قائمة أكثر الروايات مبيعاً في العام التالي، ثم استمرت بعد ذلك في الانتشار الواسع. وكذلك فقد حازت على جائزة الكتاب القومي وجائزة بوليتزر للفن القصصي.

ورغم استمرار المحاولات النقدية الأمريكية لتطويق نجاح هذه الرواية وذلك بواسطة تجاهل مقصدها ومحاولة تصويرها بأنها ليست سوى رواية احتجاج على ظروف بائسة عانتها فئة معينة من الأمريكيين في ظروف اقتصادية غير عادية، فإنها تبقى من أعنف الروايات في مهاجمة النظام الرأسمالي الأمريكي بأكمله من وجهة نظر اشتراكية ثورية ومن أكثر هذه الروايات زخماً. ففي هذه الرواية يتحول قوادو شتاينبك ومتشردوه، الذين هم في نفس الوقت — على حد تعبيره — ملائكة وقديسون، والذين نقابلهم في بعض رواياته الأخرى مثل «مراعي السماء» و «هضبة تورتيا» و «خميس عذب» وتدفعنا غرائبهم وطرائفهم إلى

الابتسام – يتحولون من متوحشين أبرياء » إلى مادة الثورة على النظام الاستغلالي . ولا يقلل تحول الكاتب فيما بعد عن الخط الذي تمثله هذه الرواية من قيمة الهجوم العنيف فيها على ذلك النظام .

وتحكي الرواية قصة « الأوكيين » The Oakies ، وهم مزارعون يعملون على أساس المحاصصة في أوكلاهوما وكانساس وولايات أخرى في الغرب الأوسط الأمريكي ، وتجبرهم المصالح الاحتكارية على ترك أراضيهم والهجرة بالآلاف إلى ولاية كاليفورنيا للعمل فيها كعمال زراعيين ، وما يجذبهم إلى كاليفورنيا هو إعلانات ومنشورات تنتشر بينهم وتصورها بأنها أرض « الحليب والعسل » ، « الأرض الموعودة » ، ولكنهم حين يصلون هناك يكتشفون أنهم لن يكونوا سوى ضحية لاستغلال أقسى وأبشع . ويمثل « الأوكيون » في الرواية أفراد عائلة جود ، وبشكل خاص توم جود ، بطل الرواية ، الذي يتحول عند نهاية القصة إلى ثائر يحارب النظام الذي قاست منه أسرته وأمثالها من المهاجرين .

وبذلك يمكن تسمية الرواية « ملحمة الأوكيين » ، وقد استعمل عدد من النقاد هذه التسمية أو ما يشابهها في حديثهم عن الرواية . فقد وصف لويس كرونتبرغر – مثلا – الرواية في مراجعة له نشرتها مجلة « الأمة » Nation (١) بأنها « تاريخ هومري لهجرة عظيمة » .

وفي الواقع يمكن ملاحظة بعض أوجه الشبه بين « عناقيد الغضب » والملحمات الكلاسيكية ، وبشكل خاص الإلياذة والإنياذة ، فالملحمة تصور حدثاً بطولياً ذا أبعاد قومية أو دينية أو إنسانية . وعلى الرغم من أن ستاينبك لايصور صراعاً بين شعبين على النحو الذي نجده في ملحمي هومر وفيرجيل ، فمن الواضح أن الصراع في « عناقيد الغضب » هو صراع بطولي على مستوى قومي . ويتبدى ذلك في العدو الذي يواجهه « الأوكيون » ، فهذا العدو يتألف من المصارف وملاك الأراضي في أوكلاهوما وكاليفورنيا وسائقي التراكتورات وبائعي السيارات المستعملة وبائعي السيارات المهملة وبائعي قطع الغيار وأصحاب محطات البنزين والقانون ورجال الشرطة والحكومة ككل . هؤلاء هم الفئات التي يتعرض « الأوكيون » للاحتكاك بها ، ولابد أن هناك فئات عديدة أخرى . ومن الواضح من هذه القائمة أن العدو يتمثل في المؤسسة الرأسمالية بأكملها وفي كل المنتمين لها (سائقي التراكتورات والشرطة) ، وليس في فئة معينة فقط .

(١) المراجع مدرجة بتفصيل في قائمة المراجع المنشورة في نهاية البحث . أما أرقام الصفحات المتضمنة ضمن البحث فإنها تشير إلى الرواية نفسها .

ولما كان الاستغلال البشع لاينحصر في أمة دون غيرها ، فإنه كموضوع رئيسي في الرواية يعطيها صبغة إنسانية شمولية تليق بعمل ذي صفة ملحمية . وكذلك فإن هناك مستوى دينياً يمكن تفسير الأحداث على أساسه وسيرد بحثه بشيء من التفصيل فيما بعد .

وبذلك نجد أن « عناقيد الغضب » تتخذ الأبعاد الملحمية القومية والدينية والإنسانية معاً ، ويسبغ ذلك طابعاً ملحمياً واضحاً عليها . هذا الطابع هو أحد العناصر التي تعمل جاهدة لجعل رواية ستاينبك رواية عظيمة . ويكتسب هذا الشبه بين الرواية وبين التراث الملحمي غنى أكبر من وجود أوجه أخرى له قد لاتكون في نفس الأهمية ولكنها تساهم في تثبيت الطابع الملحمي . وأهم أوجه الشبه الأخرى هذه « الكاتالوغات » و « التنبؤات » .

فالكاتالوغات « شائعة في معظم الملاحم الأولى في جميع أنحاء العالم » .(٢) والكاتالوغ هو سرد عدد كبير نسبياً من التفاصيل ذات الطبيعة الواحدة ، وهو يستخدم إما كوسيلة إخبارية أو كوسيلة تزيينية . ونجد عدة كاتالوغات في إلياذة هومر ، لعل أشهرها كاتالوغ السفن ، حيث يذكر هومر اسم كل بطل من الاغريق وأصله الجغرافي ويروي حادثة تتعلق به أو بمواطنه ثم يورد عدد السفن التي جاء بها هذا البطل إلى طروادة . ويحتل هذا الكاتالوغ عدة صفحات . وكذلك نجد كاتالوغاً مشابهاً في الأنياذة ، يعطي فيرجيل فيه قائمة بالجيوش المتحالف ضد أنياس والطروادبين . ورغم أن الكاتالوغات موجودة في بعض الروايات الحديثة ، مثل قوائم أسماء الأمكنة في رواية لوليتا لفلاديمير نابوكوف وفي U. S. A لجون دس پاسوس ، ولكن تبقى هذه الكاتالوغات عنصراً غريباً عن معظم الأدب الحديث (٣) .

ولكننا نجد هذا العنصر في « عناقيد الغضب » ، وذلك بشكل خاص في الفصل الثاني عشر ، حيث يورد ستاينبك قائمة بأسماء البلدان الصغيرة والمدن والروايات التي يمر الطريق رقم ٦٦ وفروعه عبرها . (ص ١٠٣ — ١٠٤) . ويقوم هذا الكاتالوغ بوظيفة أكبر من مجرد الإخبار والتزيين ، فهو يتضافر مع عناصر أخرى في الرواية لإسباغ صفة الواقعية على الحدث الروائي ولإظهار مدى ضخامة « مشكلة » اللاجئين « الأوكيين » ..

والتنبؤات هي عنصر آخر من عناصر الملحمة . فالعرافون ووسطاء الوحي الالهي ،

---

(٢) Beye ، ص ٨٩ .

(٣) نفس المصدر السابق ، ص ٨٩ و ٩٠ .

موجودون بكثرة في الملاحم الكبرى ، وهم وسيلة للتلميح أو التصريح عما سيجري لأبطال الملحمة في المستقبل ، والأمثلة على ذلك كثيرة جداً . وفي « عناقيد الغضب » تتخذ التنبؤات أحد شكلين . فهي إما على شكل مخاوف تعبر الشخصيات عنها ، كما هي الحال بالنسبة للأم التي تعلق لدى سماعها عن خيرات كاليفورنيا قائلة : « انني خائفة من أشياء حسنة بهذا الشكل . ليست لدي الثقة . انني أخاف أن هناك شيئاً ما يتعلق بها ليس حسناً » (ص ٧٩) . وكذلك يعبر جيم كيسي عن مخاوف مماثلة (ص ١٥٣) . أو هي على شكل تحذيرات غير مباشرة تصدر عن شخصيات ثانوية . ومثالا على ذلك يتساءل سائق السيارة الذي يركب معه توم جود في أول الرواية في الطريق عودته الى أهله من السجن حين يخبره توم أن والده يعمل كمزارع بالمحاصصة ، يتساءل السائق كيف أن الغبار أوالتراكتورات لم تجبر والد توم على ترك أرضه بعد (ص ٧) . ويكتشف توم لدى وصوله أن أهله على وشك الرحيل بالفعل بسبب « الغبار والتركتورات » .

ومن العناصر الأخرى التي تسير الرواية نحو العظمة الفنية صدق ستاينبك في تصويره لمأساة « الأوكيين » وواقعيته في رسم الاحداث والشخصيات . ففي كتابه « عالم جون ستاينبك الواسع » ، يورد بيتر ليسكا عدة أدلة على صدق ستاينبك في تصويره (٤) . منها أن ستاينبك نفسه قام برحلة من أوكلاهوما الى كاليفورنيا بصحبة بعض المهاجرين وقام بالعمل معهم في قطف القطن والفواكه وعاش في « القرى » البائسة التي يقيمها هؤلاء المهاجرون قرب أمكنة عملهم . ومن هذه الوقائع أيضاً أن ستاينبك قام باعداد «ريبورتاج » عن حياة المهاجرين وظروفهم المعيشية لمجلة لايف ، مرفقاً بالصور ، وذلك بعد صدور الرواية . وقد أراد جون هيوستن قبل اخراج الفيلم المستمد من رواية ستاينبك والذي قام هنري فوندا ببطولة أن يتحقق بنفسه من صدق الأحداث التي يصورها ستاينبك ، فأرسل فأرسل بعض المخبرين الخاصين لتفقد وضع المهاجرين . وقد كتب هؤلاء في تقاريرهم أن ستاينبك لم يبالغ في تصوير الظروف التي كان المهاجرون يعيشون فيها ، بل أن هذهالظروف أسوأ من الصورة المعطاة في « عناقيد الغضب » .

ونلاحظ الواقعية في تصوير ستاينبك من خلال اللوحة المكتملة التي يرسمها لأسلوب « الأوكيين » في الحياة . فهو لايصور مشاعر الشخصيات وردود فعلهم فحسب ، بل يصور

(٤) ، ص ١٥٠ .

الجوانب المختلفة لحياة المهاجرين قبل هجرتهم وبعدها . ويمكن أن تتخذ من فولكلور « الأوركين » مثالا على ذلك .

فالمادة الفولكلورية متوفرة على نطاق واسع في « عناقيد الغضب » . هناك مثلا القصص التي يتناقلها الناس فيما بينهم . ومن هذه القصص الخاصة بفئة محدودة كأبناء المهنة الواحدة مثلا ، ومثال ذلك القصة الخاصة بالسائق الذي يسلي نفسه أثناء عمله بنظم «قصائد شعرية» . وكذلك هناك القصص المتوارثة ضمن عائلة معينة ، مثل قصة قيام الجد في عائلة جود بسرقة البيت الذي كان يعيش فيه في أوكلاهوما (ص ٢٣) . وهناك قصص شائعة بين جميع «الأوركين » مثل قصة ويلي فيلي (ص ٦١) .

وكذلك نجد في الرواية بعض الأمثال والنكت الشعبية (ص ١٢٥) و ١٣٨ مثلا) . ونجد أيضاً أنواعاً مختلفة من الأغاني الشائعة بين المهاجرين : الأغاني الدينية ، الأغاني الخاصة بالأطفال ساعة النوم ، الأغاني المصاحبة للرقصات ، الأغاني التي يغنيها المرء لتسلية نفسه (ص ١٣٨ ، ١٦٦ ، ١٧٧ ، ٣٠٤) . وبالإضافة إلى ذلك هناك أمثال عن الطب الشعبي (حين يعمد توم جود مثلا إلى محاولة إيقاف نزيف يده وذلك بالبول على الطين ثم وضع شيء منه على يده ، ص ١٥٢) وعن المعتقدات الشعبية (حين تقوم السيدة ويزلايت بوضع سكين تحت فراش روز أف شارون أثناء معاناتها الطلق ، (ص ٣٩١) . بالاضافة إلى أمثلة عديدة أخرى عن دور الفولكلور في حياة المهاجرين ، ولعل من أطرفها مشهد اجتماع أفراد عائلة جود قبيل الرحيل في القسم الأول من الرواية (ص ٨٧ — ٩١) .

جميع هذه الأمثلة توحي بالواقعية المستخدمة في الرواية ، وإذا كانت الواقعية ليست فضيلة بحد ذاتها ، فلا بد أنها فعالة إلى حد كبير في رواية من نوع « عناقيد الغضب » ، أي في رواية ذات هدف ثوري واجتماعي احتجاجي واضح .

ويغني ستاينبك روايته باستخدام رموز ذات مغزى ديني تذكرنا باستخدام هومر وفيرجيل للأساطير الدينية في ملاحمهما . هذه الرموز الدينية ترتفع بمعنى الرواية وتزيد من شموليتها الإنسانية من جهة ومن أهمية مأساة الاستغلال التي تصورها من جهة أخرى .

وترتبط الكثير من هذه الرموز الدينية بشخصية الواعظ جيم كيسي ، الذي يصاحب

آل جود في رحلتهم إلى كاليفورنيا . فحياة جون كيسي منذ بداية ظهوره في الرواية حتى وفاته توازي تماماً حياة المسيح . فهو « يظهر في الكتاب بعد فترة من العزلة في البراري بغرض التأمل » (٥) . ويقوده تأمله إلى رفض الدين الشائع القبول والبحث عما يقوم مقام هذا الدين (٦) .وهوينادي بالحب : « ماهي هذه الدعوة ، هذه الروح ؟ . . . إنها الحب . إنني أحب الناس لدرجة أنني أوشك على الانفجار أحياناً » (ص ١٩) . وفيما بعد يقدم كيسي نفسه قرباناً في سبيل الناس الذين يحبهم ، وذلك أولا بالتطوع للذهاب إلى السجن بدلا عن توم جود ، وثانياً بالموت أثناء قيامه بإرشاد تابعيه إلى الطريق الصحيح ، طريق الثورة ، ويتابع أحد أتباعه – توم جود – حمل رسالته بعد موته . كل هذا الشبه بين حياة كيسي وسيرة المسيح يؤكده التماثل في الأحرف الأولى من أسميهما J. C. هما الحرفان الأولان من اسم كيسي Jim casy ومن اسم السيد المسيح بالانكليزية .

ومن أهم الرموز الأخرى في الكتاب الرمز المتضمن في مشهده الأخير ، حيث تقوم روز أوشارون بإعطاء الحياة إلى رجل أضناه الجوع وذلك بواسطة إرضاعه حليبها بعد أن مات طفلها أثناء الولادة . فهذا رمز آخر يشير إلى الكتاب المقدس ، فهو :

الرمز الأعلى للدين المسيحي ، الذي يحيي البروتستانت ذكراه في التناول والكاثوليك في القداس . فروز أو شارون تعطي ما أعطاه المسيح ، ما تلقاه كذكرى له . ويتحقق السر النبائي للدين المسيحي حين ترفع روز أوشارون بصرها إلى الأعلى « وعبر المخزن ، وتلتقي شفتاها ، وتبتسم ابتسامة غامضة . » إنها تبتسم بغموض لأن ماكان من قبل غامضاً أصبح الآن معرفة . هذا هو جسدي،تقول روز أوشارون ، وتصبح البعث والحياة . إن روز أوشارون واهبة الحياة ترمز إلى الجانب البهيّ من المسيح . . . . فيها يغدو الموت والحياة شيئاً واحداً ومن خلالها تنتصر الحياة على الموت . (٧)

وليست هذه هي الرموز الدينية الوحيدة في الكتاب ، ولكنها كافية . كأمثلة وتتضافر

---

(٥) Shockiey ، ص ٨٧ .

(٦) نفس المصدر ، ص ٨٨ .

(٧) نفس المصدر ، ص ٨٩ .

جميعاً هذه الرموز لإعطاء فكرة دينية معينة ، تتلخص في أن الدين كما هو موجود ضمن العالم الرأسمالي لم يعد صالحاً لحاجات الشعب ، ويتضح هذا في ترك جيم كيسي لوظيفته كواعظ قبل بدء الرواية وفي انعزاله وتأمله ، وكذلك في إعراض « الأوكيين » العملي عن الكنيسة . والدين الجديد الذي يتوصل جيم كيسي إليه هو في ضرورة استمرار الشعب رغم كل قوى المعادية لوجوده ، ويمثل عمل روز أوشارون في إرضاعها للعجوز الجائع الحرص على هذه الاستمرارية ، وطريق البقاء والاستمرار الذي يكتشفه كيسي هو طريق المقاومة والتضحية طريق الثورة ، وتنبئ الرواية على وعد باستمرار هذه الثورة يمثله توم جود .

ويصاحب التطور الذي يؤدي إلى طريق الثورة هذا ، تحول مستمر من الروح الفردية والقبلية إلى الروح الجماعية . من « الأنا » إلى « النحن » . إذ يدرك المهاجرون أنه ليس بإمكانهم الاستمرار كوحدات منعزلة وأن عليهم إذا ماأرادوا النضال أن يتحدوا معاً ، وإلا أصبحوا عرضة للتفكك والزوال . وعائلة جود هي مثال هذا التحول . ففي أوكلاهوما العائلة والروح القبلية هي كل شيء في حياة أفرادها ، ولكن ماان ينطلق آل جود في طريقهم إلى كاليفورنيا حتى تبدأ العائلة بالتفكك لتنتهي إلى الذوبان في الروح الجماعية . فالجد يموت قبل اجتيازهم حدود أو كلاهوما ، وتموت الجدة قبل وصولهم إلى كاليفورنيا . ويهجر نوا (نوح) أكبر الاخوة – الأسرة في بداية مغامراتها ، وكذلك يهرب زوج الاخت روز أوشارون حين تبدأ المصاعب في كاليفورنيا ، ويولد طفلها ميتاً ، ويزمع آل على الزواج والرحيل في أقرب فرصة ممكنة ، ويصبح توم – بطل الرواية – طريداً ثائراً ، ويأتي فعل روز أوشارون في المشهد الأخير لتأكيد التحول إلى روح الجماعة ، فالرجل الذي تهبه حليبها غريب لايمت إلى العائلة بصلة ، ولكن يجمع بينه وبين أفرادها انتماؤهم جميعاً إلى الطبقة المستغلة المضطهدة .

هناك إذن عدة عوامل تدني رواية ستاينبك وتدفعها إلى أن تكون رواية عظيمة تستحق مكانة بين الأعمال الروائية الخالدة ، لكن « عناقيد الغضب » لاتحتل هذه المكانة ، فهي تعاني من بضعة عيوب تعيقها عن الوصول إليها . إنها رواية تعد بالكثير وتكاد أن تحقق وعودها لولا هذه العيوب .

من هذه العيوب انعدام الموضوعية في الرواية . فالصراع بين الطبقتين المستغلة والمستغلة مرسوم بالأسود والأبيض ، ودون أية مسحة رمادية فيه . ونحن نجد أن المهاجرين يقدمون في صورة مثالية لا تشعر بها أية شائبة . فعلى الرغم من أن توم جود يعود من السجن في أول

الرواية حيث أمضى حكماً صدر عليه لتسببه في موت رجل ، فإن جريمته تبرر في الرواية من قبله ، اذ يكرر أنه سيفعل من جديد ما كان قد فعله لو وجد نفسه في نفس الظروف (ص ٢١ و ١٥٦) ، ومن قبل أسرته التي تعتقد أنه « قام بفعل ماكان أي رجل آخر ليفعله لو كان في محله » (ص ٤٦ و ١٢٣) . وهو إن كان صلباً فإنه لالوم في شخصيته ، وقد كان بهذا الشكل منذ طفولته كما يشهد كيسي (ص ٣٦) . وقلبه ملء بالعطف ، فهو يرفض أن يفاجيء أمه لدى عودته من السجن قبل الموعد المحدد خشية عليها (ص٦٣) وهو يلوم أخاه آل حين يدهس أفعى في الطريق ، لأنها أفعى غير مؤذية (ص ٣٢٥) . وعائلته تتصف بصفات مشابهة ، وهم رغم فقرهم أعزاء النفس لايقبلون الصدقة حتى من صديق وحتى في وقت المحنة (ص ١٩٥) . هذه المثالية ، تنقد كفاح « الأوكيين » قدراً من بطوليته ، إذ أن المفترض في الملائكة أن يكافحوا الشر . وإذا عدنا إلى هومر فإننا نرى أن الأعمال الخارقة التي يقوم بها آلهته لاتثير اعجابنا ، ولكن أعمال أبطال أخيل وهكتور وباريس هي التي تلهب مخيلتنا ، وذلك بالضبط لأنهم بشر ولهم عيوبهم ونواقصهم البشرية التي لانجدها لدى أفراد عائلة جود .

ومن الأشكال الأخرى لانعدام الموضوعية في عناقيد « الغضب » ، تدخل ستاينبك المستمر لمخاطبة القارىء على نحو مباشر . وكان ستاينبك قد نشر قبل كتابة الرواية كراساً يحتوي مجموعة من المقالات تتضمن آراءه وملاحظاته حول مشكلة « الأوكيين » تحت عنوان دمهم قوي . وقد استخدم بعض ماتضمنه هذا الكراس في الرواية (٨) .ولكن ماقد يكون ممتازاً في مقالة . قد يكون شديد الضرر من الناحية الفنية في رواية . ويقول ليسكا أنه « ليس هناك اكثر من نصف دزينة من الفقرات الموجهة إلى القارىء والصادرة عن المؤلف »(٩)، أي من الفقرات التي يخاطب المؤلف فيها القارىء على نحو مباشر . ولكن نصف دزينة قدر كاف لتشويه الرواية فنياً .

ولنتفحص إحدى هذه الفقرات :

إذا استطعت أنت يا من تملك الأشياء التي لا بد للشعب من الحصول عليها أن تفهم هذا ، فقد تبقي على نفسك . إذا استطعت أن تفرق بين

(٨) Fontenrose ، ص ٦٧ .

(٩) Lisca ، ص ١٦٠ .

الأسباب والنتائج ، إذا عرفت أن بين وماركس وجفرسن ولينين هم نتائج ، وليسوا أسباباً ، فقد تبقى على قيد الحياة . ولكن لا يمكنك معرفة هذا . لأن صفة التملك تجمدك إلى الأبد في « الأنا » وتعزلك إلى الأبد عن « النحن » .
(ص ١٣٤)

هنا يبدو أن ستاينبك غير واثق من تمكن الحدث في روايته من حمل رسالتها إلى القارىء ، لذا فهو يتدخل للتأكد من فهم القارىء لمغزى الرواية . ونحن هنا أمام احتمالين . الأول — وهو الواقع — أن حدث الرواية كاف تماماً للاضطلاع ضمن شكله الفني بالمهمة المتوقعة منه ، وهذا يجعل تدخل الكاتب المباشر استخفافاً بالقارىء من جهة وتشويهاً لذلك الشكل الفني من جهة أخرى . والاحتمال الثاني هو أن حدث الرواية غير كاف لذا يجد الكاتب نفسه مضطراً للتدخل ؛ وفي هذا لو كان صحيحاً اعتراف من الكاتب بقصوره الفني . إن هذا التدخل المباشر ، يضفي على هذه الرواية الإنسانية الثورية صبغة دعاوية تقلل من مستواها .

لقد قيل أن الفرصة لم تتح أمام « عناقيد الغضب » لكي تقيم كعمل روائي (١٠) . ولكن حماس ستاينبك السياسي والاجتماعي الذي دفعه إلى مثل هذه التدخلات المباشرة وإلى مقاطع أخرى يخرج فيها عن حدود الرواية ويضمنها تأملاته الفكرية هي المسؤولة إلى حد ما عن جعل « عناقيد الغضب » عرضة للهجوم كعمل دعاوي ، بدلا من التقييم كعمل فني . وإذا كان الهجوم الذي تعرضت له حاقداً ومغرضاً ، فقد كان بإمكان ستاينبك قطع الطريق عليه الى حد ما بالامتناع عن هذه التدخلات والتأملات وبالمحافظة على تماسك الشكل الفني للرواية .

ونحن نلحظ الفارق بين هذه المقاطع وبين الحالات التي يترك ستاينبك فيها أحداثه تتكلم دون تدخل منه . خذ مثلا على ذلك القطعة الرائعة التي نجد فيها بائع السيارات المستعملة منهمكاً في عمله إلى درجة أنه لايجد الفرصة للذهاب لتناول غدائه : « يالمسيح ، ليس لدي وقت لكي أذهب وآكل . جو ، أرسل أحد الأولاد لشراء سندويشة هامبرغر . » (ص٥٦). هذا البائع منهمك في جمع النقود الى درجة أنه لايجد الوقت للاستمتاع بها . ولابد أن هذه

(١٠) Lisca ، ص ١٤٨ .

الصورة ستتقابل في ذهن القارىء مع صورة آل جو وهم يجلسون لتناول وجباتهم ، مستمتعين بها مهما كانت حالهم وظروفهم .

هذه العيوب وبعض العيوب الأخرى في الرواية هي التي تحول بين « عناقيد الغضب » وبين المنزلة التي كان يمكن أن تحتلها كواحدة من أعظم روايات القرن العشرين .

المراجـع

1. **Beye, Charles Rowan., The Iliad, The Odessey, and the Epic Iradition.** New york, **1966.**
2. **Fontenrose, Joseph. John Steinbeck : An Introduction and Interpretation. New york, 1963.**
3. **Kronenberger, Louis. A Review of The Grapes of Wrath. Nation, vol. 148 (April 15, 1939), pp. 440 - 41.**
4. **Lisca, Peter. The Wide World of John Stseinbeck, New Jersey, 1958.**
5. **Shockley, Martin. « Christian Symbolism in The Grapes of Wrath. » College English, vol. 18 (1956).**
6. **Steinbeck. The Grapes of Wrath New york : Bantam Books, 1954.**

• • •

إلى سلفادور دالي

عبدالوهاب البياتي

- ١ -

مملكة السنبلة الآن أراها في كتب الشعراء الفاشيين وفي موسوعات
البوليس السري : تُعرى ، تُنهب ، يُعدم فيها الشعراء ويُنفى
عنها الحكماء .

يسمل «دالي» في ريشته عينيها ، يرقص فوق قبور المنفيين الموتى
يرسم في ذيل غرابٍ :جنرالاً من ورقٍ تحمله الريح إلى مزبلة التاريخ
يصفي الموتُ حسابَ الإرهاب ، يُعري أقنعة الفن العدمي
الصاعد من أرض خرافات الفاشية بعد أفول شموس عصور
الإيمان وموت الثورات .
ونعيب الغربان

فوق الأنهار الوحشية بعد الطوفان
يصعد للقمة وحش في عينيْ إنسان
يرسم في ريشته جنرالاً فوق خرائب « وبلباو » .

— ٢ —

شعرور متشـــاعر
يطلق في الفجر النار على شاعر
ونويقـــد
مأجور وعميل للبوليس السري ، رخيص ، في ذيل غرابٍ ، يشرب نخب شويعر
في ملكوت القاشية تحت سماء خريفٍ عاقر .

— ٣ —

يدخل « دالي » من باب خلفيٍ مأخوذاً بحريق الألوان
وخداع المجد المزهو بريش الطاووس الفنان

— ٤ —

نار الشعراء تهاجر
ويموت الشـــاعر
لكن الأرض تدور وتبقى شاهد نفيٍ للجدل الدائر
في هذا العصر المسكون بصوت الرعـــد الماطر

— ٥ —

« لوركا » يغتسل الآن بينبوع الدمْ
« ماشادو » تحت رماد النجم
يكتب في حجر بركانيٍ أبياتاً فوق الثلج
« ألبرتي » في روما يستقبل في غرفته ، الآن ، الشمس
« بيكاسو » كالطفل ينام سعيداً ، منتظراً خاتمة الدرس

— ٦ —

في قصر الحمراء
يبحث عبد الله
عن سيفٍ خبأه بين دواوين الشعراء
يبكي حباً ضاع
ينتظر الشمس ، لتشرق ثانية فوق الحمراء

— ٧ —

لا غالب إلا الله

— ٨ —

مملكة السنبلة الآن أراها تنهض بعد الموتْ
يتحرك في داخلها شعب كخلية نحلْ
تنهض « جورنيكا » من تحت الأنقاض ، تُصفي ميراث القتلْ

— ٩ —

تمضي مركبة نحو المريخ
تسقط آخر أوراق التين
عن عورة (دالي ـ سوبلجستين)

— ١٠ —

يضرب عرافُ أشجار الزيتون بسيف الريح
يجرح خد الأرض العطشى ، فتدور على قرنيْ ثورٍ مذبوح .
يأتي عصر يُوضع فيه الشعراء الفاشيون
في أقفاصٍ ، ويُطاف بهم في السوق
ويُنادى بقوافي الكذب الموزون عليهم وبحر المرفوع .
تسقط فوق كتاب البحر المفتوح
قطرةُ نور
من أبعد نجم ، يخرج « لوركا » من بين الأقواس
كالريح فتياً ، كالنـــار
يستقبل « ألبرتي » : عبد الله
في قصر الحمراء
يتلاقى كل العشاق الفقراء .

عبد الوهاب البياتي
١٩٧٥/١٢/١

قصائد

من الشعر الانكليزي المعاصر

ترجمة : صلاح فائق

تهتمُّ مجلة Brekthru التي تصورُ في لندن منذ عشر سنوات بكتابات الشعراء الشبان بشكل خاص . ولقد صدر عنها اخيراً عدد مكرسٌ لقصائد ١٢٠ شاعراً بريطانياً يكتبون لأول مرة . والمعروف عن هذه المجلة ان العديد من الشعراء قد عُرفوا عن طريقها . ومنهم بعض الشعراء المعروفين الآن على النطاق العالمي . ننشرُ هنا قسماً من هذه القصائد ونأملُ ان ننشر القسم الباقي في كتاب خاص .

مطاردة الساحرات

هاري توماس

قال السرجنت ،
(انه مشكوكٌ في امره)
انه يتسلّم رسائل ،
من اصدقاء أجانب .

* * *

الى صاموئيل بيكيت

د . و . بيجس

استراجون ، فلاديمير ، بوزو ، ولاكي
كانوا ينظرون باتجاه آخر
عندما جاء غودو
وقفَ هناك دون أن يُلاحظ
وقرر عدم البقاء .

وجودي ميت

دافيد . جي . لي .

وانا مضطجعٌ في الفراش ذات يوم
وهذا الغبي
بأنابيب في أذنيه
يلصقُ شيئاً بارداً على صدري
ويقولُ شيئاً لاأستطيعُ سماعه .

لابد انه أمرٌ مهم
لأن الناس بدأوا يغسلونني حالاً
كأنني مقمّل .
لكني لم أهتم
لأنني كسولٌ للغاية لأغسل نفسي .

ولا أقولُ شيئاً
عندما يصلُ أقربائي
ويبدأون بالبكاء .
لكن بعدئذ يضعونني في هذا الصندوق
انهُ مريح
لكنهُ ليسَ واسعاً تماماً
وعندما يضعون الغطاء
اقلقُ ، وأصرخُ :
« افتحوا الصندوق »
لكني لاأستطيع
وهذا الشاب في أعلى السلّم يقول :
كيف اخترتَ هذا الاختيار ؟ .
وأنا لم أختر

* * *

تحليل مختصر لنظرية داروين

ريتشارد كابستي

للكرسي أربع أرجل
الانسان لهُ اثنتان
لو كان يملكُ أية زيادة
كان سيوضعُ في حديقةٍ للحيوان .

* * *

ذكريات اكثر عن الحرب

ارنست . او . آديس .

لم أدع ابداً انني كنتُ
السبب في احراز النصر ،
حقاً ، لقد أجلتُ تصفية
الكولونيل العجوز المسكين لبضع ثوان .

* * *

أحجار

جون بورتر

احجار واشياء اخرى
تعيش كتماثيل للكلمات
مادحةً صوت التصاق
الحصى الصغيرة الملساء .
في البدء
هل كانت الكلمة
أم الســـاحل ؟

* * *

فتاة الظل

دافيد جون ستانلاند

فتاة الظل في معطف بلاستيكي
واقفة هناك بجوار البحر الاخضر المتموج

اعطني يدكِ ايتها الفتاة الصغيرة
سأقودكِ إلى ارض العاطفة في قلبي
قد نتجولُ ذات مرة .
تعالي إلمسي النجوم .
ألا تستطيعين أن تري ؟
انها تلمعُ ، مثلما يلمعُ الماسُ
هامسةً في عينيكِ .

* * *

عرض

د . ل. بارنسلي :

هناك العديدُ من الاماكن
لم أكن فيها أبداً
هــي
واحدةٌ منها
هناك العديد من الاشياء
لم اشاهدها أبداً
من
اذن
يريدُ الرحيل ؟

* *

سينين

كريستينا . أ . سافاج .

هل تذكر ذلك اليوم في سينين
عندما حملت كل الصخور قطرات
مــاء ضاحلــك ؟
حيث داعبنا السمكة
وضايقنا السراطين
التي اختبأت في ظلال شعرية
بينما أرسل فويبوس أقواس قزح
مندفعة أمام الأثير
مثــل سفنٍ جميلة في بحــر غير مقلوب ؟
قل انك تتذكــــر .

هبة

جيرالد انكلاند .

حصلتُ على بعض المناديل الورقية مع قهوتي يوم أمس
وفي الاسبوع الماضي حصلتُ على منديل ســيدة ،
قهوة جاهزة —
هل ذلك سبب اصابتي بالرشح ؟

* * *

الشيء الحقيقي

طوني راند .

على جدران بلاستيكية
آلهةٌ بلاستيكية
تنقشُ عقيدتَها البلاستيكية .
فوق أشجار عيــد الميلاد
نجــوم عيد الميلاد
تلألو رعبٍ بلاستيكي .
اللعب البلاستيكية
التي لعبتُ بها
تحولتْ إلى غموض .
الفتاة البلاستيكية
التي لعبتُ معها
أجهضتْ لتوها .

حقيقة ؟

بيتر . ت . سميث .

« لايمكنُ ان تكونَ أخلاقياً
وغنيـــــاً »
قيل لي .

كانت جيوبي فارغة .
هل من الممكن ان تكون هذه حقيقة ؟

* * *

بدائي

باتر يشيا مارتلاند .

انني وحدي مع الخوف
في عالم خائف
انني أحمل خوفي
والخطرُ يطوف خلسةً بالقرب
من غابة قبيلتي
انني انتظرُ الغارة المرعبة .

* * *

ساعة

روبرت . ج . بيكلر .

تلك الساعة تراقبني :
تقفُ بسكون
تحت قمةٍ زجاجية
على ثلاثة اعمدة خضراء
مشـــلٍ وحـــشٍ
وبلزي مصغر .
متى ستدق ؟

* * *

أغنية حفار القبور

آرثر . د . كليج

كم من الحيوات حملتُ في يديّ
بهذه الارض ، بهذه الجذور ، بهذه الزهرة
أثناء تنفسي ، اثناء تحركي ، اثناء تطوافي
على موتى الرجال الآخرين
اثناء قراءتي ، اثناء حديثي ، اثناء غنائي
كم من الرجال
هذه الارض غابة ومستنقع
حيث وقفت شجرة البلوط
حيث شرب الذئب الرمادي
حيث قُتلَ الدب العظيم
هذا التل الاجرد
حيث ارتفعت البيوت
هذه الزهرة كانت ضــارة
إلى أن اختارها شخصٌ مــا
واقتلعها .
انا في يديّ عشرة آلاف حيــاة
موتهم في حديثي

صلوا للرخـــاء
جلسوا فوق لساني
استخلعوا مجرفتي .

* * *

هيروشيما

جون بيتمسون .

هيروشيما
فتاة جميلة تمارسُ الجنـــس
بعيداً عن جسدها
هيروشيما
صحراء المطر الأسود
وعلى نهركِ يعيش الموتى
هيروشيما
ملجأ في اذرع مطوبـــــة
عندما تصافحُ اعيننا الشمس
هيروشيما
محيط انسان
احترق في خطوات ضععهِ
هيروشيما

الغيمة المرتفعة
نرتديها
ولا نستطيعُ تركها على الكرسي
عندما نذهبُ إلى الفراش
هيروشيما .

* * *

◦ رجلٌ ◦ في ◦ مدار ◦

د ◦ و ◦ بيجس ◦

* * *

اثناء ◦ الشحن ◦ من
الارض ◦ الى ◦ ڤينوس ◦ وفـــد
عنـا ◦ رجل ◦ دون ◦ بذلـــة ◦ فضـــاء
لم ◦ يكن ◦ من المفرح ◦ النظر ◦ إليه ◦ دائراً
في ◦ محور ◦ الشمس ◦ و ◦ تـــــــــذكـــرت ◦
كيف ◦ سيعيد ◦ مقطعـــاً ◦ حديثـــــاً ◦ عن ◦
الارض ◦ لاينتهي ◦ ابداً ◦ — اوقفوا ◦ العالم ◦
اريدُ ◦ ان ◦ اخرج ◦ عندئـــذ ◦ يبدو
كأن ◦ أحدهم ◦ فعـل ◦ ذلك ◦

* * *

درسٌ اجتماعي رقم ١

إلك كورنويل

نزل إلى ساحة الطرف الأغــر
بشّرَ الحشد المجتمع هناك بالسلام ،
وبينما كان يرشدُ فوق الجبل
أسقطهُ أربعة من رجال الشرطة في نافورة الطرف الأغــر
قائلين وهم يُغطسونَ رأسه :
« هذا الفتى وجوديٌّ أحمر من القرون الوسطى ! » .

* * *

رجل من برادفورد

روبرت ، ج ، بيكلز .

انه يسيرُ في شوارع المدينة
منتظراً رســالـــة
مـــــن
الإلــــه .
صندلٌ مفتوح ورداء أسمــر
مربوط في الوسط
بحبــلٍ
معقود .
ربما كان في الثانية والثلاثين :
مــاذا يعنيك هـــذا ؟

انـــهُ يقفُ ويبتســـــم ،
عينان زرقاوان واسعتان
يبتســـم إلى المارين بـــه
هل هذا ضوء الحقيقة
أم الجنـــون
في
عينيـــــه ؟
وسمعتُ البكــاء
الخافت ، لكـــن ، المستمر :
العـــذاب ، العـــذاب .

* * *

مفكر

روبرت سمث .

عندما عكست نافذة الباص الشمس
اثناء سيره السريـــع
فكرتُ بالبحـــر
صاخبــاً
متدفقاً
بجدائل
عندما اهتز عصفور الجنة
بكل أغانيـــه
فـــوق هوائي التلفزيـــون

فكرتُ باشجار
مغطاة بطيور ،
مشرقة بالاوراق .
عندما شعرتُ بلمس الرصيف الضيق
فكرتُ بالاعشاب
تشعُ مثل شمس فوق مـــاء
انني مفكر خارق القوة
لأجل خمسة جنيهات . . أكثر أو أقل
جعلوني جـــائعاً
انني أرضيٌ وتحيط الأرض بي
الأرض التي تنتج أفكاراً عظيمة !

* * *

يأسٌ مطلق

جيمس ديمبي ٠

الشاحنة السعيدة المتأرجحة لن تأتي غداً
مصباح الشاحنة بلا غاز وانا خالٍ
من الحـــــزن
استطيع ان اقود شاحنةً ذات حمل ١٠ أطنـــان

لكن طريقي ضيقٌ جداً لأي شيء اكبر من زوج من الاقدام
وعصفور ضعيف لايستطيعُ مساعدة نفسه .

* * *

أحد عشر بيتاً في صلاة

ديرك مي .

غداً
ستهربُ إلى الداخل وتصبحُ
شارباً للبيرة ، مدخناً
سعيداً بأن زوجتك بعيدة عن الموت ثلاثين عاماً
وان ثمة نقوداً للجنازة .
لاتتأثرُ بالجائعين البعيدين ،
رغم انك ستشفقُ عليهم بلاشك
أثناء انتظارك في أحد صفوف المخازن الكبيرة
مثلما يحب او يكره شخص ما بطريقة عادية
اتخذْ وضع الحكم في كل هذا
واتمنى لو ان كل يوم هو أمس .

* * *

هذا ما بقي منه

قصة: حنا مينه

كانت ابنته ترقد على سريرها في الجهة الجنوبية من الغرفة ، وهي ترنو اليه بعينيها السوداوين الجميلتين وتبتسم قائلة :

ـ متى نعود ؟

ـ قريباً .

ـ ليس فور خروجي من المستشفى على كل حال .

ـ ليس فور خروجك قطعاً ..

ـ لابد ان نمكث اياماً في لندن ..

ـ لابد ياصغيرتي .

ـ سانفرج على المدينة واشتري بعض الهدايا لاخوتي .

ـ ستتفرجين على المدينة وتشترين الهدايا .

ـ وماذا بشأن الهدية لاخي الصغير ؟ اريدها جميلة جداً .

ـ ستكون جميلة جداً ولاشك ..

ـ انا التي ساختارها ..

ـ انت التي ستختارين كل الهدايا ..

ـ ولن تتضايق اذا طوّفت كثيراً في الاسواق ؟

ـ لن اتضايق ..

ـ وماذا يقول الطبيب بشاني ؟

ـ انت بصحة جيدة ..

ـ هل اخرجوا ذلك الشيء الصغير من ظهري ؟

ـ اخرجوه !

ـ كانت العملية ناجحة اذن ؟

ـ ناجحة تماما .

ـ وسامشي ثانية مثل كل الناس ؟

ـ ستمشين مثل كل الناس .

ـ واركض !؟

ـ ستركضين !

ـ واقفز كما اشاء . ؟

ـ ستقفزين كما تشائين !

ـ شكراً لله يا بابا .

ـ شكراً لله ياصغيرتي ..

ـ اعطني يدك ..

ـ هاك يدي ..

ـ احس وانا المسها كانني المس يد ماما واختي ..

ـ لقد طلبوا الي في الرسالة ان اقبلك ..

ـ ولماذا لم تفعل ؟

ـ نسيت .. ها .. ساقبلك (وقبلها)

ـ من كان يظن انني ساشفى بهذه السرعة ؟

ـ الله كريم ياحبيبتي ..

ـ كنت خائفاً علي ؟

ـ قليلاً ..

ـ والآن ؟

ـ اطمانت ..

ـ قبلني ثانية اذن ..

ـ هه ! (وقبلها ثانية)

فعل ذلك بصعوبة اكبر ، مستشعراً حرقة في حنجرته لم يستطع معها الكلام . ابتعد عن السرير متظاهراً بانه يسرح النظر في ابنية لندن القديمة ، المنبسطة سطوحها ذات المداخن امامه . كان يجاهدكي يتماسك فلا ينفجر بالبكاء ، اولا تغدره دمعة فتسقط من عينيه وتشي بحقيقة ما سمع . وكان على شك من قدرته على هذا التماسك ، فهو يتهرب متجنبا النظر في عيني صبيته الصغيرة ، وراغباً في الفرار من المستشفى كله ، والسير حيث تقوده قدماه ، او الجلوس في حانة واغراق حزنه بالشراب .

قال في نفسه وهو يزفر كاتما نأمة زفرته :

ـ **علي ان احتمل . لست امراة على كل حال . عار على الرجل ان يبكي .**

وحاول أن يغيب في الاعماق مشاعره الحزينة ، وان يتسلى بالنظر فيما امامه من مناظر.

السماء رمادية ، توشك ان تمطر . المداخن مشرعة الدخان ، كسفن متراصة في مرفأ وتنفث الدخان تأهبا للرحيل . وجو قابض للنفس يهيء المشاعر للاندماج في الحزن ، بينما هو يريد الانفكاك منه . يجاهد لكي تتراخى اوتار حنجرته اللعينة التي تهدج صوته وتبعث بتيار حار الى الدماغ وأعصاب العينين .

قال في نفسه : اللعنة علي كم انا ضعيف .

وقال ايضاً : يا الله ! لماذا خلقتني شعيفاً رقيقاً الى هذا الحد !

وقال : ما اقسى ان يتبلغ انسان حكماً بالموت !

وتساءل : ايهما أقسى ، أن يتبلغ الانسان حكما بموته أم بموت ولده ؟

نفض ، أخيراً ، كل هذا التساؤل المعذب وقال : لست ادري .. لماذا اعذب نفسي بالدوران على محور افكاري الحزينة ؟ لقد تبلغت الحكم وكفى .. الطبيب قال لي انها ستموت ، وانا ، الآن ، اعرف انها ستموت ، لكن هي يجب الا تعرف .

استدار عن الجدار الزجاجي ونظر اليها . كانت تبتسم كلما نظر اليها . انها فرحة ، مطمئنة ، واثقة ان كل شيء على ما يرام . لقد اخرج الطبيب ـ كما قال لها ـ ذلك الشيء الصغير من ظهرها ، وانتهت العملية بنجاح ، ولم يبق الا ايام وتشفى ..

قال في سره وهو يواجهها : آه لو كان في وسعي ان أفديك يا حبيبتي .

وقال : لماذا لا يقبل عزرائيل الفدية ؟

وقال : لو كنت ارحل انا وتبقى هي ! ؟

اقترب منها . مسّد براحته شعرها الاسود المرسل على الوسادة . ثم داعب جبينها ، ومن جديد اخذ يدها بين يديه ، وابتسم .. واستشعر رياحة لانه ابتسم .. لقد انتصر على حزنه مؤقتا ..

زالت ، قليلا ، آثار الصدمة التي خلفتها مقابلة الطبيب الجراح منذ قليل .

كان قد اجتمع به بناء على موعد سابق . وقال الطبيب وهو يشجعه على التصبر :

ـ لافائدة من المعالجة ياسيدي .. ابنتك ستموت .

وساد صمت رهيب كما في محكمة تلفظ حكما بالاعدام .

اضاف الطبيب :

ـ السرطان منتشر على طول العمود الفقري ، وستبقى قدم الفتاة مشلولة ، ثم تشل القدم الاخرى ، ويسري الشلل بعد ذلك في الجسم كله ، حتى يبلغ الدماغ فتموت .

حاول ان يسائل الطبيب أكثر . ان ينتزع منه كلمة تفيد بان ثمة املا بانقاذها ولو بنسبة واحد في الالف ، لكن الطبيب ردد ما قاله سابقا بكلمات اقل هذه المرة .

وعندما فقد الامل ، شرع يفرك اصابعه بعضها ببعض وراء ظهره . ولما انصرف الطبيب جعل يذرع غرفة رئيسة الممرضات جيئة وذهوبا ، وهو يود لو يتحدث الى انسان ، لو يشكو مابه عسى ان تخف لوعته ، لكن احداً لم يكن الى جانبه ، فهو غريب ، وفي بلاد الغربة يتلقى نبا الموت الذي سيختطف ابنته من بين يديه . هنا لا ام ولا اخ ولا زوج ولا صديق . هو وابنته ، وحدهما مع الموت ، ووحدهما مع الغربة .

لقد جاء بها الى لندن من بلده العربي البعيد ، على امل انقاذها ، وها هو الامل يخيب . الفتاة ستموت ، وهو وحده يعرف هذه الحقيقة ، ولنفسه يجب ان يحتفظ بها .

حسنا ! اشعل سيكارة ، ثم أخرى ، ثم ثالثة ، وعض على شفته وهو يهم بدخول غرفتها . استجمع كل ما بقي من قواه حتى اغتصب ابتسامة رسمها على وجهه ودخل .

كانت الصبية بانتظاره ، وقد سألت الممرضة عدة مرات عن وصوله ، وكان وجهها

الفتى نضيراً ، كصباح صيفي ، وابتسامتها الفاتنة تشع بها عيناها السوداوان ، لظنها انها شفيت ، وانها ستغادر المستشفى الى البيت فالمدرسة ، وهي لذلك تلح قائلة :

ـ علينا ان نسرع باجراء العملية لانني لا اريد ان اضيع مستقبلي .

الآن اجريت العملية وضاع المستقبل ، بل ضاعت الحياة نفسها ، ولكن عليه أن يكتم كل ذلك . عليه ان يكذب . ان يقول لها انك ستشفين ، ويجاريها في وهمها .

ولما ضاق بالكذب ، قال لها انه سيخرج ليدخن سيكارة ويعود ، فهزت برأسها موافقة وهي تتابع ابتسامتها المشرقة . وفي طريقه الى خارج الغرفة خطا خطواً هادئاً متزناً ، كيلا يشعرها انه يهرب من غرفتها ، فلما ابتعد عن الباب ، اوسع الخطى الى غرفة الانتظار ، حيث سيرتمي على احد المقاعد ، ويترك لعواطفه حرية التعبير عن نفسها .

غير انه ، في غرفة الانتظار ، وجد طفلاً يحبو على السجاد . كان طفلاً رضيعاً ، تنبه لدخوله ، فتوقف وارسل في الهواء يده الصغيرة كأنه يدعوه الى حمله ، فلما لم يفعل بكى الطفل ، وازداد بكاؤه حتى احتار الرجل في أمره ، ولما لم تنفع المناغاة التي اصطنعها معه ، حمله على ساعده ، وراح يدلله ويلاطفه حتى كف عن البكاء .

كان الطفل اسمر ، معافى ، في ثياب تشي بانه من غير ابناء لندن . وكانت مصاصة تتدلى من عنقه ، وضعتها امه في فمه عندما تركته على السجادة ، وقد سقطت المصاصة على الصدر فراح الطفل يزحف ، كأنما يلاحقها ، ثم نطن الى غياب أمه فبكى ، وكان على الرجل ان يعيد مصاصته اليه ، وان يحمله ريثما تعود امه ، وهكذا فعل وهو يعجب للأمر ، ويتعزى عن مصابه بتحويل دفعات الألم التي تكوي حلقه الى هتفات حنان صغيرة ، استغرب هو نفسه من أين واتته ، وكيف تلفظ بها برغم ذلك اليباس الذي يستشعره في لهاته .

أخيراً ظهرت امرأة على الباب . كانت حنطية اللون ، ذات شعر أسود ، ملفوف بشال حريري أبيض يتدلى على الكتف ، وقد استدل من هيئتها انها غريبة مثله ، لكنه لم يستطع ان يحزر من اي بلد هي .

وفوجئت المرأة بالرجل الغريب يحمل طفلها . تسمرت على العتبة قبل ان تخطو داخلة ، وارتبكت قبل ان تتصرف فتمد يديها لتتناول طفلها الذي عاود البكاء منذ أن رآها . ولأنها تجهل أيما لغة أجنبية فقد تمتمت بشيء ما بين أسنانها ، وأخذت طفلها وانزوت به على أحد المقاعد في ركن الغرفة .

جلسا صامتين . هو يدخن وهي تحتضن الطفل . كان لكل منهما ألمه الخاص ، وكان ألم الرجل أكبر ، لكنه استطاع أن يكبته ، بينما المرأة تنطوي على نوع من رجاء يجعل تصرفها هادئاً .. وقد تمنى أن تتكلم ، أن تتحدث الى طفلها ، ليعلم من أي بلد هي ، غير أنها لم تنبس بكلمة لأنها مثله كانت تفكر : من أي بلد هذا الرجل الذي حمل الطفل ؟

جاءت ممرضة ونادت الرجل . كان هو أيضاً يجهل اللغة الانكليزية ، وفهم أن الطبيب يريده فسار معها ، وفي غرفة رئيسة الممرضات كان طبيب لم يره قبل الآن ينتظره . كان يتكلم الفرنسية ، وقد اعتذر لازعاجه ، وابلغه انه مضطر الى الكلام معه حول مريض عربي وصل أمس الى المستشفى . تذكر الرجل المرأة والطفل فوراً ، وفهم ان عليه ان يكون ترجماناً ، وتمنى في سره ان يكون النبأ الذي سيتلقاه عن المريض افضل من النبأ الذي تلقاه عن ابنته ، لكن الطبيب رجاه ان يتفهم الموقف ، ويتصرف مع زوجة المريض بما يراه متلائماً مع عادات البلاد العربية .

ــ فهمت ، قال الرجل ، عندنا لا يقول الاطباء كل الحقيقة لأهل المريض .

ــ أنت أدرى ، قال الطبيب ، هنا نصارح ذوي المريض . نضعهم في الصورة الصحيحة .

ــ والمريض ؟

ــ لاداعي لتعذيبه .. احياناً ، في الحالات الخطيرة ، نكتم عليه .

ــ وماذا بشأن المريض زوج المرأة ؟

ــ لافائدة من معالجته .. سرطان الدم ..

ــ الافضل ان يعود الى بلده اذن ؟

ــ فات الاوان .. كان الافضل الا يأتي .

ــ سيموت اذن ؟

ــ خلال يومين على الاكثر !

ــ وماذا علي ان اقول لزوجته ؟

ــ قل لها ان حالته خطيرة فقط ..

ــ انده لها الى هنا ؟

ــ كما تريد ..

ثم اضاف :

ــ لا تنده لها .. النتيجة النهائية بعد الظهر .. ولانها لاتعرف اية لغة اجنبية، فعليها ان تحضر من يترجم لها ..

ــ ساكون هنا للمساعدة ..

ــ هذا جميل منك .. في الخامسة بعد الظهر اذن .

ــ اتفقنـا .

عاد ادراجه على طول الممر وهو مطرق يعض على جرحه عضاً . كانت ابنته ترقد على سريرها في الغرفة التي في آخر الممر . ربما كانت تبتسم لشيء ما الآن . عيناها السوداوان الجميلتان تلتمعان بفرحة الشفاء القريب ، وهي تفكر بامها واخوتها واخيها الصغير . تفكر بالهدايا وبالركض والقفز ، وكذلك بالعودة الى المدرسة وبالمستقبل الذي لاتريده أن يضيع.

وقال في نفسه وهو يمر بغرفتها منخطفا كيلا تراه : « اي مستقبل بقي لك ياصغيرتي؟» اضاف : « واي مستقبل بقي لهذا الرجل المريض الذي ربما كان يحدث زوجه قبل قليل عن الشفاء والعودة الى العمل ؟ » ان اجمل مافي الانسان هو قدرته على الحلم . التعلق بالحياة والثقة فيها وهي تغرب كالشمس في يوم خريفي . وهاهما الشاتان يغربان . ينطفئان كالشمعة ليحل من حولهما ظلام طويل . وعليه هو الذي يعرف انهما في رحلة النهاية، ان يبتسم لهما ، ويطمئنهما ، ويقول لهما انكما ستشفيان ، وستعودان الى بلادنا البعيدة ، الجميلة ، حيث الشمس والخضرة والسماء الصافية الزرقاء .

توقف قبل خطوات من غرفة الانتظار . عليه الآن ان يغتصب ابتسامة اخرى فيرسمها على وجهه قبل الدخول . عليه ان يكذب مرة اخرى ، ويقول كلاما آخر غير الذي سمعه .

رغب عن مرأى الام وطفلها القابعين في زاوية غرفة الانتظار . عاوده ، في هذه اللحظات التي يحس فيها بالاختناق ، النزوع الى الهروب خارج المستشفى ، الى السير في شوارع لندن على غير هدى ، تحت السماء المضبّبة ، ورذاذ المطر ، كي يتنفس في العراء ملء رئتيه . وعندما يتمالك نفسه من جديد ، يعود ليكذب من جديد ، ليبعث أمل الشفاء في انسانين يسيران الى الموت . لكنه كان مضطرا الى البقاء ، لانه لا يستطيع ان يترك ابنته ، ولا المرأة وطفلها وزوجها المريض .

مسح ، على غير وعي منه ، وجهه بمنديله . استشعر غبارا على الوجه . مستدشعوه . اصلح ربطة عنقه . ضغط اعصابه بقوه . وعندما خيل اليه انه عاد الى وضعه الطبيعي ، دخل غرفة الانتظار .

كان الطفل قد نام . وجهه الملائكي ينبيء عن سعادة طفل في حضن امه . انه لا يعرف شيئا ، وغداً ، عندما يكبر ، لن يذكر شيئا ايضا . ستحدثه امه عن ابيه ، وسيرى صورته في درج او على الجدار ، لكنه لن يتوصل الى تذكر شيء ، فالحياة تمسح الاحزان والافراح على السواء ، تجعلها من الذكريات الراقدة في اللاشعور بالنسبة للكبار ، فكيف به وهو طفل رضيع ؟

وقال في نفسه وهو ينظر اليه : « ايها الطفل ، ياملاكا له وحده الجنة ، لان له وحده براءة هذا الوجود ، نم .. ابق نائما . لاتفكر بابيك الذي يحتضر . انه لايطلب منك ذلك ولا يعتب . هو يفكر بك وكفى ، وربما ، الآن ، في هذه اللحظة ، يتمنى ان يراك ، وان يقبلك ويناغيك » .

والمراة التي ينام الطفل في حضنها كانت قد اغفت هي الاخرى . هدها التعب وسهر الليالي ، وهدتها هذه الغربة التي لا تعرف كيف تتصرف فيها ، والى من تشكو همها . والرجل يقف داخل العتبة ، ينقل ناظريه بين الطفل وامه النائمين ، ويعد الكلمات التي سيقولها لها عندما تستيقظ ، والطريقة التي سيقولها بها ، ويشفق على هذين المخلوقين البائسين مثله ، ان يكون مصيرهما كمصيره .

غير ان الام فتحت عينيها فجأة ، فتحتهما وحملقت في الرجل وجلة ، معتذرة عن نومها في هذا المكان . وبغير ارادة منها مدت يدها فشدت ذيل فستانها ، وسوت الشال على رأسها ، واحتضنت طفلها ، واطرقت مفكرة مهمومة .

حياها الرجل بالعربية . فوجئت به ، وانداحت مع المفاجاة امائر للراحة في قسماتها ، كمن لقي فرجا بعد ضيق شديد .

قال الرجل :

ـ اعذريني .. ماكنت اعرف انك عربية .

قالت المراة :

ـ قلبي حدثني انك عربي ، لكنني خجلت .. ماكنت اتصور ان التقي هنا بمن استطيع

المتكلم معه (وبعد صمت) انت طبيب ؟

ــ كلا ..

ــ لك مريض في المستشفى ؟

ــ **ابنتي ..**

ــ عافاها الله ..

قال الرجل في سرد : « هيهات » ، **وسأل بدوره ؟**

ــ **وانت ؟**

ــ زوجي في المستشفى

ــ **وكيف حاله الآن ؟**

ــ تحت رحمة الله !

ــ **حدثني الطبيب** عنه .

ــ وماذا قال ؟ .

ــ **سيحضر كبير الاطباء بعد الظهر ، وهو الذي سيحدثك عن مرضه .. وساكون هنا للترجمة .**

ــ اشكرك جدا ، ولكن أما عرفت شيئا على الاقل ؟

فكر أن يقول لها أن زوجك في حالة الخطر ، ثم بلع ريقه وقال :

ــ **لم تنته الفحوص .. ارجو ان تسمعي اخباراً مطمئنة .**

ــ ان شاء الله .

ــ **من اي بلد انت ؟**

ــ من فلسطين ، وزوجي يعمل الآن في الكويت .. كان يتعالج في مصر ، واشار الاطباء بان حالته خطرة ، فقررنا المجيء الى لندن .. قالوا لنا ان الطب متقدم هنا ، ويمكن انقاذه اذا جئنا ، وسيلحق بنا اخوه غدا .. هذه هي القصة .

تشبه قصته الى حد ما .. هو ايضا نصحه الاطباء بمعالجة ابنته في لندن ، ولكن لندن خيبت امله .

ــ انا من سورية ..وابنتي مصابة بورم في النخاع الشوكي .. وافضل مكان لجراحة النخاع الشوكي هو لندن .. هكذا قال الاطباء ايضا .

ـ لماذا يبعثون بنا الى هنا .. الى بلاد الغربة هذه ؟

ـ لانه لاتوجد مشافي ذات تجهيزات مماثلة واخصائيين كما هنا .

سكتت المراة .. وفكر الرجل : « كم يكلف مستشفى من هذا النوع ؟ وهل تعجز دولة بترولية واحدة ، عن انشاء عشرة مشافر مماثلة ؟ ثم قال في سره : ولماذا لايستقدمون اخصائيين للعمل في مشافي مجهزة كهذه ؟ مونت كارلو ! يا مونت كارلو ! على موائدك الخضر، كل ليلة ، تهدر أموال تبني مدينة مشافر ! ويا باريس ، عطورك ، وغانياتك . واللحى ، وحمامات العطور ، والملايين التي تنفق ! ونحن هنا .. طفل يزحف على الارض ، ورجل يئن على السرير ، وصبية تتجدر الى اللجة ، واب يلوب ويتألم ، وزوجة تضطرب من خشية وحرقة ، ومئات مثلهم ، في هذا البلد أو ذاك ، يموتون في بلاد الغربة » .

جاءت الممرضة تطلب الزوجة الى غرفة زوجها ، اشارت الى الام ان تترك الطفل في غرفة الانتظار . وافاق الطفل لدى نهوض الام ، وبكى فتقدم الرجل ، كأنما الى واجب متفق عليه ، وتناول الطفل ، وقال للام :

ـ اذهبي ..

ذهبت وهي تتعثر في خطوها حياء من الرجل . لكن هذا ، الآن ، لم يعد غريبا عنها . لسبب الغربة صار ، وشريك الالم ، وحامل الحقيقةوكاتمها . عليه أن يتحمل مصابهويساعد في تحمل مصاب الزوجة ، وان يتنقل بكذبته عن الشفاء بين سريرين متباعدين ، في غرفتين متجاورتين ، وان يرى الموت جلاداً فوق راسين : راس الصبية وراس الرجل .

قالت المراة لزوجها :

ـ في غرفة الانتظار رجل من ديارنا .. عربي مثلنا .

وقال الرجل لزوجه :

ـ وماذا يفعل هنا ! ؟

ـ ابنته مريضة ، في الغرفة المجاورة .

اريد ان اراه .. لماذا لم يأت معك ؟

سكتت المراة . كبر عليها ان تقول انه يحمل الطفل . كان ذلك تجاوزا للحد ، ولكن الحدود في الغربة تمحى . والمريض قد لايفهم هذا . لماذا يتطوع الرجل الغريب ليحمل الطفل؟

غريباً ! والزوجة ارتبكت ، والمرضة الواقفة قرب السرير لافقه حرفاً ما يدوربين الزوجين. هي شاهدة فقط ، وشاهدة حيادية ، ترى الموت يقف على رأس الرجل ، ولكنها ، في كل يوم ، ترى هذا الجلاد الذي الفته ، او هي ، مثل غيرها ، لاتستطيع حياله شيئاً .

وجاءت الزوجة تنده الرجل « في الغرفة رقم ٢ زوجي . انه يريدك .. ارجوك ان تكلمه قليلا ، أن تجبر خاطره بالبقاء الى جانبه حتى يطمئن » .

ذهب الرجل الى المريض . مر على ابنته التي ما تزال تبتسم . انها تفكر بالهدايا ولاشك . وقال لها : « كيف انت ياصغيرتي ؟ » وقال لها : « انه سيأتيها غداً بالرسائل التي تصل من الاهل » وقال لها : « انا مشغول قليلا .. وسأعود » وعندما غادرها كانت تبتسم ايضاً . لقد ازالوا ذلك الشيء الصغير من ظهرها ، وغداً أو بعده تنهض من السرير!»

وفي الغرفة الاخرى كان المريض ، وكان الموت قد تخطى الحاجز الحديدي للسرير وصار على الوسادة . وهتف المريض منذ دخل عليه :

ــ مرحباً ، يارائحة الوطن !

ــ كيف انت الآن ؟ الا تشعر بتحسن ؟

ــ لاادري .. ماذا يقول الطبيب ؟

ــ لم تظهر نتائج الفحوص بعد ..

ــ وما رأيه ! لقد فحصني .. قالوا لي انهم يعرفون هنا .. الم يعرف علتي ؟

ــ هنا لايشخصون المرض ويبدأون بالمعالجة الا بعد ظهور نتائج الفحوص .

ــ ومتى تظهر هذه النتائج ؟

ــ غداً !

ــ غداً ؟

قالها بأسى ، كأنما هذا الغد بعيد ، في الابد . لوى رقبته بعد ذلك على الوسادة .

راحت كلمة « غداً » تدوي في فضاء الغرفة . تتسمر في العينين الشاردتين . تثبت ابراً على الفراش ، وشوكاً على الشفتين . الوهن. رغبة في الكلام ولا طاقة . « لا اريدان اموت.. انقذوني .. اشتروني » وصرخات تشتعل ، وتنطفىء ، وتمتمات ، وعرق على الجبين ، وانين .. ثم سال بلهفة عن الصغير ..

قال الرجل :

ــ الصغير نائم ..

ــ ومتى يفيق ؟ . كلما سألت عنه قالوا انه نائم .. أريد أن أراه .. دعوني أراه ..

ــ ستراه ..

ــ متى ؟

ــ عندما يفيق .

ــ احضروه لي نائماً .

ــ هذا لايجوز .. اصبر وستراه .. اذا لم يكن اليوم فغداً .

وترقرقت دمعتان في المحجرين . « كل شيء غداً . لماذا ليس اليوم ؟ » وخبط برجليه فانكشف الغطاء ، وتقدمت الممرضة لتعيد الغطاء ونمنع حركة الساعد التي كادت تملص انبوب التغذية الاصطناعية . فصاح المريض :

ــ أريد الطبيب .. نادوا الطبيب ..

وأومأ الرجل الى الممرضة ، فهزت هذه برأسها نفياً : لاحاجة للطبيب ! لا فائدة !

فقال الرجل :

ــ انتظر قليلاً ، سيأتي الطبيب ..

ــ وسيعطيني دواء يوقف الالم ؟

ــ لابد أن يعطيك دواء يوقف الالم ..

ــ ولن أموت ؟

بلع الرجل ريقه بصعوبة ..

ــ ستشفى .. تحمل قليلاً وستشفى !

ــ قالوا لي انني سأشفى هنا ..

ــ صدق ذلك ، ستشفى ..

ــ وسنعود الى الوطن ؟

ــ سنعود ..

ــ وأحمل ابني على زندي وأسير .. ؟

ــ ستحمل ابنك وتسير ..

ـ وساري بيتي واولادي واهلي . ؟

ـ ستراهم جميعا !

ـ اعطني يدك ..

أعطاه يده . امسك بها بقوة سرعان ما تلاشت . مع ذلك ظل محتفظا بها . ابنته أيضا طلبت يده وظلت ممسكة بها . كل الذين هنا ، المودعون في رحلة اللاعودة ، يمسكون بايدي ذويهم ويحتفظون بها . يتعلقون بهم ، يحتمون ، ويتشبثون ..

تراخت يد المريض . النبوبة ! سيفيق بعد قليل ، يشرع بالصياح لم يغيب ، ويعاود الصياح فالغيبوبة . انه يحتضر . الطبيب قال ذلك ، وهو يراه ، والمرضة تنتظر ، وفي غرفة الانتظار الزوجة تنتظر ، وهو ، الرجل الذي يشهد ولا يستطيع ان يتكلم ، يمضغ المه مضنا ويسكت .

عاد الى غرفة الانتظار . قال للزوجة ان زوجها نام . وقال لها هاتي الصغير واذهبي الى غرفة ابنتي التي هناك . لا تحدثيها بشيء . قولي لها فقط أن زوجك مريض ، وانه سيشفى . ستكون ابنتي مسرورة برؤيتك . هي ايضا اشتاقت ان تتكلم العربية مع احد ، وستتسليان قليلاً .

اعطته الطفل وذهبت . صار من واجبها ان تزور ابنته كما رأى من واجبه ان يحمل ابنها . ان علاقة ما ، حميمية ، قامت بينهم الان . علاقة وطن وألم ، وهو ، في قلب لندن الكبيرة ، وجد ، الآن ، زاوية آهلة . كان كل ما حوله فراغ ، والآن وجد زاويةآهلة ، وبرودة الاشياء ، في الوحدة ، صارت الى دفء ، وهذا الطفل بين يديه ، يناغي ويرفس برجليه ويلوح بيديه ، وهو به سعيد ، وقادر مع الالم أن يتعزى . قد يكون ثمة امل بعد ، ولن ينقطع مادام كبير الاطباء لم يقل كلمته الاخيرة .

في اليوم التالي جاء شقيق المريض . ترك عمله في الكويت ولحق باخيه . واستقبلته زوجة الاخ باكية . كان كبير الاطباء قد جاء وقال كلاماً ترجم الرجل بعضه وامتنع عن ترجمة البعض الآخر . لقد أصدر كبير الاطباء براقع الحرفة ولياقتها ، حكمه المنتظر بالموت ، ثم تعجل بالرحيل ، بكثير من اللطف ، وببعض التعليمات الى رئيسة الممرضات .

جلس الرجل والأخ والزوجة في غرفة الانتظار . ثلاثة غرباء في بلد غريب . وفي غرفتين متجاورتين ، مريض يحتضر وفتاة صبية تبرق عيناها السوداوان بفرحة الشفاء

القريب ، لانها لا تعرف انها ستموت . وكل الفارق بينها وبين المريض الذي يحتضر من قد يطول وقد يقصر ، لكن النتيجة مقررة : الموت أيضاً !

قال شقيق المريض :

— لماذا كتب علينا ان نتشرد من فلسطين الى لبنان ، ومن لبنان الى الكويت ، ومنها الى مصر ، ومن مصر الى لندن ؟ اما لتشردنا من نهاية ؟

وقالت زوجة المريض :

— غرباء غرباء غرباء .. لماذا نحن دون سائر الناس غرباء ؟ ولماذا نحيا في الغربة ، وفي الغربة نواجه المرض والموت ؟

وبكى الطفل الرضيع كأنما يذكر بوجوده ، ويشارك بالتذكير بغربته هو الآخر .

قال الرجل :

— لنتحمل قليلا .. الغربة ليست ابدية .. سينتهي كل شيء ونعود .

قال شقيق المريض :

— نعود ؟ هه .. منذ عشرين عاماً .

قال الرجل :

— اعرف اعرف .. منذ عشرين عاماً ...

وقالت المرأة :

— كثيرون لن يعودوا .. ماتوا في الغربة .

وقال الرجل في سره : « وزوجك من هؤلاء »

ثم قال لها :

— استراحوا ..

قال شقيق المريض :

— ونحن متى نستريح ! ؟ لقد مللنا !

— نحن ايضاً سنستريح .. من يصبر قليلاً ينل كثيراً .

انفجر شقيق المريض :

— اللعنة على الصبر ..

وهز الرجل رأسه موافقا ، بينما عادت الزوجة تسأل :

ـ قلت ان الطبيب لم يعط رأيا قاطعا ، ؟
ـ نعـم ..
ويكى الطفل من جديد . كان والده يحتضر .
وقالت الزوجة :
ـ لو اعطاه دواء مسكنا على الاقل ؟
قال الرجل :
ـ الطبيب اعطى التعليمات اللازمة لرئيسة الممرضات .
وقال الشقيق موجهاً الكلام الى الرجل :
ـ لنذهب اليها .. ارجوك .. عساها تفيدنا في شيء ..
وافق الرجل ، فذهبا ..
رئيسة الممرضات لم تقل شيئا . كان المريض يحتضر ..
وقال الشقيق :
ـ لندخل غرفته ونرى الى حالته ..
وترجم الرجل ما قاله الشقيق ، فمانعت الممرضة . كان المريض يحتضر ..
عادا الى غرفة الانتظار ، ولم يتبسا بكلمة الآن . كان كل منهم يجتـر همومـه علـى طريقته . والطفل نام في حضن امه . لم يكن قادرا على ان يفهم ان والده يمـوت ، وهـو وحده استراح من فهم هذه الحقيقة وتجاوزها . سيكبر يوماً ، ويفهم ، وعندئذ ربما يكون زمن الغربة والتشرد قد انتهى .

دخان . اشعل الشقيق سيكارة . أشعل الرجل سيكارة . اعاد كل منهما إشعال سيكارة جديدة ، واعادا ، طوال ساعة ، اشعال السيكارات واطفاءها ، وفجأة جاءت الممرضة تنده شقيق المريض .. لقد توفي الذي كان يحتضر ..

هرع الرجلان الى الغرفة . كانت ستائر السرير قد اسدلت من حول الميت ، والسكينة في الغرفة تشي بالحزن والسفر البعيد ، وحين شق الاخ الستارة ورأى اخاه المريض قـد اسلم الروح ، هجم عليه وراح يعانقه صارخا : « يا خي ! كلمني يا خي ، كيف مت بهذه السرعة يا خي ! ؟ » .

الاخ لم يجب .. كان قد سافر الى بعيد ..

وجاءت رئيسة الممرضات فاخرجت الرجلين ، وطلبت منهما ان يخبرا الزوجة لتأتـي فتلقي نظرة الوداع على زوجها ، قبل ان ينقل الى غرفة الموتى . نظر احدهما الى الآخر وهما

يسيران الى الزوجة في غرفة الانتظار : من يخبرها منهما ؟ توسلت عينا الاخ . توسلت عينا الرجل . دمعت العيون الاربع وتعانقا .. تعانقا ليس لان مريضا مات ، وليس لان فلسطينيا مات ، ولكن لانه في القرية قضى ، وفي غرفة الانتظار تنتظر زوجة وطفل رضيع..

ما أقسى بعض المواقف ؟ سنة ؟ ربما اكثر ، مستعد كل منا أن يدفع من عمره ليتجنب موقفا مماثلا . لكن تبادل المواقف والسنوات لا يتم بسهولة . علينا ان ندفع المـا ، وان نتعلم ، كل يوم ، كيف نتالم اكثر ، ونتحمل اكثر .

دخلا غرفة الانتظار ، وشهق الاخ باكيا :

ـ آخ ..

وقال الرجل للزوجة :

ـ العوض بسلامتك ..

وصاحت الزوجة :

ـ مـات ! ؟

هزا براسيهما ، شقيقه والرجل ، ولطمت الزوجة خديها وانهارت ، وركضت رئيسة المرضات للاسعاف .. وغادر الرجل الغرفة وهو يحمل الطفل بين ذراعيه .

بعد ساعة خرجت الزوجة من غرفة زوجها الميت . كان بيدها كيس من نايلون ، فيه كل ماتبقى منه : بنطلون ، وقميص ، وفردتا حذاء .. وعلى الاثر خرجت عربة نقالة من الغرفة وعليها المتوفي مسجّى ومغطى بشرشف ابيض ، وبعد ان ادخل المصعد ونقل الى غرفة الموتى .. تعانق الرجلان ، الشقيق ووالد الصبية المريضة ، وافترق الجميع الى غير لقاء..

وعندما ، في اليوم التالي ، سالت الصبية والدها :

ـ كيف صحة العم المريض في الغرفة الثانية ؟

اجابها دون ان ينظر في عينيها :

ـ جيدة يابنيتي .. ولكنهم نقلوه من هنا .. لقد اكتشفوا ان مرضه في المعدة ، ونقلوه الى مستشفى آخر ، لاجراء جراحة لمعدته ..

وسكتت الصبية .

صدقت ؟

من يدري ..

ربما حزرت ، وربما شكت ، لكنها ، هي نفسها ، وبنفسها ، لم تشك أبداً . كانت واثقة انها ستشفى ..

واكد لها والدها ، وهو يكذب ، ربما ، للمرة العاشرة ، أنها ستشفى ..

وغادر غرفتها ليطوف على غير هدى ، غريباً في مدينة غريبة .

الدواليب النارية

قصة : فيصل طعّاني

كان يجول بنظره بلا هدف . ينقل ابرة المذياع الصغير بدون توقف . ان ما برأسه من أفكار يكاد ان يودي به . يرفع سماعة التلفون . يرمي بالمشط على السرير . يسقط السماعة من يده . يقرع الجرس ويطلب صحيفة المساء ليقرأ عناوين الأفلام بسرعة . يبحث عن (القصاصة) فهو يرغب بتقليم أظافر يديه . انه يحاول أن يكون نفسه .

ربع ساعة ثم يملأ النور النافذة التي تواجهه في الطرف الآخر من الشارع العريض جداً . فتاة ترتدي الصوف تدخل لتداعب واحداً من الاطفال الثلاثة الذين يمرحون بأرض الترفة ، وتخرج تارة أخرى لايدري ماذا تفعل وراء الباب . يبدو عليه الانقباض وضيق النفس . يظن أن باستطاعته التخلص من واقعه اذا لم يعترف بآلامه وهمومه . إنه يقاسي شيئاً لايدريه ، لايقدر على تفسيره . المرارة تملأ حلقه وأكثر . وتدخل الفتاة مرة اخرى وبيدها كوبا من الماء تضعه على الطاولة لا يتمكن من رؤيتها بوضوح . وتنقض طائرة فوق سطح الفندق لتهبط في المطار القريب . ويتذكر بخوف تلك اللحظة الرهيبة وهو في الجو عندما أعلن (كابتن) الطائرة ان الضباب الكثيف يضطره للهبوط في ميناء (دسلدورف) وكان عليه ان يصل كوبنهاجن تلك الليلة وإلا ضاعت منه فرصة حضور زفاف صديقه .

وتمر في الطرف البعيد من الشارع سيارة صغيرة سوداء يتبعها عدد آخر ، وأما السيدة ذات المعطف الجلدي فهي متجهة نحو باب الصيدلية . يسمع دقات خفيفة على باب غرفته

وتسأله خادمة الدور الذي يعيش فيه عما يريد قبل أن تغادر الفندق . جمع لها كل ما وهم يسعدون . وتخلو النافذة التي تواجهه إلا من النور .

انسلّ من ثيابه وعاد إلى النافذة أكوام من البشر يهبطون من (المترو) ومئات يتزاحمون لم يمكث تلك الفترة كلها بدون عمل فقد قرأ معظم مقالة ت . س . اليوت في نقد الشعر . وحاول ان يرتب افراحه الشخصية المبعثرة ويتجز مسح حذائه الأسود . وكان قد انهى قص إظفر إبهامه الايسر عندما شعر بسخونة دموعه وهي تسيل على مقلتيه بلا استئذان .

إلى متى اتحدث عن المجهول ؟ انني اجهل ما يعتريني ، اجهل نفسي . اليس من المضحك ان صاحب الاسرار لايتمكن من فك الغازها ؟

الساعة الآن الثامنة . يرتمي على السرير ، يغمض جفنيه قليلاً ثم يصحو . يتناول كتاباً . يقرأ قليلاً . يقلقه . ثم يغمض جفنيه مرة أخرى ؛ ويحاول ان يفسر جملة إليوت : « ليس لدي في الحقيقة شيء يتطلب الدراسة المسبقة ، وكل ما أريده أن أكون مسروراً في اللحظة » .

زجاج النافذة يئن تحت وطأة عجلات المترو . وتمر خمسون دقيقة أخرى . يذهب إلى شارع الاشجار حيث يسكن الاخ الاصغر لصديقه ماهر . كان يمضي معظم وقته مع ماهر وهما يجلسان خلف فناجين الشاي في مطعم ابي راشد ليستمعا إلى نصائحه الصحية ؛ فهو يعالج كل الأمراض عن طريق الغذاء حيث لافائدة ترجى من كل الادوية الأخرى .

كانا يتحدثان كثيراً عن ايام الجامعة وذكرياتها . عن غادةشديدة السحر ، ذات الجمال المدمر، والمواهب النادرة . لقد تنافسا على التقرب إليها وبدلاً من ذلك اصبحا صديقين حميمين . واتفقا منذ ذلك الحين انه لافائدة من البكاء على الحليب المراق .

الا ان المسكين ابو راشد دخل المستشفى واغلق المطعم وترك طارق بلا صديق . فكّر :

ــ ما أجمل اللحظات التي يحس فيها الانسان أنه شخص واحد فقط . ان المخرج الفرنسي جان لوي بارو يقول ان المرء لايولد مرة واحدة . يولد مرتين ــ المرة الاولى عندما يخرج من بطن امه . والثانية عندما يشعر بمراقبة الآخرين له . عندها يبرز من ذاته شخصاً آخر يظهر به أمام الناس ، ومنذ تلك اللحظة يبدأ حياته متخفياً خلف شخصيته الجديدة كما يحتمي المحارب وراء درعه .

ذهب طارق الى مقهى قريبة من دار السينما فلا زال لديه وقت ، وجلس الى طاولة صغيرة ليسترق السمع إلى فتاة بيضاء شهية تلبس رداء أسود وشعرها اللهبي يزيدها جمالاً . كان يتخلل حديثها بعض العبارات الفرنسية وهي تخاطب زميلتها ، التي يسر وجهها . في هذه المرة لم يكن طارق خجولاً كما تصفه أمه عادة ـ وكاد أن ينتقل إلى الطاولة المجاورة ويشاركها الحديث إنها لاشك تشبه فتاته التي انقطعت أخبارها عنه فجأة، ودون اي تفسير .

كان موضوع الفيلم من النوع الذي يدفع المشاهد إلى التوصل في مجاهل الذات الإنسانية دون ان يرى شيئاً . قصة والد قاس عصبي المزاج ، عاش طفولة محرومة . يحاول عنوة أن يحقق بشخص ابنه الوحيد ومن خلاله ، أحلامه الدفينة الفاشلة . وتحاصر الابن عاطفة الابوة وبندفع لكي يكون الشخص الاخر الذي يبحث عنه والده ؛ ويحاول جاهداً ان يذلل كل العقبات . وكان عليه أن يقفز من خلال الدواليب النارية إرواءاً لرغبات والده ، وارضاء لنزواته ولكن دون جدوى . وتنتهي القصة بسقوط الابن سقوطا مأساويا لتلتقي في ذروته الهزيمة المرة والتعبير الذي لا طعم له ، ولتثير في المشاهد شعور الشفقة والكراهية معا ولكل من الأب والابن .

عاد طارق إلى غرفته مرهقاً واحس بلسعات البرد القارس تهاجمه فطلب غطاءاً اضافياً ، وكوّر جسمه تحته ، ثم اغمض عينيه قسراً وتمنى ان ينام . وتحت الغطاء فكر ان جان لوي بارو يعني ان حياة الشباب تحقق انتصاراً اذا قاوموا الشخصية اللاحقيقية ، ان عليهم ان يحتفظوا في ذاتهم بذلك القبس الذي يبزغ حين كنا اطفالاً صغاراً : حين كان المرء واحداً فقط وعالماً كاملاً في ذاته .

كانت صورتها التي طبعت في ذاكرته لاتفارقه . يحس بها إلى جانبه اينما ذهب حتى في نومه يراها وينهض لمقابلتها وكأنهما على موعد . كانت فتاته حساسة ومزاجية . تعتقد ان الالوان لها تأثيرها العاطفي على الانسان . ورغم ما تنطوي عليه من ذكاء خبيث فهي تتمتع بقدر من الجمال يجعله يستجيب لندائه . وعندما التقيا لأول مرة كانت صورة فتاة أحلامه لاتزال غامضة ولم تكتمل في ذهنه بعد . وفي البداية شعرت بالخيبة . فلقد سبب لها عدم اكتراثه بالحب دواراً من النوع الذي تحس به بعد كل ارهاق لاسيما وانها سمعت إليه بنفسها . الا ان تهيّبه جعلها تزداد شوقا اليه وانجذابا نحوه . وان صدوده قد ضاعف روعة الحب في نظرها .

عندما رأته للوهلة الاولى ظنت وكأنه قد انتهى لتوه من وداع صديق عزيز عليه . يعصف به الغم دائما ؛ وكثيرا ما ترتسم على وجهه صور لا معنى لها . ظاهره ينم عن افراط في الرقة ؛ وبالتالي سمحت لنفسها ان تعتقد بأنه انسان لاتنساه الذاكرة بسهولة .

كان لايزال يعتبر الفتيات « اشياء » ولهذا فهو غير قادر على ان يبني علاقة دافئة مع اي منهن . وشعرت بصعوبة ان تكون صديقة معشوقة له ، إلا ان طارق لم يستطع إلا ان يلاحظ اهتمامها ويعجب بمحاولاتها للتقرب منه . لقد اعتبرها امرأة رائعة على اية حال . انها تطلب اليه وبطريقة غاية في التهذيب واللطف ان يلقي بسلاحه أمامها . لقد فهم منها ضمنا بأنها تدعوه للتحاق بها عندما لايتمكن من المقاومة . ويتساءل ما اذا كان يحس بضرورة الترحيب بهذه العلاقة أو التخلص منها ولاسيما انه يصاب بحالات يعجز فيها عن الشعور بالحب أو عدمه . وهو يعتقد ان خيطا رفيعا جدا يصل بين احتقار الشيء او محبته . تعوزه دائما المبررات المقنعة في حالة الحب كما في حالة الكراهية واحيانا يكون السبب الوجيه للحب هو ايضا سبب وجيه للكراهية . وهذا التارجح بين اثبات الشعور ونفيه لابد وان يشل" طبيعته الحقيقية ولذة من الزمن .

كان يشعر بأنها تعاني أزمة ، إزمة المرأة التي تشعر بالوحدة ، وازمة المرأة التي تشعر ان الحظ دائما يجانبها ؛ وهي في الوقت ذاته تفهم الرجال ولديها القدرة على الرؤية المتعددة الجوانب كتلك التي يتميز بها النحل . قادرة عندما تريد على ان تقود طارق دون مقاومة في الاتجاه الذي تريد . إلا أنها تبالغ في العقبات التي تحول دون ذلك فالرجال يخافون المرأة التي تفهمهم فتفضحهم لاسيما وان معظمهم لايرون إلى ابعد من أرنبة انوفهم !

ولذلك كانت تبرر بحثها الدائم عن حب جديد ؛ وانتظارها لفارس آخر ــ فلا يمحو ذكرى الحب الا حب آخر . كانت قد التقت من قبل بجلال إلا انه لم يكن بالشخص الذي يحسن الاتصال بالناس . كان صارما إلى حد يبهر الانفاس . ضعيف الشخصية إلى حد مخيف . وعندما تعرفت بطارق احست أن فرصتها حانت ؛ فاما أن تقتنصها أو تدعها تفلت منها الى الابد . وقد لاحظ طارق كل ذلك دفعة واحدة وداهمه شعور (بالتحفز) ممزوج بشيء من الانتصار . وبدا له فجأة انها في طريق أن تمنحه شيئا هو في حاجة اليه . ولكن كلاً منهما يشك في مقدرة الآخر بأن يحول عذاب حياة رتيبة إلى حب يقيني مغتبط . ولكن من منا يستطيع ان يسقط الأمل من حسابه ؟ حتى أولئك الذين يصممون على تجنبه لايجرؤون على ذلك . ورغم ان كلاً من طارق وفتاته يخاف ان يخدع نفسه فان لديه املاً خفيا وقويا مع ذلك . رد" عليها مرة بعد أن سكنت ثائرة عواطفهما :

ـ هل تريدين حطام زوج ؟ هذا هو مآل الزواج في هذه الايام حيث اصبح مجرد فعل ميكانيكي ينضح بالضجر .

ـ انها مغالطة متعمدة . انك تعلم ان في الزواج نجاتي . ولكنك تتهرب من مسؤولية الحياة . وتبحث عن علاقة من نوع آخر لاوجود لها الا في رؤوس الواهمين . ثم ماذا لو وافقت معك ... وانت الذي لا تستقر على شيء كما اعترفت لي اكثر من مرة ؟ .

وكل مافهمته منه أنه لن يتمكن من الاجابة بوضوح بل سيبقى جوابه بالنسبة لكليهما غامضاً الى الأبد .

وفي حالة من الانهيار المعنوي التي اعتادت عليها راحت تتساءل عن ماهية هذه العلاقة إلا أنها اعتادت ايضاً بفضل تجاربها ان تتحكم بها وتتجاوزها . انها تريده زوجاً لهاوللوصول إلى ذلك لابد من أن تستخدم كل ذكائها الانثوي .

كانت في الفترة الاولى لمعرفتها به قد اتخذت جانب الحيطة محاولة أن تدعه بعيداً بالقدر الذي لاينفذ إلى نفسها . أما الآن فقد تبدل موقفها معه وهي لاتدري هل كان ذلك بفعل سحر عينيه اللتين اكتسبتا بريقاً مؤنساً آسراً أو نتيجة تأثير شخصيته القوية التي اخترقت مابنته هي على نفسها من أسوار .

واتفقا ان يمضيا عطلة العيد معاً فهي فترة كافية للتفاهم من جديد رغم ادراكها بان شيء آخر ، وان ذلك القلب الذي هو قلبه سيظل ابداً غير معروف بالنسبة له بل سيظل التفاهم بين الناس أمر عسير . وطارق لايزال حتى تلك اللحظة اقل اهتماماً بالحب من اي شيء آخر ، وان ذلك القلب الذي هو قلبه سيظل ابدا غير معروف بالنسبة له ، بل سيظل ابداً غريباً عن نفسه . ورغم ان كلماتها بقيت تتردد في ذاكرته كما تتردد كلمات اغنية رقيقة عذبة قرر الا يوافيها بالموعد وتركها تنتظر على الرصيف .

كان قاسياً مع نفسه . لقد انفطر قلبه بسبب كبريائه التي لاتلين . كان عناده الطفولي هو الذي قضى على معظم مرحه . والمشكلة المعقدة بنظره هي انها تريد امتلاكه كلياً ، أما هو فينشد أن يبقى معها طليقاً دون ان يفقد اهتمامها به . وكان قد انتابها شعوربالخسارة الفادحة وهي تقف على الرصيف وحيدة صامتة كئيبة مذعورة من نظرات الناس القاسية . انهم يعاملونها كمتهمة . وعادت إلى البيت ينهشها القلق ، وتحس بوطأة الوحدة والخيبة

القاتلتين . وما أن دخلت غرفتها حتى أخذت بالكتابة له تؤنبه بانه يستهين بامر عليه الا يستهين به أبداً ولابد من اللقاء ثانية .

لقد فكرت : ان النفس المصممة برغم كل شيء تستطيع ان تدبر امورها دائماً .

لها انف حلو ولكن في ذقنها صرامة وحزما . ممشوقة القامة ، ليست بالناحلة ولا البدينة . سريعة الحركة . عصبية لاتتردد . تندفع إلى هدفها بتهور ولكن بثقة . ان المسافة بين عقلها وعاطفتها هي نفس المسافة التي تفصل بين عربتين في قطار واحد . انها تعتقد ان هناك اشياء لايمكن ان يقبلها العقل ولكنها تبقى صحيحة بالرغم من ذلك .

واذا كان هناك شيء يكرهه طارق فهو اضطراره الى ايذاء الاخرين ، واخذ يقنع نفسه بانه اذا أراد أن يطفىء الحريق فلن يفيده الهروب من مواجهة النار . بل ربما يسبب اشعال حرائق اخرى . وان السكوت عن شيء ما يشغل تفكيره لن ينفيه ، بل سيتضخم وينمو بشكل مرضي ويصير مصدراً للألم والضجر .

وما دامت الحقيقة لاتخضع لرغباتنا فلنعترف بالواقع .

كان يبرر (غرامياته) السابقة بانها مجرد ارتباط بدون حب فكانت تمر دون ان تترك بصمات ولكنها تبقى أفضل من ذلك الفراغ المرعب الذي كان يعيش فيه . إلا أن الأمر هنا يختلف مع فتاته الاخيرة ولكن ما حيلته اذا كان أميل للكبرياء اكثر من اللازم . لقد بدأ يحس بشيء جديد ، بشيء لايزال يجهله ، وشعوره به غامض مبهم ، لم يتبلور بعد . صحيح ان اللقاء صعب ولكن الوداع احيانا يكون صعبا مثله . كان عليه ان يقرر . إلا أنه ظل ساهما غائب الفكر يستعرض في ذهنه شريطا طويلاً من الذكريات علّه يستوحي موقفا معينا فيتشبث به كالغريق الذي يامل بالقشة التي تطفو على سطح الماء .

وتذكر اشياء كثيرة اخذت تدق في رأسه كانها الطبول . كان يحس سابقا بانه كلما اقترب من احداهن ابتعد عن نفسه ، ولكنه هذه المرة عاجز عن التمييز وكأن معظم تفكيره قد أصيب بشيء من الخور .

ـ ويحي بماذا افكر ولماذا . لابد أن يكون عقلي مريضا . اجل انه امتحان قاس أواجهه. كم اريد ان انتزع نفسي من هذا القلق العقيم ولكن أجدني لاأملك حتى نفسي .

وفي الموعد المحدد برسالتها ودون أن يصل الى قرار محدد وجد نفسه وجهاً لوجه

معها . وكان يبدو عليها وقد هيأت نفسها لتمانعه بل وتعاقبه اذا وجدت الفرصة موانية . كانت على وشك أن تقول له كان لاينبغي أن تتصرّف بهذه الطريقة عندما احست فجأةوكان فمها محشو بالقطن . لقد بادرها بأن كل ما يرجوه أن تكون قادرة على فهم شعوره .

ـ انه من الصعب أن اشرح الامر حتى لنفسي . وعليك ان تتسلحي بالصبر معي . وانني أنحي باللائمة على نفسي المليئة بكثير من النقائص . فأنا أناني ومتردد وهذا ما تودّين قوله أليس كذلك ؟ (والانسان ضحية حقائقه واعترافاته وعليه أن يدفع شيئاً) وأغلق على فكرها واحتارت فيما يجب ان تقول او تفعل وبررت لنفسها بأن ماحصل تتحمله الاقـدار وليس طـارق .

وتكررت اللقاءات بينهما في اكثر من مكان واكثر من مدينة وصارت لهما في كل خلـوة حكاية إلى الحد الذي لم يعد بامكانهما ان يصمدا على المقاومة ولن يستطيعا الفكاك مـن طغيان لحظة اللقاء المنفرد والقاهر . واحسا بفوران عواطفهما القاسمة كالنار في الغابة .

في البداية كان صدودها يصل إلى الحد الذي يكاثا مع شوقها ، ثم أصبحت لاتحسب حساباً للخوف الذي بدأ يتهزم أمام اطمئنانها إليه . فطارق فيه شيء غامض يوحي بالثقة والاعتداد ؛ بل تحول هذا الخوف إلى سحر خاص يدغدغ أوتادها ويمسد كبرياتها . كانت في كل مرة وهي بين ذراعيه تحس انها خفيفة ، حلوة مرحة وقد تغلغل إلـى سراديـب نفسـه الداكنة . وان طارق على وشك ان يكون لها . وقالت لنفسها .

ـ وسأكون أنا له لو طلب مني ذلك ، وستتلاشى كل انواع المقاومة امام طغيان سروري، وليذهب الحرص إلى الجحيم .

(والناس بطبيعتهم يتجاوزون الحدود عندما تغمرهم سعادة عظيمة) .

إلا أن هذا الفرح العارم كان يمر سريعاً خاطفاً كالشهقة . انها تشعر حقا بأنهـا نجحت في حبه وبنفس الوقت تشعر بأن ما نجحت به لا يساوي شيئاً البتّة في عالم واقعها . عالم اسرتها ، وعالم زميلاتها . انها تصل بلحظة واحدة ذروة النصر والهزيمة معاً . انها بذلك تمارس التفاهة الكاملة لحياتها عندما تجهش بالبكاء وتنتحب كالطفل . وأصبحت الآن هدفاً لشعور مقلق . يكاد يفترسها شعور بأن سني العمر تهرب من بين أصابعها لقد احسّت انها كبرت خلال أيام ، وبالرغم من ذلك فقد كانت تنتظر ساعة اللقاء مشدودة متوترة .

(فالمهم هو الا نشفى ، وانما ان نعيش مع امراضنا) .

كان العالم بالنسبة إليها يتوقف بين اللقاء واللقاء واصبحت تخاف فعلاً أن تحين نهاية الدنيا قبل أن تحين ساعة اللقاء التالي . أن سرورها الذي تعيشه لحظة اللقاء عنيف وطاغ لكنها لم تستطع تملكه طوال الوقت .

نحين يشتد إلحاح نداء السعادة يحدث ان السوداوية تنبثق في قلب الانسان) . وتحس فجأة انها سقطت في الهوة التي تفصل بين افراطنا الروحي وبين غبطات الجسد قصيرة الأمد .

لجأت الى الهروب والابتعاد فكانت تتوارى دون ان تترك اي تفسير معقول ، فتمضي الايام وتقطع الاميال دون ان تبتعد قيد أنملة عن قدرها . وانطلقت هائمة مرة أخرى تفتش عن بقعة تجد فيها بعض الرطوبة تحافظ فيها على بقية طلوية روحها التي تكاد نار الفراق والضياع أن تجففها . واخذت تطوف بين ذكرياتها ورسائلها وقصص حبها السابقة وتعدو من مدينة الى اخرى لا لشيء ولكن بحثاً عن نفسها . انها تبحث عن مبررات للاستمرار بتجربة اصبحت تخافها ذلك الخوف الذي ينتاب الانسان عند مواجهة امر يصعب حسمه . وتتساءل ماذا جرى لها . وما الذي أصابها حتى تفعل ما فعلت وحاولت ان تتذكر بدقة كيف بدات مع طارق . وعندما قابلته هذه المرة بالصدفة راحت تغمره بالقبل دون وعي .

(والجبناء وحدهم يستسلمون للنسيان) .

كانت تقف أمامه مشدوهة بنفاذ نظراته ، وصمته الحزين . وكان صمته يثير اهتمامها بقدر اكبر مما يثيره عندما يتكلم . وما دامت أفكاره لا تلاقي التقدير حتى في بيته فقد اعتاد الصمت . كان طارق يعرف ان كل ما ابدته من أسباب لغيابها المفاجيء مختلف . ولكنه يبرر لها تصرفها هذا ، فهي تعتقد ان افضل الرجال من يطلب الزواج ، وان نداء الزواج الشرعي اقوى من نداء الحب المهووس ، إلا انه لديها القدرة على قول الكذب بطريقة يصعب معها كشفه او تمييزه عن الحقيقة .

انها تخاف ان تشاركه آراءه الغامضة والتي لا تزال تجهلها كما يجهلها هو نفسه . وللوصول الى اليقين والمعرفة لابد من دخول التجربة ومعايشتها . وهي لكي تقطع المسافة التي تفصلها عنه عليها ان تقفز من خلال دواليب النار المشتعلة والتي تتهيبها وترتعد لمجرد

التفكير بهذه اللعبة ، لان ذلك يتطلب منها الكثير الكثير . ثم لماذا تزج نفسها في معركة تدرك للوهلة الأولى انها مدحورة فيها ، لاسيما وأنه بمقدورها ان تختار الطريق السهل الذي تسلكه عامة الناس ، أولئك الذين يحبون أن يفعلوا ما اعتادوا فعله دون تفكير حتى ولو عرفوا ان هناك طريقاً أفضل .

فلا زالت الشكليات والمظاهر الجوفاء جديرة بالملاحظة والتقدير في مجتمعها . ومرة اخرى وجدت نفسها تعيش حالة القلق والضياع بين التمرد وقبول الامر الواقع . كان يجب على طارق بدوره لكي يلتقي بها أن يقفز من خلال النار أيضاً ولكن من الجانب الآخر . وقد ابدى استعداده أكثر من مرة على الرغم من العهود التي اخذها على نفسه وامامها بأنه لن يلتزم بشيء يضيّق حدود حريته ، وكان يمكن ان يتم كل ذلك لولاإدراكه بأنصورته القديمة التي انطبعت في ذهن حبيبته كفارس احلامها الوحيد "تتغير" كلياً ويصبح شخصاً آخر غير الذي احبته ، وسترفضه بالتالي الى الأبد ، فيخسر نفسه كما يخسر حبه .

وفكرت هي بحكايتها الغريبة التي لا ينتهي فيها شيء ، وانما تبدأ فيها الاشياء مرة اخرى من نقطة البداية . فالحب الذي بدأ في الذروة رغم الهبوط الذي تعرض له لايزال في الذروة نفسها .

وسألته مرة : ماذا لودفعت وسط النار فابحث عنك ولا اجدك الى جانبي فافقدك كما تفقدني ؟

ورغم اقراره بأنها انتزعت منه كل اعترافاته بحبه لها حتى دون ان يبوح بها ، التفت إليها بنظرة ممتلئة باستفسار ابله .

انه دائماً يخطيء الهدف . إلا انه يستمر في سيره ـ تماماً كما تفعل هي ـ مقتنعاً بامكانية انتصاره مع ادراكه ان كل الابواب موصدة .

(كالأعمى المتلهف إلى الرؤية الذي يعرف أن الليل لن ينتهي ابداً .. كصخرة سيزيف التي ما تزال حتى اللحظة تتدحرج) .

وعندما حاول طارق ان يلملم كلماته ليجيب عن سؤالها الحاسم ، نهض من فراشه حانقاً . وأدار مفتاح النور واعتدل في جلسته على السرير وتساءل ماالذي جعله لاينام تلك الليلة .

مــواقف

تجربة «الوهم» وتجربة «الخيال» في القصيدة العربية الحديثة

خلدون الشمعة

« الوهم » في الشعر هو القطب المقابل للخيال . والشاعر «الواهم» أصبح ظاهرة في تجربة القصيدة العربية الحديثة . وقد تَسَرْطَنَت هذه الظاهرة إلى الحد الذي جعل من الضروري التذكير بأن « الوهم » حالة ميكانيكية تعتمد أضغاث الأحلام أساساً في توليد الصور ، بينما « الخيال» خلاق ومبدع ، ويستمد عناصره من الواقع ، يركبها تركيباً جديداً . الوهم قدرة على الاختلاق وأما الخيال فقدرة على الخلق . ولهذا فليس صحيحاً ان الوهم حالة تنتمي إلى الفئة نفسها التي ينتمي إليها الخيال . كما ان من الخطأ القول بأن « الخيال » مرحلة متقدمة من « الوهم » ؛ أو انهما مجرد مصطلحين صكاً للدلالة على معنى واحد كما يوحي «تعريف الجرجاني» الذي يطلق على «المخيلة» اسم «المتخيلة » ، ويعرفها بأنها : « القوة التي تتصرف في الصور المحسوسة والمعاني الجزئية المنتزعة

منها ، وتصرفها فيها بالتركيب تارة والتفصيل أخرى ، مثل إنسان ذي رأسين ، أو عديم الرأس ، وهذه القوة إذا استعملها العقل سميت مفكرة ، كما انها إذا استعملها الوهم والمحسوسات مطلقاً سميت متخيلة . »

ويعود التمييز بين « الوهم » وبين « الخيال » في النقد الأدبي الحديث إلى مالايزيد على قرن ونصف القرن ، أي إلى الفترة التي كتب فيها « كولردج » سيرته الأدبية Biographia Literaria في عام (١٨١٥) . فقد أعلن « كولردج » آنذاك انه اكتشف فجأة ان « الوهم » و « الخيال » ملكتان متباينتان تبايناً كبيراً بدلاً من أن تكونا ، كما هو شائع ، إسمين لمسمى واحد ، أو الدرجة الدنيا والدرجة العليا لقوة واحدة .

وأهمية هذا الاكتشاف تكمن في ان التمييز بين تجربتي الوهم والخيال قد أتاح الفرصة للتمييز بين نوعين من الشعر ، كل منهما يرى في الصورة أساساً للشعر . ولكن أحدهما يرتبط بالواقع مهما اشتد اعتماده على الصور ، والآخر ينسج نسيجه الهلامي من أضغاث الأحلام . وقد كان للانتقال الثوري إلى القصيدة العربية الجديدة ، أن أعيد طرح ثنائية « الوهم » و « الخيال » في التجربة الشعرية ، على نحو يبرز دور الوهم في اصطناع النموذج الشائع للقصيدة العربية الحديثة . وهذا النموذج الشائع لاينفي بطبيعة الحال وجود نماذج متميزة تتمثل في معظم نتاج الرواد : السياب والبياتي وأدونيس وخليل حاوي وصلاح عبدالصبور ومحمود درويش وبعض الأسماء الأخرى التي تنتمي إلى أجيال أخرى . إن شعر هؤلاء يظل بهذا الاعتبار علامة لايمكن إنكارها على بروز القصيدة العربية الحديثة التي كثيراً ماتتفوق على مثيلاتها في الآداب المعاصرة الأخرى . إلا أننا نبحث هنا عن النموذج الشائع

للقصيدة العربية الحديثة، باعتبار انه يشير إلى ظاهرة مرَّضية على النقد الأدبي أن يستقصيها وأن يسهم في استجلاء الحقائق النقدية التي تتصل بهـــــا .

إن ثنائية الوهم والخيال في الشعر العربي الحديث ، هي في حقيقة الأمر ، تجسيد لعدد من الثنائيات الأخرى التي يقف كل طرف منها إزاء الطرف الآخر ، قطباً مقابلاً أو نقيضاً . ويمكن أن نذكر من هذه الثنائيات :

١. الاستعادة والإعادة .
٢. الرمز والمجاز .
٣ . الغموض والإبهام .
٤ . التداعي والاستطراد .
٥ . الوحدة العضوية والوحدة الموضوعية .

ويبدو ان كل طرف من أطراف هذه الثنائيات مرتبط بطريقة ماباًحد طرفي الثنائية الأساسية ، أي بالوهم والخيال . وسنتعرض الآن لكل ثنائية على حدة :

١ . الاستعادة والاعادة

العلاقة بين القصيدة العربية الحديثة وبين التاريخ هي أقرب إلى أن تكون علاقة يسيطر فيها « وهم » الإعادة على « خيال » الاستعادة . فالتاريخ العربي تمتح منه القصيدة بطريقة ترى فيه مجرد تكرار أبله لحوادث متعاقبة . وهذه الرؤية تجعل الشاعر ينصرف عن استعادة التاريخ استعادة تعتمد الخيال الخلاق الذي يشكل الصور على نحو يكون فيه مسيطراً على الرموز والاستعارات التاريخية بدلاً من أن يكون أسيراً في قبضة التاريخ أو مذعناً إذعاناً ميكانيكياً للماضي . وبعبارة أخرى

فإن الشاعر العربي غالباً مايرى الحاضر بباصرتين مستعارتين من الماضي. وهكذا فالماضي يفسر الحاضر عوضاً عن أن يفسر الحاضر الماضي . ويخلق هذا الاتكاء الذي (يعيد الماضي) ولا (يستعيده) ، الشعور بأن الحاضر هو مجرد تكرار ميكانيكي للماضي وبالتالي فإنه يكشف عن دور الوهم في تشكيل القصيدة على حساب قدرات الخيال الخلاقة التي تستحيل علاقتها بالتاريخ ورموزه ومعانيه عادة ، إلى (استعادة) خلاقة تحاوره وتساجله وربما تنقلب عليه . وهذا يعني ان صلة القصيدة بالتاريخ عندما تقتصر على إعادة حوادث التاريخ أو إعادة رموزها أو النظر إلى الواقع من خلال مفردات الخليفة والعبد والحصي والجواد والناقة والجمل والسيف والرمح والبادية والواحة . . الخ ، فإنها إنما تضيق من أفق الرؤية وتوحي بأن الحاضر امتداد سكوني لماض ساكن ، ولا تكشف عن وجود تصبو المخيلة إلى استعادته وفق شروطها أي إلى خلقه كحقيقة محتملة ، بل إنها تكرس صورة للحاضر أسيرة كلياً للماضي . ألم يقل « كيتس » ان ماتقتنصه المخيلة باعتباره جمالاً لابد أن يكون الحقيقة ، سواء وجد أمامنا أم لم يوجد . ؟ . .

ألم يشبه « كيتس » الخيال بـ (حلم) آدم الذي استيقظ فوجد ان الخيال حقيقة . ؟ . .

إن مثل هذا الاقتناص يغدو شبه مستحيل طالما ان الرؤية مكبلة بالتاريخ إلى الحد الذي يتقلص فيه القاموس الشعري إلى جملة من المفردات القديمة والمهترئة التي يغل تكرارها الغبي صورة الحاضر وينشئ داخل حركة الحداثة نفسها تقليدية جديدة غير مستقرة .

كما ان المخيلة التي تطوي كشحاً عما هو قائم هنا والآن ، المخيلة اللااجتماعية ؛ أي المعزولة عن المجتمع ، والمخيلة ضد الاجتماعية ؛

أي الباحثة عن أسماء لمسميات الحاضر في أسماء الماضي ، والمخيلة المقيدة ، أي التي تختنق روحها في الصور التي تزعم الانقلاب عليها ، المخيلة غير المنطلقة ، أي التي يعزز سكونها الإيقاعات التاريخية التي أصبحت وتائرها محسوبة على نحو لايمكن معه الإفلات من التكرار ، هذه الأنماط من المخيلة إنما تكرس في تجربة القصيدة العربية الحديثة نوعاً من الميكانيكية يجعلنا نعيد النظر في تسميتها بـ « المخيلة » لنرجح تسمية أخرى هي « الموهمة » إذا صح التعبير . إن « الوهم » كما أسلفت يتسم بـ (الميكانيكية) مقابل (الخلق) الذي تتميز به « المخيلة » . وعلى ذلك فالوهم هو الذي يكمن وراء تجربة (إعادة) التاريخ بدلاً من (استعادته) ، أي إعادته على نحو خلاق .

٢ . الرمز والمجاز

مادام الرمز يتكئ على صور وكلمات مكررة مسبقاً ، فإن ذلك غالباً مايعني انحدار الرمز الفني إلى مستوى مجاز تقليدي ومجرد ومفعم بعقلانية مجدبة .

وهكذا يقترن الرمز بالخيال فيما يقترن المجاز بالوهم . وتقف حركة الحداثة عموماً وحركة النقد الجديدة في مواقع معادية لهذا النوع من المجاز والذي يؤكد على انه إنما يدشن نوعاً من الخطابية يمتح من صور جاهزة ومعقلنة ومنتقاة من الموروث التاريخي والموروث الشعري لكي تنوب عن الحاضر والإمكانات التي ينطوي عليها هذا الحاضر في توليد صور تصدر عنه . وبذلك فإن الماضي الذي أصبح مألوفاً ، يفترض أن يقوم الآن بالتعبير عن الحاضر . وبالتالي فإن القصيدة العربية المعاصرة غدت أسيرة لتقليدية جديدة لاتعبر عن عصر غير تقليدي أو يصبو إلى أن يكون غير تقليدي .

٣ – الغموض والابهام

درج النقد العربي على أن يرى في الوضوح المصطلح المقابل للغموض . وبهذا يكون قد جعل من الوضوح خصيصة إيجابية ومن الغموض خصيصة سلبية . وهذا التقييم يستند بطبيعة الحال إلى قيم البلاغة القديمة . غير أن الغموض كما تقدمه تجربة الشعر المعاصر عموماً أصبح من الخصائص التي تقترن بالشعر الحديث اقتران وجوب . وبعبارة أخرى فإن هذا يؤكد على التعبير المُوارب الذي تتميز به التجربة الشعرية الحديثة . وإذا كان كتاب الناقد الشهير « وليم إمبسون » الذي نشر في الثلاثينات تحت عنوان « سبعة أنماط من الغموض » قد عزز الرأي القائل بأن الغموض سمة لغوية من سمات الشعر الحديث ، فإن هذا النوع من الغموض يختلف اختلافاً بيناً في معناه عن المقصود من مصطلح الغموض الذي يتردد في النصوص المناهضة لتجربة الحداثة في الشعر العربي.فالغموض يرتبط عادة بتعددية « التأويل » ، في حين كان الوضوح يرتبط بأحادية « التفسير » . وبالطبع فإن تعددية التأويل هي حصيلة لعوامل كثيرة منها التعبير المُوارب عموماً والاعتماد على الصورة بشكل خاص . وهذا لابد أن يؤدي إلى قدر غير ضئيل من صعوبة الإيصال . ولكن صعوبة الإيصال لاتعني استحالة الإيصال دائماً . إذن فثمة حالة متفاقمة للغموض يمكن أن نطلق عليها مصطلح الإبهام . والإبهام هو درجة مَرَضيّة من الغموض . وقد يكون هذا التمييز غير موجود بهذا الحسم في المصادر اللغوية إلا انه ضروري جداً للمحاولات النقدية العربية التي تروم تأصيل مصطلح نقدي يصلح لسبر التجربة الشعرية المعاصرة .

وقد اقترح أحد الأصدقاء أن يكون مصطلح « الالتباس » أو «اللبس» في المعنى هو المقابل لمصطلح Ambiguity لكنني أرى اننا إذا كنا نبحث في الشعر عن « معنى » أو عن « المعنى » وحسب فإن هذه الكلمة تكون مناسبة . أما إذا كنا نقر بأن القصيدة الحديثة ليست (معناها) أو (معانيها) وحسب ، فإن مصطلح « الغموض » يبدو لي عند ذلك أشد اقتراباً من المقصود . وحين يصل الغموض في النص إلى درجة يغدو معها النص كتيماً وغير ممكن التواصل معه ؛ فإنه يكون مبهماً . ومصطلح (الإبهام) هذا هو المقابل لمصطلح Obscurity .

إن إحدى المهمات العاجلة للنقد العربي هي أن يتصدى لظاهرة الغموض والإبهام في الشعر العربي الحديث . صحيح ان مسألة التمييز بين الغامض وبين المبهم تظل من أعقد مسائل النقد . إلا أن ثمة مفاتيح يمكن أن نستجلي بواسطتها حدود كل مصطلح من هذين المصطلحين . فالغموض يقترن عادة بوجود لغة المفارقة والتوتر ، في حين يقترن الإبهام بعدم وجود حس الاتجاه . والبون الفاصل بين الغموض وبين الإبهام هو نفسه البون الفاصل بين الوهم وبين الخيال . الوهم متصل بالإبهام والخيال متصل بالغموض . الوهم الذي يكمن في النص الشعري المبهم كموناً ساكناً ، متأسناً ، يكون في النص الشعري الغامض خيالاً جائشاً ، خلاقاً أو قوة تكشف عن نفسها في التوازن أو التآلف بين خصائص متعددة أو على حد تعبير « كولردج » الذي يرى ان هذه القوة تكشف نفسها في : « التوازن أو التأليف بين الخصائص المتضادة أو المتطابقة ، بين الاتفاق والاختلاف ، بين العام وبين العيني ، بين الفكرة وبين الصورة ، بين الفردي وبين التمثيلي ، بين الإحساس بالجدة والإحساس بالطزاجة ، بين

الأشياء القديمة والأشياء المألوفة ، بين حالة من العاطفة أكثر من عادية ، وبين نظام أكثر من عادي » .

إن هذا التوازن الذي يتجلى في العديد من تجارب حركة الشعر الحديث قد انقلب بدعوى الجموح التعبيري أو الرغبة في التجريب التي لاتلتفت إلى ضرورة بناء توازن أو منطق خاص داخل فسحة الجموح نفسها ، انقلب إلى تكديس صور متجاورة لايربط بينها في أحسن الأحوال غير المنطق السببي الذي تنهض عليه تجربة النثر . وبعبارة أخرى فإن الوهم يحل هنا مرة أخرى محل الخيال ، وهو بالتعبير الكولردجي : تجميع للصور التي ليس لها علاقة طبيعية أو أخلاقية تربط فيما بينها ، وإنما هي تربط قسراً من قبل الشاعر عن طريق اللجوء إلى مصادفة من المصادفات .

وعلى ذلك فإن التمايز بين الخيال والوهم ، تمايز بين الفعل والافتعال ، بين الخلق والاختلاق ، بين الغموض وبين الإبهام . ومن المفارقات الغريبة ان المدقق الملاحظ لابد أن يكتشف في عدد غير قليل من نماذج الشعر العربي الحديث، ان تعذر الإيصال ليس ناشئاً دائماً عن خلل أو تقلقل تعبيري وإنما هو حصيلة لنمو تقليدية جديدة داخل حركة الحداثة ؛ أصبحت استجابة القارىء العربي المدرّب على إثرها في شبه عطالة كاملة . وبدلاً من أن تكون الصورة المألوفة واضحة وضوحاًفاضحاً في تقليديتها فإنها تصبح مبهمة أي غير قادرة على الإيصال .

٤ ــ التداعي والاستطراد

التداعي توليد شعري للصورة من داخل تجربة محددة . أما الاستطراد فهو انتقال من موضوع إلى موضوع آخر . وتبرز ثنائية التداعي والاستطراد

كرديف لتجربة الخيال والوهم في القصيدة العربية الحديثة . ويبدو ان تأثير القصيدة العربية القديمة التي كانت تنهض في بنائيتها التعبيرية على تعددية المعاني يبدو ماثلاً في ظاهرة سيطرة لغة الاستطراد على العديد من النماذج الشعرية التي تزعم انها تنطلق من منطلق الحداثة، يقول «كروتشه» : «الفن يحكمه الخيال على نحو متميز .. والصورة هي ثروته الوحيدة . إنه لايصنف الموضوعات ولايقدمها حقيقية أو متخيلة ولايحققها أو يعرفها وإنما يشعر بها ويقدمها » .

ولكن عندما تكون الصور بدائل ميكانيكية لموضوعات أو لمعان متعددة ، كل معنى منها يتصل بالآخر اتصال استطراد ، أي يتصل اتصالاً خارجياً ، فإن الصور تغدو محكومة بمنطق الموضوع أي بمنطق نثري يؤدي بدوره إلى تجاوز الصور أو تراكمها بدلاً من تواشجها وتداخلها . ولعل هذا يلقي شيئاً من الضوء على مسألة الغموض والإبهام التي تعرضت لها قبل قليل .

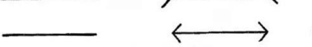
وتنطوي ثنائية التداعي والاستطراد على أهمية خاصة في النقد الحديث باعتبار انها تتصل بمسألة الوحدة العضوية والوحدة الموضوعية في القصيدة العربية المعاصرة . لقد كانت الوحدة الموضوعية أي وحدة الموضوع أو الموضوعات في القصيدة العربية التقليدية تتحقق وفق نهج استطرادي أي ان الصورة تنقلنا بانتقالها إلى صورة أخرى ، إلى موضوع آخر . أما الوحدة العضوية فهي تفترض حالة توليد داخلي للصورة . وسنعرض فيما يلي لهذه الثنائية وانعكاسها على النموذج الشائع في تجربة القصيدة العربية الحديثة .

٥ ــ الوحدة العضوية والوحدة الموضوعية

لايعود مصطلح الوحدة العضوية في الثقافة الحديثة إلى أبعد من مصطلح (الوهم) و (الخيال) . ويرى بعض النقاد المعاصرين ان الشكل العضوي في الأدب إنما ينطوي على إشارة بيولوجية مضللة قدر ماهي كاشفة لمقياس نقدي يصلح مسباراً للنموذج الشعري الجديد .

إن مصطلح الشكل العضوي يثير في المخيلة مسألة التأكيد على البنية العامة للعمل الأدبي وبالتالي العلاقة بين الأجزاء وعلاقة هذه الأجزاء با لكل . وهذا الكل ليس مجرد مجموع الأجزاء كما هو الشأن في الكل الرياضي وإنما هو أكثر من مجموع الأجزاء . وهذه الفكرة التي تستعير ثوبها من البيولوجيا ، إنما تستمد الكثير من شرعيتها من علم النفس المعاصر وبخاصة الانطباعات البصرية المتعلقة بالطول واللون والنسيج ومدى البروز . إن هذه الانطباعات يمكن تبديلها ليس عن طريق تغيير الأجزاء التي تقدم هذه الانطباعات وإنما عن طريق السياق الذي تعمل فيه هذه الأجزاء . والمثال التالي الذي يقدم خطوطاً أربعة متساوية في الطول رغم ما يبدو من اختلاف بين نموذجين منها ، يمكن أن تكون له دلالته :

آ.
ب.



يزعم بعض النقاد ان تأثيراً مشابهاً لهذا التأثير الذي يحدثه خداع البصر حين نضع خطين متساويين في الطول ضمن سياقين مختلفين يمكن أن يتحقق إذا ما كان الوسيط لغوياً . وبقدر ما نستطيع أن نصف من التفصيلات المتعلقة بالشكل ، باعتبارنا لغويين ، بقدر ما نحتاج كنقاد

أدبيين إلى مقياس لتصنيف وتنظيم هذه التفصيلات بط ق تتصل بدورها في العمل الأدبي . وهذه هي المشكلة الرئيسية التي يجابهها النقاد المهتمون بالأسلوبيات Stylistics . وحتى نكتشف المزيد عن الطريقة التي تعمل اللغة بواسطتها ، يمكننا أن نسترشد على الأقل بالهدف من تقديم أوصاف الأجزاء داخل الكل وبالتالي الدور الذي تقوم به الأجزاء في تقديم الكل العضوي .

إن الوحدة العضوية كثيراً ما تلوح في النموذج الشائع للقصيدة العربية الحديثة وكأنها وحدة موضوع أو وحدة موضوعات أي وحدة موضوعية.

وهذا يحيلنا إلى سلسلة الثنائيات التي تندرج تحت الثنائية الأساسية ، ثنائية « الوهم » و « الخيال » فإذا كانت الوحدة العضوية المثل الأعلى للخيال الفني ، فإن من أشد الأمور إلحاحاً ألا يخطىء النقد في التمييز بين هذا النوع من الوحدة الذي يتولد من الصور بواسطة الخيال الخلاق ، وبين الوحدة الموضوعية التي يسيرها الوهم فتكدس الصور باعتبارها بدائل ميكانيكية لموضوعات ، وتنشىء علاقة مصطنعة بين الأجزاء .

* * *

وقـــائـــع

السينما السياسية والتزييف الطليعي

صلاح دهني

منذ سنوات عديدة ، وعلى نحو منتظم ، تضرب لنا المانيا الديموقراطية موعداً مع نخبة من افلامها .. في هذا الموعد المتجدد سنة بعد سنة ، نقف على أحدث تطورات السينما هناك وآخر إبداعات فنانيها .

على ان افلام هذه السنة تحمل خاصية معينة ، إذ قصد بها – لاأدري لاي سبب – ان تمثل نماذج من الانتاج الالماني على مدى الحقبة الفائتة كلها ؛ إضافة الى عدد من الافلام الجديدة يقع على رأسها فيلم كبير هو « غويا » . هذا صحيح ، لكنها تتضمن فيلماً يستغرب المرء مشاهدته في « اسبوع » منتقى هو « آباش » ، أحد افلام الهنود الحمر التي جرت المانيا على انتاجها ؛ من وجهة انسانية بحق ، وعلى غير النمط الامريكي العنصري .. وبين الافلام مجموعة سياسية بحتة ، لكنها تحوي فيلمين استعراضيين غنائيين من النوع الذي يحرز دوماً هناك نجاحاً جماهيرياً واسعاً . وتظل تفتقد عدداً من الافلام التي تظل تستلفت الانظار بنحو أو بآخر – حين لاتحرز الجوائز – في مهرجانات السينما الدولية خلال السنوات الاخيرة . وهذا امر يؤسف له فعلاً لان ذلك كان جديراً بأن يطلع جمهور صالة الكندي – الذي تعود الافلام الطليعية والتجريبية والمعقدة احياناً – على أفضل المنجزات والتجارب الجديدة والمهمة لدى الدولة الصديقة .

والواقع انه لا احد يماري في ان السينما الالمانية سارت شوطاً طويلاً منذ وجدت كسينما

اشتراكية ومنحت شهادة ميلادها منذ حوالي ثلاثين سنة ، وبعد فترة قصيرة من اطلاق آخر رصاصة أجهزت على النازية . من الناحية التقنية تقدمت كثيراً ، وكذا في المعالجة السينمائية التي أصبحت ـ في كثير من الاحيان ـ اقرب الى تشويق الجمهور والاهتمام بترغيبه ؛ نلاحظ ذلك الآن أكثر من أي وقت مضى ، نحن الذين افسدت أذواقنا أنماط من الأفلام الغربية ـ وحتى المحلية والمصرية والهندية ـ شأنها الأول دغدغة العواطف والمشاعر ، وشأنها الاخير أن تحمل رسالة شريفة .

فالسينما هناك تظل أمينة للمثل التي يجب أن تحملها سينما تثقيفية توجيهية . وكنت أعلم من سنوات طويلة أنها تنتج ١٥ فيلماً طويلاً كل سنة . فلما سألت الوفد الالماني الذي رافق اسبوع الافلام علمت انها مازال تنتج الى الآن ١٥ فيلماً طويلاً في السنة عن منهج وخطة . (يا للعقلية الالمانية الغربية في دقتها وحساباتها !) . وفي سيرة السينما تظل الافلام تستجيب وتخضع ، للخط التوجيهي الذي رسمته لها الدولة وحدده وزير الثقافة بول فاندل منذ عام ١٩٤٧ بلا تحوير او انحراف او ميل ، بل في دأب وسعي .. وتقول تلك الخطة :

« يجب ان يقدم الفيلم اليوم اجابة عن جميع الاسئلة الحيوية المطروحة داخل شعبنا ، ويجب ألا يكون بعد اليوم أفيوناً للنسيان ، بل عليه ان يمنح أوسع جماهيرنا القوة والشجاعة والارادة والفرح بالحياة . غير ان من واجب السينما ان تستهدي بالشرف الذاتي الباحث عن الحقيقة ، الذي ينقل الحقيقة ويوقظ الوعي . »

... ليتنا نتمكن ذات يوم ان نقول ذلك عن جميع الافلام التي ننتجها نحن او نعرضها في صالاتنا .

خسر القصر
وكسب التاريخ

عندما عرضوا علينا فيلم « غويا » في حفلة افتتاح « اسبوع افلام المانيا الديموقراطية » تذكرت حادثة جرت في العام الفائت .

كان ذلك خلال اسبوع للافلام السوفياتية عرض فيه فيلم « غويا » ذاته ؛ لكن بنسخة روسية ، إذ أن الفيلم كما هو معروف ، انتاج مشترك الماني ـ سوفياتي . في ذلك العرض تصادف ان أخطأ العارض في دار السينما ، فعرض على الحضور في الصالة الجزء الثاني من الفيلم قبل جزئه الاول . وعبثاً حاولت يومها أن استدرك الخطأ في ذهني بعد استكمال العرض ؛ جاهداً ان اعيد تركيب المقاطع بتسلسلها الاصلي .. لكن الفيلم بقي مع الاسف مشوشاً في مخيلتي ، الى أن عدت فشاهدته الآن بنسخته الالمانية وبتسلسله الاصلي الصحيح .

ويا للفارق الكبير ، ويا للخيبة لو انني بقيت على الشعور الأول .. فالفيلم بحق عمل سينمائي كبير قلما جاءت بمثله السينما الالمانية المريضة ابداًبجانب من ثقل يبهظ كاهل العديد من انجازاتها . العمل هنا ـ على العكس ـ متزن ومتوازن ، ويشكل درساً رائعاً آخر المطاف ، ليس عن حياة غويا العظيم كفنان فحسب ، بل كذلك عن معنى حياته ومغزى عطاءاته .

وددت لو أن كل طالب فن ، في مجالات التشكيل وغيرها ، يرى هذا الفيلم ، وكذلك كل كاتب وشاعر . لعل الفنان يرى نموذجاً حياً ورائعاً عن معنى الالتزام ، بدل أن يقرأ عن الالتزام في المقالات والمجلدات : فقد ظل غويا « رسام الملك » والعائلة المالكة الاسبانية والبورجوازية الرفيعة في عصره وظل جديراً بالسمعة الكبيرة التي كانت له .

الى أن جاء حين آخر انتقل فيه من برود القصور وجمود الرخام اللذين انعكسا بكل ابهة واجلال في لوحاته التي طالما طربت لها وشربت عليها ارستوقراطية زمانه ـ الى معايشة الطبقات الشعبية المحرومة التي تشكل الوجه الاخر غير المجلل بالمساحيق لاسبانيا الخالدة ..

وهو منذ ذلك الحين ، منذ أن عانى مع المعانين ، وتألم وتعب وتعرى وجاع على دروب اسبانيا الطويلة ، تحول من نوع من الرسم الى نوع .. فكأنما أصابه من سحر ، شواظ من لهب مقدس .. فإذا روح جديدة تسري في لوحاته ، واذا آلام أمته تصرخ من الاعماق في ألوانه ..

وهو منذ ذلك الحين خسر مباركة الكنيسة والقصر ومحاكم التفتيش ... وهو منذ ذلك الحين كسب الدنيا وانحاز الى جانبه التاريخ .

آراء غريبة

في مسائل شرقية

رافق اسبوع الافلام ولدبتالف من فنانين معروفين في المانيا هما ويتر فولفوجو هاسلر .

«فولف» يقوم بمهمة لانعرفها في السينما العربية ، ولايوجد لها مثيل عادة في معظم السينمات الغربية ، مهمة الـ «دراماتورغ» ، وهي حسب فهمي لها ، وبتبسيط كبير ، مهمة الاخصائي الذي يقع عليه ضمن مايقع ، استكمال العناصر الدرامية للسيناريو الذي يكون احد الاشخاص تقدم به الى الاستديو لانتاجه . وبهذه الصفة شارك « فولف » في التكوين النهائي لسيناريو فيلم «غويا» الكبير .

أما «جو هاسلر» فشخص مليء الجسم ، ضحوك ، معاقي البسمة ، حاضر اللحن وخفيف دم . وأفلامه ـ لاغرابة من بعد ـ من النوع الخفيف ، وخفيف الدم .

هاسلر مخرج فيلم « صيف حار » الذي لقي نجاحا جماهيريا خلال السنوات الثالثة في سورية ، ومخرج « لا تنش يا حبيبي » الجديد الذي اتوقع له نجاحا اقل .. في جلسة خاصة مع هاسلر حضرها بعض الزملاء ، تحدث عن السينما العربية ..

كلا ، هو ليس اختصاصيا ، وكلا ، هو لم يشاهد الكثير من الافلام العربية ، لكن من خلال ما رأى شكل فكرة عنها .

السينما الجزائرية ، بلاريب ، هي الاولى في العالم العربي بما قدمت من اعمال جليلة وكبيرة ومفاجئة . لكنها تظل متأثرة حتى في اكثر أفلامها « جزائرية » والتصاقا بالريف وبالثورة وبقضايا الشعب ، بالسينما الاوروبية .. فالناتج السينمائي يظل وليد الناتج الثقافي العام ، الذي يظل بدوره هناك وريث التأثير الفرنسي أولا أكثر من التأثير الحضاري العربي . بهذا المعنى ، السينما الجزائرية تلتحق بالسينما الفرنسية كوسيلة تعبير وطريقة تعبير ، أكثر من كونها جزءاً فعالاً من سينما عربية السمات شرقية التكوين .

السينما التونسية تتشكل من مجموعة محاولات .

السينما المصرية ، رغم بعض التألق ، تظل تجارية ، لاتنتمي الى شعب مصر ولا الى حضارة مصر . وهي ، على انها السينما الاوسع في عالم العرب ، السينما الام ، فإنها تظل هامشية ، ممحوة ، وتحمل تأثيرات سلبية تصنعها في غير المكانة التي كان يفترض ان تكون لها .

السينما في العراق تتخبط .

وفي سورية أعجبتني الافلام القليلة التي شاهدتها فيما مضى في المهرجانات ، وتلك التي عرضت علي في زيارتي هذه . انا لا اتحدث عن الافلام التجارية في القطاع الخاص . أقول فقط من خلال مارأيت ان المخرجين لديكم يجهدون لاستخدام السينما كوسيلة تعبير حقيقية وأصيلة تقارب مشكلات بلدكم . هذا أمر اساسي وخطير . فإن استمرت الحال على هذا المنوال ، برعاية الدولة ، فالسينما السورية ستحمل الراية خلال السنوات العشر المقبلة ، وستتفجر فيها طاقات كبيرة ومدهشة ، وستقف في الصف الاول بين السينمات العربية الاصيلة وسينمات العالم الثالث التي تتحرك لتتخذ مكانها فوق منصة الاعتراف الدولي .

ويضحك « جوهاسلر » ويضيف : قد لا أكون مخرجا سينمائيا كبيراً ، والنقاد فعلاً يبهظون كتفي الهشين بلواذع كلماتهم ، لكن هذا لايمنع ان تكون لي آرائي حول الفن الذي احبه والذي عايشته طوال العمر . ومن جهتكم

تأكدوا انني لا اتملقكم بحديثي ــ لستم مؤهلاً لذلك ولستم بحاجة انتم اليه ــ لكنها مجرد افكار تكونت في قناعتي .

هموم الطليعيين

طليعة الهموم

من التزييف الطليعي تحدث « ديتر فولف » « الدراماتورغ » ، أو « العالم السينمائي » كما قدمه بعض زملائنا في التلفزيون .

كان الحديث يجري في نقابة الفنانين وبحضور مجموعة من الفنيين والفنانين والصحفيين ، وبعد الانصات المهذب لاحوال السينما في برلين والمعهد السينمائي الشهير في « بابلسبرغ » (الذي تخرج منه أو مارس تدريبه فيه عدد من زملائنا) بدأ الاهتمام يستفيظ ويتنبه . كان ديتر فولف قد بدأ يتحدث عن هموم الطليعيين في السينما الالمانية ، وعما يعانيه الالمان والسينما الالمانية من طليعيتهم .

اذن فهناك ايضا يجربون برقاب العباد!

أجل هناك ايضا يجربون كما يجربون عندنا ، ويتغفلكون كما يتغفلكون عندنا .. لا بكلفة خمسة آلاف وعشرة آلاف ، وعشرات الألوف ، مدفوعة بالعملة المحلية والصعبة .. بل بمئات الألوف من دم الشعب .

كان فولف يتألم وهو يتحدث عن الافلام التي « تعرض امام صالات فارغة » . وعندما قيل له كم يكلف الفيلم عندكم ؟ أجاب : حد أدنى ، مليون مارك !

أن تكون طليعيا حقا أمر رائع ، بشارة مستقبل ، حفّار أقنية باتجاه الأيام المقبلة.. لكن أن تكون مجرباً فحسب ومجرباً فاشلا ، وبمال غيرك ، وبما يحرمنا من مستوصف أو مدرسة أو حتى مسرح أو دار سينما .. فهذا أمر خطير .

ولم لاتجرب من فضلك في ميدان الفيلم القصير فحسب ، المحدودالكلفة والضرر، بدل ان تناطح صخرة الفيلم الطويل ..

كان المتحدث متألماً ، وكان الحضور متألمين قد تحركت جراحاتهم .. السينما في القطاع العام مكتوبةٌ عليها التضحية ، هنا وهناك وفي كل مكان ، حتى عندالالمان العقلانيين .. فكيف بنا نحن العاطفيين الفطريين .

المهم في تلك الأمسية أن الحديث رحمّني وتلظى من بعد .. وبما أذكى جذوة الذكرى في الافئدة الأسوانة .. وفي هذا وحده خير وفيه عبرة .

الكاميرا لا تدور
وعليك تدور الدوائر

البلاء في القطاع الخاص السينمائي أدهى وأسوأ .

الفيلم في القطاع العام اذا لم يعجب السادة اصحاب صالات العرض (الذين يفهمون ما يريده الجمهور الذي وبوه على أيديهم ، الاباطرة الحقيقيون للسينما) نام في العلب وصعس واحتضر ومات .. ومات صاحبه غماً وكمداً ..

لكن البلاء الاعظم هو فيلم القطاع الخاص الذي يخضع لتركيبة معينة ، ووصفة محددة، ثم يطلق بكل أذياته ولواذعه على الجمهور.. ثم هات بالتخريب وبافساد وإفساد ..

خضت التجربة وخرجت منها بدرس . ليس هو بالدرس الجديد ، لكنه يظل درساً على اية حال : مؤداه أن المنتج الخاص صاحب مال يخاف عليه من كل انتاج جديد ، فتراه يسعى للحفاظ على الصيغ المجربة ويسلك الدروب المطروقة التي اثبتت جدارتها في اصطياد الجمهور : جنس ، طرب ، رقص ، لحم ، تشويق رخيص ، نظارات سوداء ، مطاردة ، عنف .. بما يلهب خدوج وعيوش وصبري وصبرية ..

ومن يقدر على تأمين التركيبة وتوليف خلائطها اكثر من الدهاقنة العتيقون في سينما عربية عتيقة ومجربة ؟ ..

القضية انني شاركت في كتابة سيناريو لفيلم كوميدي .. لكن يحق من النوع الحركي الذي لايقوم على التراشق بالكلمات والتباطح بالجمل ودغدغة العواطف باللافظ الجنسية المستترة .. كوميديا اصيلة بلغة سينمائية حقيقية كانت جديرة بان تستجر الجمهور وتفرحه وتطربه دون ان تنبطح أمامه وتسترضي ميوله بالشبق المخزي المتداول .

سمع المنتج بالسيناريو فهرع الينا . هو منتج جديد ، يقدر الكفاءات ، ساخط على السينما التقليدية الواطية ، البذيئة .. ويريد ان يبدأ خطواته الاولى في الفن ويوظف ماله وقدراته في خدمة عمل رفيع .

عال .. فرصة طيبة أن تجد منتجاً يفهم عليك ، ويخرج في الانتاج مثلما خرجت انت في الكتابة ، على الصيغ المكرسة والدائة ..

وتقدم السيناريو للانتاج ، حتى دون ان تنظم عقداً ، بغير حساب عاجل ، وبكلام غامض عن تفاهم مادي (قبح الله المادة ...) آجل ..

وتتوقع أن تدور الكاميرا مجسدة ما تخيلت وماكتبت في الليالي الطويلة .. لكن لا .. الكاميرا لاتدور .. والمنتج يحمل السيناريو ويسافر الى القاهرة (ليتعاقدمع نجوم « يحملون » الاعلانات) ، فيعود وقد غير وبدل في السيناريو .. ما القضية ؟

في القاهرة اقتنص المنتج الجديد واحدٌ من أولئك الدهاقنة العتيقون الذين خربوا

السينما المصرية على مدار نيف واربعين سنة وجعلوها سلعة استهلاكية مبتذلة .

هذا السيناريو ياولدي لايمشي عند الجمهور ، هات ..

بعد اسبوع ، يسلمه السيناريو وقد قلبه رأسا على عقب .. ونقرأ العمل نحن هنا ، فنتذكره ونستنكره .

ويدفع السيناريو الى ايدي المخرج ، (مخرج من اللي ببالك) .. وبدوره يدفع العمل بخاتمه العثمانلي ..

بعد الحمامين والقططين الحاميين نزعوا عن السيناريو حلته الجابرية الشيبية !!

وجعلوه يرتدي الجلباب التقليدي حسب التوليفة المجربة ..

..مرة أخرى نحر القطاع الخاص اداة خلاصه .. ومرة أخرى انتحر بعجزه وخوفه وتخبطه .

.. أما نحن الكتاب الذين سهرنا الليالي ووقفنا في كل موقف ولمعنا في كل مشهد ، في المحبة وفي الاحترام المطلق للجمهور .. فقد ضربنا كفا بكف وبكينا على الجهد المضيع ، واستقر في اعماقنا ايمان لايتزعزع : ان القطاع العام في اي ميدان ثقافي ، هو الوحيد القادر - بثقة وقوة - على حمل المشعل .

* * *

وقائع

سقطات المسرح السياسي

وليد مدفعي

يوصلنا تناول أي موضوع أدبي أو فني أو علمي ، بأسلوب فكري دقيق ، الى الانسان في نهاية الدراسة . وتبدو التقسيمات التي حددت مجال البحث في ميدان معين ؛ كالمسرح السياسي ، غير ذات وجود . لان النصوص الممثلة أو المدونة ، والتي ستجعل من المسرح السياسي واقعا ملموسا ، تتحرر هي عند دراستها ، وخاصة عندما تتعدد المواضيع في النص الواحد ، بغية اغناء متناغمة (اجتماعية سياسية) فيتوضع النص أمام الناقد كبلورة ذات وجوه عديدة .

ثم ان النقد الذي سيتناول تلك النصوص يقوم على التعاريف ، والتعاريف تستند بدورها الى الالفاظ والمصطلحات ، التي تستمد مدلولاتها من تعاريف سبقتها . فلا يتوازن النقد في فكرين ، الا بعد اتفاق تام على التعاريف ضمن حدي الالفاظ والمصطلحات المتعارف عليها .

ويبدو لنا بوضوح في كل دراسة ان التقسيمات المصنفة للمواضيع - أولا وآخرا - هي لتسهيل الدراسة . ونجابه بعد الاتفاق على تلك التقسيمات ضرورة وضع تصانيف جديدة

تعبر عن ظاهرة التمازج في النصوص . فبعد تحديد المسرح السياسي ، وتحديد المسرح الاجتماعي ، يلزمنا تحديد المسرح السياسي الاجتماعي أو غير ذلك من الاختلاطات .

بدأت بهذه المقدمة ، لأنني لا أستطيع أن ابحث المسرح السياسي دون تحديد هوية المسرح السياسي ، وما أوسع شقة الخلاف عند تعيين هوية المسرح السياسي ! ..

تطلق الصحافة اليومية والاسبوعية بسهولة عبارة مسرحية سياسية على عدد كبير من المسرحيات . ويستطيع أي مشاهد أن يجيبك ببساطة : حضرت البارحة مسرحية سياسية . ويقوم الاحساس السليم في كثير من الاحيان مقام الدراسة الطويلة ، ولكن ربط هوية المسرح السياسي بالاحساس غير معقول علميا ! فما هو اذن مضمون المسرحية السياسية قبل أن نبحث في سقطاتها ؟ ..

لا اجد تعريفا أكثر ملاءمة للمسرح السياسي من ربطه بتعريف السياسة المعتمد حقوقيا . فاذا كانت السياسة هي مجموعة الحلول اللازمة لمواجهة المشاكل التي يثيرها اشتراك جماعة من الناس في مجتمع انساني حسب معتقدات الجماعة وحسب توزعهم بين حاكم ومحكوم ، يكون تعريف المسرح السياسي هو المسرح الذي تستعرض مواضيعه الحلول اللازمة لمواجهة المشاكل التي يثيرها اشتراك جماعة من الناس في مجتمع انساني حسب معتقدات الجماعة وحسب توزعهم بين حاكم ومحكوم .

اذا قبلنا هذا التعريف وهو أوسع تعريف يمكن أن يعطى للمسرح السياسي سنجد اننا قبلنا ضمن المسرح السياسي كل أشكال المسرح السياسي الايجابي المحافظ دون المسرح الناقد الثوري ، لان القول في التعريف (ايجاد الحلول اللازمة) قد أخرج المسرح السياسي الذي ينتقد دون (ايجاد حلول لازمة) ، والقول (حسب معتقدات الجماعة) قد أخرج المسرح السياسي الذي لايلتزم بمعتقدات الجماعة ، بل يفترض حلولا معاكسة لمعتقدات الجماعة .

ترى هل من الاصح أن نعتمد مقلوب التعريف السابق لانه يحصر آنئذ المسرح السياسي ضمن الاشكال غير الملتزمة ، او الاشكال الثورية ، دون الاشكال الايجابية الملتزمة ؟ ؟ وما هو بالتالي تصنيف المسرحيات التي تنبه الى الحلول اللازمة من خلال معتقدات الجماعة . ؟ .

ليست عملية تعريف المسرح السياسي لحصر مواضيعه عملية سهلة ، كما يتصور أي مشاهد معبراً عن رأيه بعفوية ، بل يحتاج التعريف الى دقة بالغة لحصر المسرح السياسي ضمن اختصاصه وإنني اجد

التعريف التالي أوفى بالغرض ، اذا قلنا :

المسرح السياسي هو المسرح الذي ينتقد الحلول المطبقة سلبا أو ايجابا أو ينبه الى حلول مفترضة ، لمواجهة المشاكل التي يثيرها اشتراك جماعة من الناس في مجتمع انساني حسب معتقدات الجماعة او حسب متطلعات فئة من الجماعة ، غايتها تطوير المعتقد أو استبداله ، وحسب توزعها بين حاكم ومحكوم.

يحقق لنا التعريف السابق أوسع احتواء لمواضيع المسرح السياسي ، فلا تفلت منه مسرحية سياسية مهما بلغ اتقانها في اخفاء هويتها الملتزمة ، ولا يستبعد نص مسرحي مهما اشتط في تهديم الواقع متناسيا ضرورة ذكر البديل .

ويحقق بالتالي تخصص المسرح السياسي في مواضيع الجماعة ، النابعة من اشتراكهم في المجتمع الانساني والمتعلقة بتكامل مجتمعهم ، مقصيا عنه كل المواضيع الانسانية الشخصية النابعة من ممارسة الكفاح اليومي ، والمعاناة الذاتية ، والتطلعات الفردية لبلوغ النجاح المأمول حسب تعدد الشخصيات وتعدد مفاهيمهم ، واختلاف نظرتهم الى الوجود .

يندرج تحت عنوان المسرح السياسي بناء على التعريف المسارح التالية :

ـ المسرح الوطني القومي الذي يعني بنماذج البطولة والفداء ويذكر بالمناسبات القومية المستوحاة من تراث الجماعة .

ـ المسرح الملتزم المؤيد للحلول المطبقة ، ويقوم بتحليل الواقع على ضوء التخلف التاريخي .

ـ المسرح الثوري الرافض للحلول والواقع، ويقوم بتحليل الواقع على ضوء المثالية المنشودة المتخيلة من خلال طرح معتقدات جديدة .

ـ المسرح الفوضوي ، وهو أكثر ثورية من المسرح الرافض ، ويعمل على تهديم الواقع دون ايجاد الحلول اللازمة .

ـ المسرح المرتجل ، ويبحث في الازمات الآنية وقد يتعرض الى قضايا مصيرية باسلوب سطحي ، وهو احط انواع المسرح السياسي .

ـ المسرح الوطني القومي الذي يُعنى بنماذج البطولة والفداء ، ويذكر بالمناسبات القومية .. المستوحاة من تراث الجماعة .

وزعت الامم ابطالها على مسرحيات تحمل شعاراتها ، والهبت هذه المسرحيات اكف المصفقين ابان عرضها في القرن العشرين وهي مسرحيات تتعلق بكل امة حسب انتصاراتها ولذا تختلف النظرة الى معركة واحدة بين كاتبين لا ينتميان الى وطن واحد .

ويعمد بعض الكتاب في المسرح الوطني الى اقتباس المسرحيات الجميلة المعروفة عالميا ،

وتطويرهـا لتلائم مناسبة مشابهة ، كما حدث لمسرحية ثمن الحرية لعمانويل روبلس التي اقتبست في مصر وفي سورية مرارا .

لا يعتمد هذا اللون من المسرح على الرمز اطلاقا ، بل يقدم موضوعه من خلال واقعيـة متشددة الالتزام بدقائق الحياة الصغيرة حتى الملل ؛ ليقنع المشاهدين بصحة الحادثـة ، أو يعيد الحادثة بتفاصيلها في أذهانهم .

ويفشل في تجنب الاداء المباشر ، لان تفسير الحادثة وتحديد بعدها البطولي يستلزمـان تحليلهـا بعبارات منتخبة ومنتقاة ؛ ليتم تجسيد فكرة البطولة في اذهان المشاهدين .

ويعرض أبطاله من خلال شفافية روحية ، تجعلهم يظهرون على المسرح كأبطال معقمين من فساد الدنيـا وأدرانها ، ضمن اطارات معقمة بدورهـا ، فكأنهم معروضون من خلال واجهات الزجاج في المتاحف ، وخاصة في المسرحيـات المتعلقـة بشرح مواقف الشخصيات الدينية التاريخية ، فيتم تقديم الشخصية التاريخية منقحة مرارا من العيوب ، ومراقبة ، ومصفاة بمصفاة دقيقة ، حتى من غبـار التاريخ ، فتنطق على المسرح بمفاهيم العصر وتطلعاته .

بقيت مسرحيـة صلاح الدين الايوبي ، تجـذب الجمهور ، على مسارح سورية ومصر حقبة طويلة من الزمن ، على الرغم من تعدد كتابها ونسخها المتباينـة ، وواصل المسرح المصري والمسرح السوري تقديم عدد من هذه المواضيع في مسيرته الاولى ممزوجة مع الغناء والطرب . وكان سقوط البطل أو الخل الوفي له ، شهيد الواجب ضرورة في نهاية المسرحية . وبقيت هذه القاعدة مطبقة في مؤلفات الكتاب المسرحيين في نهاية الاربعينيات ، فلم تخـل مسرحية من المسرحيات الشعرية او النثرية المكتوبة في ذلك العهد من شهيد او أكثر .

تعتبر مسرحيات عبد الوهاب ابو السعود خير نموذج للمسرح الوطني ، في الاربعينات ، ومازال نصوصه صالحة للمسرح المدرسي .

ويعمد هذا اللون من المسرح الى تلطيف مشاهده الجافة ؛ بمشاهد عاطفية بين البطل وحبيبته او امه أو قريبة له . ويكرر خطاه في تلك المشاهد بابراز المرأة الحبيبـة أشد حماسة ، واكثر نقـاء ، وأقرب الى سمات الرجال منها الى صفة الانوثة .

ـ المسرح الملتزم المؤيـد للحلول المطبقة ؛ ويقوم بتحليـل الواقـع على ضوء التخلف التاريخي .

أثقل المسارح ظلا على قلوب المشاهدين ، هو المسـرح الملتزم المؤيـد للحلول المطبقة ، ويستقي مواضيعه من المنجزات التي حققت تطورا تاريخيا في مجتمع من المجتمعات لتنقله من طور الى آخر .

يكتشف الجمهور هذا اللون مـن المسرح بداهة ؛ ويحذر الجبهـة التي صرفت عـلى

العمل ، وموّلت انتاجه ، فيما اذا لم يذكر ذلك صراحة على الاعلان .

يفتعل هذا المسرح الحادثة ، ويشرحها بمبرر غير مقنع ، ولا ينجو من الاداء المباشر عند تقديم المبررات ، لانه يتجاهل الجانب السيء من الواقع ، ليبالغ في اظهار الجانب الحسن ، معتبرا الاوضاع الراهنة معجزة كبرى على ضوء التخلف التاريخي الذي كان محققا من قبل .

لم يلق هذا المسرح رواجا في كافة البلاد ، وتكدست نصوصه في بعض البلاد الاشتراكية ، حتى استطاع الكتاب الاشتراكيون الجدد تطويره نحو رؤية الاخطاء بعد التطبيق ، واقتراح الحلول اللازمة لاصلاح الاخطاء ، وتعتبر مسرحيات الكاتب الالماني ريتان كريندل الاخيرة نموذجا متكاملا مقبولا عن طلب الاصلاح من خلال معتقدات الجماعة . وهي اكثر رواجا من المسرحيات التي سبقتها .

— المسرح الثوري الرافض للحلول والواقع ، ويقوم بتحليل الواقع على ضوء المثالية المنشودة المتخيلة من خلال طرح معتقدات جديدة .

المسرح الثوري أميل الى الجدية عند مخاطبة الجماهير ، ولاسيما عندما ينقلب الى صراع فكري ، بين المعتقد القائم ، والمعتقد المتخيل .

ويقع هذا المسرح على الاغلب في حوارذهني يستغرق معظم مشاهد المسرحية وذلك من اجل شرح أخطاءالواقع ، وشرح واقع العقيدة المثالية المبشر بها .

ويلجأ هذا اللون من المسرح السياسي الى الرمز او الاسقاط ، وذلك عندما يمتنع من الكلام المباشر . فيتورط حين يستتر خلف ضبابية معتمة ، بالوقوع في أكثر من مأزق .

يعمد الى اسقاط حادثة معاصرة على حادثة تاريخية حقيقية او متخيلة ، فيستبدل الحاكم بحاكم تاريخي كقيصر مثلا أو غيره من السلاطين والاباطرة ، ويحتار المؤلف آنئذ بين الوفاء للحادثة التاريخية لاحيائها كما تستلزم شروط المسرحية الناجحة ، وبين وفائه لموقفه في رفض الواقع المتخيل عبر الحادثة ، ويضطر الى تبطين الكلام بمعان مقصودة وغير مذكورة في سياق النص ، وقد يستعمل عبارات ذات مدلول عصري لافهام المشاهدين ، فيتبلبل الحوار بين القديم والجديد ، وبين الوصل والقطع ، وتكون النتيجة ذات تأثير سلبي كموضوع وكفن مسرحي .

وتتكرر حادثة مشابهة ، عند استخدام الرموز ، لان على المؤلف أن يفسر العلاقات بين الرموز ، وهو قد لجأ اليها لعجزه عن شرح العلاقات القائمة في الواقع فتضيع

الرموز ضمن جهل الشاهد لمانيها في ذهن الكاتب ، ويمتنع وصول فكر الكاتب الى الشاهد ، وتبدو العبارات التي تؤلف الحوار من جديد غير ذات مدلول ، أو مبهمة وبعيدة عن الواقع .

ونستطيع أن نسرد بعض القواعد التي يشكل التقيد بها خلق توازن معقول في المسرحية : اذا كانت الحادثة التاريخية المسقط اصغر من الحادثة العصرية ، قصرت الحادثة التاريخية دون استيعاب الحادثة العصرية . أما اذا كانت اكبر من الحادثة العصرية ، فان النتيجة هي احتواء الحادثة التاريخية للحادثة العصرية احتواء كاملا يمنع ظهورها ، ويمنع احساس المشاهد بها . واذا كان الرمز بالتالي أصغر من المرموز اليه ، يحدث خلل في البناء الدرامي ، أما اذا كان الرمز أكبر من المرموز اليه ، فيضيع المرموز اليه خلف الرمز المعتمد ويتابع المشاهد موضوعا آخر . كما حدث في مسرحية «انشودة لينين غراد » عندما رمز المؤلف الى روسية بصبية روسية ، كانت خائفة وجائعة عند بدء الحرب ، ورمز الى الحزب والشعب برجلين يتنازعان عواطفها ، فلم يدرك كثير من المشاهدين معنى الصراع الذي قام خلال الحرب وبعده بين الصبية والرجلين .

يرتفع هذا المسرح او يهوي ، حسب مقدرة الكاتب ، وحسب تمكنه من معالجة موضوعه، وحسب وفائه للعقيدة التي يبشر بها . وتستغرق مواضيع الحرية والعدالة الاجتماعية، والشكوى من الظلم ، والتفرقة العنصرية بكل مذاهبها واشكالها ، نصوص المسرح الثوري الرافض للحلول والواقع .

ويحدد موقف الكاتب من الحادثة ، تصنيف مسرحيته بدقة ، فقد يرضى الكاتب بالاصلاح، ويقرب آنئذ من المسرح الذي سبق شرحه ، أو يطلب الثورة من أجل هدف معين ، فيصنف مسرحا ثوريا ، أو يطلب الثورة لتهديم الواقع، ومن دون اي التزام بشعار معين ، فينتسب في هذه الحالة الى المسرح الفوضوي الذي سنشرح خصائصه بعد هذا المسرح مباشرة .

– المسرح الفوضوي ، وهو اكثر ثورية من المسرح الرافض ، ويعمل الى تهديم الواقع دون ايجاد الحلول اللازمة .

لعل اهم مايميز المسرح الفوضوي ، هو عدم اهتمامه بالاثر الذي سيخلفه في نفوس الشاهدين ، لان غايته تهديم الواقع على رؤوس أصحابه ، دون مبالاة بالنتائج المترتبة على الهدم . وهذا المسرح أخطر المسارح السياسية على الاطلاق ، وخاصة في البيئات غير الواعية ، لانه يدغدغ احساسها الفطري الكامن في التحرر من كل التزام أو عقيدة . ويثير في صبوانها للعودة الى الحالة البدائية.

وبما أنه مسرح كافر بكل القيم ، دون تصور بديل لهـا ، فهو كافر بالجماعة التي يتوجه اليها وبوجودهـا الانساني المتميز بالاجتماع والقيم .

وحظ هذا المسرح من الظهور نادر جدا ، وهو عندما يتاح له أن يقدم أمام النظـارة ، يجتذب اقبـالا ملموسـا ، ويقسم جمهور الحضور على نفسه ، ويخلف دويا ، ومناقشات زمنا طويلا ، ولا تنطفىء الحرائق التي يشعلها في النفوس الا بعد أن تصيب الكتاب الناشئين بتشويـه فكري ، وتصيب جيـل الشبـاب والفتيات الطالع بالعقـد النفسية الصريحـة اللامبالية بالقيم والمصير .

قـدمت صالات السينما بعض المواضيـع الاباحية القريبة من مواضيع المسرح الفوضوي ولعل اقرب مثال لـه من بين المسرحيات التي شهدتهـا دمشق ، مسرحية الزيارة لدورينمات التي أظهرت تاثير المال على نفوس الناس ، وكيف احالهم الى قطيع من الحيوان لاتربطه فيما بينه اي قيم ؛ بل ظهر مستعدا لتبديل قيمه كلها ببشاعة .

قد يعترض قائل ، بان المسرحية حاولت تجسيـد الراسمـاليـة ، او المنظمـات الصهيونية (*) او غير ذلك من الاقطاعـات والمنظمات الشرسة ، وما فائدة هـذا القول ، اذا كنا غير قادرين على تعيين هويـة الشراسة التي ظهرت ، وكنا في الوقت نفسه نتابـع استسلامـا كليا من مجتمع انساني ، لم يظهر فيه مناضل واحـد ، يجهر بالحق ، بينما لم تعدم البشريـة في أسوا حالات اضطهادهـا مناضلين في وجه المنظمات الشرسة .

وقد يعترض قائل آخر ، لم اشرت الى المواضيع الاباحية ضمن المسـرح السياسـي الفـوضوي ؟؟ وماعلاقـة التحرر الجنسـي بالسياسة ! ولا أجد جوابا انسب من القول ان كل ما يبدل البنية الاجتماعية عكس معتقدات الجماعة ، سيبدل ذات يـوم من الصيغة السياسية التي هي اختزال لواقع الجماعة.

ـ المسرح المرتجل ، ويبحث في الازمـات الاتيـة وقـد يتعرض الى قضايا مصيريـة باسلوب سطحي ، وهو احط انواع المسرح السياسي .

اقرب هـذه المسارح الى الجماهير وهـو المسرح المرتجل الذي يتلو على الناس في كل ليلة أسباب همومهم ، دون أن يسـاهـم في تخليصهم منها ، ولا يكلف نفسه من أعبـاء المسرحيـة ، غير عبء قبض ثمن التذاكر ، والتفكير طوال اليوم بتجميع منغصات الحياة من الصبح الى المساء ، لإحياء سهرة جديدة.

(*) أعلن (دونمارت) في تصريحات لاتقبل التاويل عن انحيازه الفاضح الى الصهيونية.

« المعرفة »

وهو لا شك مسرح سياسي ، لأنه يستعرض الازمات ، كأزمة السكن ، وازمة المواصلات ، وغلاء الاسعار ، والالتماس والرشوى ، والفوضى والتحلل من المسؤلية . وهذه كلها مشاكل جماعية ، تحتاج الى حلول سريعة من الدولة التي هي المظهر السياسي للجماعة ، في صيغة مدينة ومحافظها ، او صيغة بلد ومؤسساته التنفيذية والتشريعية .

وهو مسرح محبوب في كل البلاد ، حتى تلك التي تتمتع بنسبة عالية من الحريات الديموقراطية ، حيث تكون فكاهات المسرح المرتجل اشد وخزا ، وقد تتعرض باسفاف بالغ الى الامور الشخصية في حياة الطبقة الحاكمة لاستدرار ضحك الناس على الحاكم ،

لقد شهدت سورية ولبنان ومصر مسارح مرتجلة اجتماعية ، كانت تتضمن مشاهدها بعض العبارات السياسية ، ولم يظهر المسرح السياسي المرتجل بوضوح الا في المرحلة الاخيرة ، فقام في بيروت مسرح الساعة العاشرة خيرمثال على المسرح السياسي المرتجل وهو مشابه لمثيل له في باريز متخصص بالمواضيع السياسية اليومية . وظهر في سورية مسرح الشوك الذي قدمه لاول مرة عمر حاجو ، وقد تضمنت اعمال عدد كبير من الفنانين مشاهد سياسية مرتجلة ، اضاعت قيمة اعمالهم الفنية بين الارتجال والمسرحية المعتمدة ، كما جرى في مسرحيات شوشو المقتبسة والمعدلة لتستوعب طرفا من الفكر السياسي .

هذه هي التقسيمات للمسرح السياسي بكل ابعاده ، وقد تعمدت ذكر أكثر المسرحيات انطباقا على التصنيف ، وتجنبت المسرحيات التي تزدوج ابعادها فتبدأ رافضة ثورية ثم تصبح مؤيدة ملتزمة للحلول والواقع ، او تلك التي تبدأ وطنية قومية وتنتهي ثورية رافضة . لأننا عند دراسة اية مسرحية لن نلمس هذا التقسيم المقترح نظريا ، بل تختلط الافكار والمشاهد في ذهن المؤلف فيقدم لنا عملا يحمل في كثير من الاحيان عدة سمات ويتضمن مجموعة من المواصفات ، المنسجمة او المتنافرة ، لاعطاء شكل جديد وجميل .

ولا أجد في خاتمة دراستي هذه ، افضل من التذاكر بالعبارة الاولى منها ، الا وهي : يوصلنا تناول اي موضوع ادبي او فني او علمي باسلوب فكري دقيق الى الانسان في نهاية الدراسة . وتبدو التقسيمات التي حددت مجال البحث في ميدان معين كالمسرح السياسي غير ذات وجود . لان الحياة متصلة مترابطة متناغمة بكل مظاهرها .

مراجعات

«قلوب على الأسلاك» والنقد التجاري للوحدة

رشاد أبو شاور

قلوب على الاسلاك : « رواية »
تاليف : الدكتور عبد السلام العجيلي
منشورات : الدار الاهلية للنشر والتوزيع . عام ١٩٧٤ - بيروت -
عدد الصفحات : ٤٢٩ قطع كبير .

يستخدم عبد السلام العجيلي في روايته (قلوب على الاسلاك) طريقة القص الذاتي ، او رواية الاحداث من وجهة نظر أحد الابطال ، وهو (طارق عمران) . ولكي يقنعنا العجيلي بالشخصية الاولى في العمل ، وبالأحداث ، وبالموضوعية ، فانه يلجأ الى (الإيهام) . ففي الصفحة السابعة ، يقول على لسان طارق عمران :

جرت في دمشق ، في فترة محددة من سنة بعينها . وعلى التعيين في الفترة بين اول الربيع واواسط الصيف من عام ١٩٦١ .

ويواصل (طارق عمران) : ولأني استقيت ماكتبت من ذاكرتي ، فليس حتماً أن تكون تفاصيل مارويته قد جرت بدقة مطلقة كما وصفها .

إلا ان الخطوط الكبرى لما كتبت ، واوصاف الشخصيات التي وصفت ، لاتبعد عن الواقع كثيرا ، هذا إذا لم تكن تنطبق عليه تمام الانطباق .

واضح أن (العجيلي) اختار الفترة الزمنية لاحداث روايته ، تلك الايام السوداء التي وقع فيها الانفصال .

ان اختيار الايام الصعبة ، من عمر الوحدة، لم يات محايدا ، او صدفة .

أما محاولة الإبهام فإنها غير ناجحة ، لانها إذا كانت تنجح في المسرح ، فإنها صعبة النجاح في القصة القصيرة ، والرواية .

فما دام اسم الكاتب على الغلاف ، فإن مايحدث بين دفتي الكتاب ، هو قطعا ، عالم الكاتب ، وممتلكاته .

من هو طارق عمران ؟

طارق عمران ، هو بطل الرواية ، ياتي الينا في التقديم ، وفي الجملة الاولى من الفصل الاول ، ص ١١ : وصلت الى المدينة في المساء.

لقد جاء من الريف البعيد الى مدينة دمشق ، ليساعد عمه عبد المجيد عمران في اعمال مؤسسته . وطارق شاعر ، ينشر مقالاته في الصحف والمجلات اللبنانية ، وله قصيدة ذائعة الصيت في الوسط الادبي ، تحمل عنوانا هو : حريق في ليل الريف .

يدخل (طارق عمران) في عالم مؤسسة عمران للهندسة والمقاولات ، التي يملكها عمه المهندس عبد المجيد عمران . نتعرف في المؤسسة بهدى سكرتيرة عبد المجيد بك (وخطيبته سرا) وزوجته فيما بعد . في صفحة (٢٤) ، نتعرف مع طارق على مشاريع عمه المهندس . ثم تابع يقول : (اي عمه المهندس عبد المجيد عمران) :

ـ اما من هذه الجهة فانها دمشق . انظر إلى حقل العتمة الممتد من آخر انوار المنازل في اعلى المهاجرين الى نور صاري التلفزيون على قمة الجبل . اني أتخيل حقل العتمة هذا ممزقا بسبحة من الاضواء تمتد في خط مستقيم من ذروة قاسيون الى ساحة الامويين ، على طول خط التلفريك الذي سيربط القمة بقلب المدينة .

ويواصل عبد المجيد عمران شرح مشروعه لابن أخيه :

ـ خط التلفريك . الم تسمع بالتلفريك قبل الآن ؟ العربات التي تسير على اسلاك معلقة بين القمم والوديان ؟ إذن فاعلم ان ثمة مشروعا في هذه المدينة لانشاء التلفريك . إنه مشروع هائل ، مشروع التلفريك ؛ ياطارق وأقول لك ان هذا المشروع لن يحققه احد غيرنا .. لن تحققه الا مؤسسة عمران للهندسة والانشاءات والتعهدات .

إذا كان طارق عمران هو بطل هذه الرواية، فإن مشروع التلفريك هو البطل المقابل، حوله يدور (الابطال) (والبطلات) ومن خلاله نرى الأمور السياسية، والعلاقات بين البرجوازية المحلية بعقليتها المتاورة ومساوماتها واخلاقياتها .

العلاقات النسائية :

عبر علاقات طارق عمران النسائية نتعرف الى طبيعة العلاقات السياسية والتجارية في مدينة دمشق .

ففي حفلة كوكتيل يتعرف طارق الى السيدة (نهاد) زوجة حليم بك رمزي حوالي زكي بيه وهو مصري، وتأخذ هذه العلاقة، فيما بعد طابع العلاقة البوليسية، فعبد المجيد بك يطلب الى ابن شقيقه ان يوطد علاقته بنهاد بسبب علاقاتها مع زكي (بيه) المصري، والذي هو عين القاهرة في دمشق .

ونهاد، هذه، صاحبة صالون أدبي، إنها لاتكتب الشعر، ولكنها تحب الشعراء، كأنما تعوض بذلك عن قحط موهبتها، بامتلاك مواهب الآخرين .

في الفصل السادس، ص ٤٦ :

ـ آلو .. آلو .

تناهى الى أذني صوت ناعم، جهدت في اللحظات الأولى أن أتعرف على صاحبته فلم أوفق، من هذه التي تعلم بوجودي في مكاتب المؤسسة في هذه الساعة فتطلب مكالمتي ؟ وفي الفصول التالية نتعرف الى (صفية) التي تحدثت مع طارق عمران بالتليفون . إنها زوجة محامي الشركة، أومؤسسة كل عمران، وخط التلفريك سيمر فوق البيوت على سفح قاسيون، ويكون بهذا سببه خراب كثير من البيوت .

تتواعد صفية مع طارق عمران، وتلتقي به امام سوق الحميدية، ويذهبان معاً في رحلة بواسطة (الترام) الى دوما، ومن ثم يعودان، دون أن تكشف صفية بوضوح غرضها هذا اللقاء الميلودرامي، إلا في الصفحات والفصول المقبلة من الرواية . في صفحة ١٠٩، تقول لطارق، وهما في الترامواي :

ـ توفي اسماعيل في العام الفائت .. مات فجأة، في حادث سيارة . قبل وفاته كان محامياً لمؤسسة عمران، وصديقاً صدوقاً لعبد المجيد بك عمران، ومعجباً كبيراً به .. معجباً بنشاطه وكفاءته الهندسية ونجاحه المستمر . على ان اسماعيل كان متواضعاً، وذلك طبعه، فكان يتناسى نصيبه الخاص في نجاح عمك الكبير .

في صفحة ١٨٠، تكشف صفية سبب كراهيتها لمشروع التلفريك . تقول لطارق .

ـ اسمع لي . أرجوك . أما تريد أن تعرف اين تقع داري ؟ .. إنه خط يمر فوق داري .

العلاقة مع ماجدة ، رابعة الشخصيات النسائية .

ماجدة هي شقيقة هدى ، سكرتيرة المؤسسة . وهي في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمرها ، يتعرف طارق اليها في بيت احمد بك ، والد هدى ، في حفلة غداء مع الاسرة . ومنذ المشهد الاول تتكشف ماجدة امامنا هجومية ، غاضبة . فهي تصف اختها هدى :

ــ اختي هدى عانس مخيفة ، الافكار التي لاتنطبق على قالب عقلها افكار ملعونة في نظرها ، وكذلك التصرفات التي لاتقرّها آداب السلوك عند الناس المحنطين في أواخر القرن التاسع عشر .

في نهاية الجزء الاول من الرواية ، يعاني طارق عمران من المرض ، فيحتجب في البيت ، وهناك تزوره ماجدة ، الفتاة المراهقة ، وتحاول النوم معه ، ولكنهما رغم التهابهما ، وقبلاتهما لايمارسان الجنس ، وينتهي الجزء الاول ، بخروج ماجدة من بيت طارق عمران إلى الممر الخارجي الذي يقود الى الشارع .

كيف يتعرف طارق الى المدينة ؟

يتعرف طارق عمران الى المدينة ــ البرجوازية ــ التجارية ، بواسطة عمه ، ونهاد ، ولكنه يتعرف الى الجو الادبي والسياسي بواسطة ممدوح ابن احمد افندي الحاجب في المؤسسة .

وممدوح ، هذا ، محب للادب ، منتسب للجامعة ، كاره لجو نهاد ، واكاذيب عالمها ، انه يقود طارق عمران الى مقهى (البرازيل) حيث يعرفه هناك بالجو الادبي والسياسي . وفي هذا المقهى تدور بعض الفصول القريبة من التسجيلية ، وهي بحق اجمل الفصول ، واهمها واكثرها توفيقاً ، وإن كنا نختلف في الرؤية السياسية مع طارق عمران ، وبعض افراد الشلة .

التجارة .. والسياسة :

بالرغم من الجمل الشعرية ، والصور الشاعرية التي يتحدث فيهما المهندس عبد المجيد عمران عن التلفريك ، فاننا لن ننسى ولو للحظة واحدة ، أن التجارة هي التجارة ، وأن هذا المهندس المقاول سليل الاسرة الاقطاعية يشتغل بالماليات . مشروع تلفريك دمشق . ولكننا نكتشف أن مؤسسة عمران لن تنفذ المشروع . يقول عبد المجيد عمران لابن شقيقه . ص(٣٦٨)

ــ ما اخبرتك به صحيح . لن تنفذ مؤسسة عمران للهندسة والانشاءات مشروع التلفريك . ولن ينفذه غيرنا على الاقل في السنوات العشر الاتية .

ويواصل عبد المجيد عمران :

ــ اننا سنترك لك هذه المؤسسة . سنغادر هذا البلد .

في صفحة ٢٧٠ يواصل المهندس عمران:
— « أعرف ما تفكر به . تريد أن تقول: أإلى هذا الحد أنت اناني ياعم ؛ تنجو بنفسك وتتركنا نحن أعزاءك في السفينة الغارقة ؟ جوابي لك أن السفينة لاتغرق إلا بالنسبة لي وحدي . الحق انها ليست سفينة البلاد . ربما كان الاجدر ان اسميها سفينة الآمال والمثل العليا هي التي تغرق وتغرق فيها القيم التي آمن بها جيلنا . امابالنسبة إلىالشباب امثالنا فإن السفينة تظل طافية ، يمكنكم ان تبقوا فيها وتلائموا عقليتكم مع عقليات قبطانها وبحارتها .. »

وهكذا حين فشل مشروع التلفريك رحل المهندس عمران . فماذا حدث للسفينة . حدث الانفصال ، فلماذا لم ينشيء المهندس عمران التلفريك في ايام الانفصال ؟ ثم لماذا لم يوظف المهندسعمران أمواله وخبراته فيمشاريع تهم الجماهير فعلاً . ؟ . إن مشروع الغاب في شمال سورية ، أو مشاريع كهربة البلاد ، او الاصلاح الزراعي ، او مد الطرق ، اوإنشاء عشرات المدارس ، هي فعلاً المشاريع الحيوية المصيرية . اما التلفريك ، فهو (خبطة) اقتصادية ، لذلك فالصراع ضار بين الذئاب من اجل إنجازه ، والحصول على ارباح خيالية ...

في نهاية الرواية يعود طارق من حيث جاء .. إلى الريف ، وتتزوج ماجدة ؛ وهدى تذهب مع المهندس عمران الى البلاد البعيدة، حيث توظيف الاموال ، والبلاجات ، وصفية تتزوج ، أيضاً ، بعد انتهاء الحداد علىزوجها المحامي . أما (نهاد) محبة الشعراء ؛فترحل مع زوجها الجديد ، المصري زكي بيه .

تتشح المشاعر الإقليمية في الرواية في صفحة (٢٨٧) حين تتحدث نهاد عن مدينتها دمشق ، وحين يتحاور المهندس عبد المجيد عمران ، معمندوب القاهرة ، المهندسالمصري، صفحة (٤٦) ، فإن الاقليمية المتعالية تفوح في كثير من الحوار .

ولا اظن هذه الاقليمية التي تاججتايام الانفصال ، تاتي هكذاصدفة . ان البرجوازية المحلية ، وهي امتداد الاقطاع ، تريد الحفاظ على مصالحها ، انها ليست البرجوازية الصناعية الوطنية التي توحد الاسواق ، والايدي العاملة ، فتعمل على وحدة الامة ، إنها انفصالية ، تتباكى على وحدة (غالمة) شاعرية ، تزيد ، وتضاعف ملايينها بطرق اشبه بالسرقة والربا . من هنا فإن القارىء لايتعاطف مع المهندس عبد المجيد عمران . إنه هارب ، وإقليمي ، واشياء اخرى . قد تبدو هذه الرواية مع الوحدة ، ولكن اية وحدة ؟ انها مع وحدة (خيالية) مطلقة الصفات ، خيالية .. ولكنها في الواقع مع الانفصال..
النقد فيها اخلاقي ، احياناً ، وأحياناً اخرى إقليمي عنصري..ولكننا غالباً لانتعاطف معه . نحن نتعاطف مع مشروع (الغاب) والاصلاح الزراعي والآبار الارتوازية.. وليس مع (التلفريك)..المدارس اهم من التلفريك.. وبعد .

فإن هذه الرواية جديرةبان تثير حواراً؛ لانها تتعرض لفترة هامة وحاسمة من تاريخ وطننا وأمتنا .

كتاب وحوار

وماذا يجدي العقل بغير «البراكسيس» ؟

مجاهد عبد المنعم مجاهد

قليلة هي الاصوات التي ترتفع في عالمنا العربي المعاصر مدافعة عن العقل وسط النزعات اللاعقلية والخرافة والشعوذة .. وتقل هذه الاصوات المدافعة عن العقل بشكل كبير في مجال الدراسات الفلسفية الخاصة بتراثنا العربي .. ومن هذه القلة القليلة المدافعة عن العقل في تناول تراثنا الفلسفي العربي محمد عاطف العراقي.. فمنذ كتابه الاول « النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد » وحتى كتابه الخامس الأخير الذي نعرض له هنا بالدراسة والنقد « ثورة العقل في الفلسفة العربية » يرفع الاعلام للعقل والنزعة العقلية .. وهو يعد صوتا نادرا

(*) هذا المقال يعرض بالنقد لكتاب :« ثورة العقل في الفلسفة العربية » تاليف د. محمد عاطف العراقي ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٧٤ .

نحتاج اليه لغربلة تراثنا ليحملنا بدل أن نحمله .. ومنذ السطر الأول لكتابه الاخير حدد اتجاهه الذي سيطل على موضوعه : « اتجاهي الذي اؤمن به وادافع عنه في مجال الفلسفة العربيةهوالاتجاه العقلي التجريدي» (ص ١٣) وبهذا المنظور العقلي يريد أن يطل على فلسفتنا في الوطن العربي فهذا المنظور هو وحده الكفيل بتقدمنا : « وأكاد أقطع بأننا لو سرنا في طريق التقليد مئات السنوات وانحرفنا عن نهر العقل فلن نستطيع التقدم خطوة واحدة في سبيل ارساء دعائم فلسفتنا العربية وكشف ما فيها من مواطن القوة والضعف » (ص ١٣) بل انه يربط تقدم التاريخ والفكر بتقدم العقل : « لا تلوموا العقل أيها القوم بل انظروا الى المهام التي انجزها والمهام التي مازالت امامه والتي تتجدد يوما بعد يوم . ويقيني انه للبقوم بالجارحة إذ أن تاريخ الفكر الانساني والفلسفي على وجه الخصوص يعد تاريخا للعقل الى حد كبير » (ص ٣٤) .. ولكن ماذا لو انحرف العقل ؟ الجواب عند المؤلف : « العقل هو الذي يصحح نفسه بتمرده على نفسه . نعم العقل يصحح العقل ؛ إذ لا يقوم اللامعقول بتصحيح المعقول . ان هذا العقل يتميز باتساع النطاق والتنوع والخصب والعمق وهذه الميزات تسمح للعقل بتعديل مساره ، اذا احس انه انحرف عما ينبغي أن يكون عليه التفكير العقلي » (ص ٣٤) .

والمؤلف بهذا العقل يريد أن يحدث ثورة والثورة من الداخل عند المؤلف هي الثورة وهو يريدها ثورة داخلية لا ثورة خارجية والثورة من الداخل عند المؤلف هي الثورة التي « تنفذ الى شرائح من الافكار التي تركها لنا نفر من المفكرين فلاسفة كانوا او متصوفة أو متكلمين ونأخذ بعد تحليل هذه الافكار في تحديد اتجاه صاحبها ؛ واذا وضعنا أيدينا على اتجاه صاحبها لقد عرفنا موقف العقل من هذا الاتجاه أو ذاك من الاتجاهات » (ص ١٥٢) .. ويلقي المؤلف الضوء أوضح عن هذه الثورة الداخلية : « سيدرك القارىء تماما أننا اذا كنا اليوم نعلن عن ثورة للعقل في مجال الفلسفةالعربية فان تلك الثورة ... تعد ثورة من الداخل لا ثورة من الخارج . نعم ثورة من الداخل لانها تكشف أولاً عن موقف الفيلسوف او المفكر بأمانة موضوعية وبعدها يجيء النقد داخليا لا خارجيا ، وليس لثورة من الخارج تعبّر الى حد كبير عن موقف الرفض التام المطلق » (ص١٦٦) .

فما هو هذا العقل الذي يريد أن يأخذ به المؤلف وينظر به الى التراث ويدعونا الى اعتناقه ؟ إنه عقل متكون جاهز مفروض علينا من أعلى ؛ عقل قدري ان جاز لنا استخدام مثل هذا التعبير : « إن تقدنا يرتكز على تمسكنا بالعقل وإعلاء كلمته فوق كل كلمة حتى يكون هذا العقل معبرا عن عظمة الفكر التي لا تدانيها ولا تقترب منها عظمة اخرى » ص (١٦٦) .. انه عقل « معلق » او عقل « مفارق » لا نجد انعكاسا في الكتاب لأية جذور تربطه بالواقع المعاش .. وترتب على هذا ان المؤلف وهو ينقد الفلاسفة والمتكلمين والصوفية قد يأتي النقد صحيحا في الاطار

الفكري المحض لكنه يظهر هؤلاء الفلاسفة والمتكلمين والمتصوفة وكأنهم يتجادلون ويتناقشون داخل غرف معزولة عن هواء الحياة .. ان المؤلف يريد للفلسفة ان تتنفس من نسائم العقل لكي تتجدد والارادة هنا نبيلة وكانت ستزداد نبلا لو ارتبطت الفلسفة كذلك بالحياة حتى يرتبط العقل في النهاية بالحياة .

وكيف فهم المؤلف ابعاد العقل وخصائصه! يقول : « المذهب العقلي هو الذي يؤمن صاحبه بقيمة العقل وانه يشتمل على مبادىء أولية ، على ضوئها يهتدي المرء في حياته الفكرية » (ص ٤٢) ويقول : « يقال عن شيء ما انه (عقلي) لأنه يستند الى العقل وعلى ذلك تسمى النتيجة التي ينتهي اليها عقلية وكذلك يقال على كل مالديه قوة الاستدلال » (ص ٤٢) ويقول أيضا : «ينادي المذهب العقلي بالثقة بالعقل اي الوضوح والبرهان والاعتقاد بفعالية الضوء الطبيعي وهو يقابل بهذا الصوفية والغيبية وأصحاب التقليد ولا يسمح في العقائد الدينية بقبول إلا ما هو منطقي مقبول » (ص ٤٣) .. اذن فإن خصائص العقل عند المؤلف هي قوة الاستدلال والوضوح النظري والمبادىء الاولية .. ومن الملاحظ أنها كلها خصائص صورية للعقل وهي تجعله عقلا تجريدياً غائبا عن أرض الواقع والتاريخ ..

فلنبدأ بملاحظة خارجية : إن المؤلف وهو يدرس التراث العربي يريد أن يعرف العقل فلجأ الى المراجع الاجنبية وحدها . ليس هناك حجر بطبيعة الحال على الاخذ بالفكر الاجنبي ولكن المؤلف بحكم تخصصه في تراث العرب الفلسفي وبحكم الموضوع الذي يدرسه أما كان يتحتم عليه منهجياً التوصل الىمفهوم للعقل من خلال تراث العرب وعقد مقارنة بين هذا المفهوم وتراث الغرب ! بل أليس هذا هو الموضوع الذي نتوقعه من عنوانالكتاب ؟: « ثورة العقل في الفلسفة العربية » .. الم تكن نتوقع ان يطرح المؤلف مفهوم العربللعقل وانواعه بين عقل فعال ومنفعل ومفارق وعقل متكون وعقل في دور التكوين ؟ الم تكن نتوقع ان يطرح المؤلف صراعات هذه الاضرب من العقول في التراث الفلسفي عند العرب وأيها انتصر وما سبب هزيمة العقل الذي انهزم ؟ .. ثم إن عنوان الكتاب هو ثورة العقل في الفلسفة العربية .. أفلم نكنمتوقعا ان نتبين حدود هذه الثورة للعقل وفيلقها والمؤمنين بها والمعارضين لها وما الذي احدثته في واقع الحياة الاجتماعية للامة العربية وهلانتصرت هذه الثورة وهل اخفقت وما السبب وعلى يد من وما المصير ؟ إنها الأسئلة التي تطرح والتي كان ينبغي ان نجد عنها اجابة .. لكن الكتاب سار في منحى آخر يقوم على أخذ عينات من الفكر الكلامي والفكر التصوفي لنقدها من أجل تمجيد الاتجاه الفلسفي من خلال منظور عقلي لدى المؤلف لكنهجانب تطهيرييتنظر الحركة التالية وهي بيان قيمة العقل على نحو ما استخدمه المفكرون العرب قديما ... لقد اكتفى المؤلف واعتقد «اننا بنقدنا لهذينالطريقين : الطريق الجدلي والطريق الصوفي تكون معبرين من جانبنا وبصورة ما من الصور العديدة عن

ثورة العقل في الفلسفة العربية » (ص ١٢١) وكان عنوان الكتاب يقتضي بجانب هذه المهمة مهمة أخرى هي بيان الثورة العقلية نفسها عند العرب ..

حقا لقد تناثرت بين الحين والحين بعض مفاهيم العرب عن العقل .. فمثلا يورد المؤلف رسالة الفارابي في معاني العقل .. يقول الفارابي : « اسم العقل يقال على أشياء كثيرة الأول الذي به يقول الجمهور في الانسان انه عاقل . الثاني العقل الذي يردده المتكلمون على ألسنتهم فيقولون هذا مما يوجبه العقل وينفيه العقل . والثالث العقل الذي يذكره ارسطوطاليس في كتابه البرهان ... الخ » (ص ٧٩) أليس كان الأفضل العرض المنهجي المتناسق لمعاني العقل عند المفكرين العرب ؟ ألم يكن الامر يحتاج مثلا الى أن واحدا مثل الفارابي قد أدرك وجود أضرب مختلفة للعقل وتبين بأي مفهوم للعقل يفهم العقل ؟ خاصة وأن هناك من يقف ضد العقل على نحو ما اورد المؤلف نقلا عن الكلاباذي : « العقل عاجز والعاجز لا يدل إلا على عاجز مثله » (ص ١٢٣) فالقضية ليست هي ايمان المؤلف بالاتجاه العقلي فحسب ـ وهو شيء مطلوب وجميل حقا ـ بل القضية هي : كيف تطور الواقع العربي سواء بالعقل أم باللاعقل وسواء مع العقل او ضد العقل ..

وواضح ان المؤلف يوحّد بين العقل والاستدلال ومن ثم فإنه يأخذ بالبرهان طريقا للحق .. وهو موقف صوري محض يجرد العقل من محتواه .. وقد يوصل الى موقف معاكس فالغزالي مثلا كان يؤمن بالاستدلال العقلي المنطقي لكنه كان يوظفه للتوصل الى موقف تصوفي .. وكان مثال الغزالي وحده كافيا لكي يبين للمؤلف أن القضية الأولى بالنسبة لأطروحة العقل هي « استخدام » العقل اي تحولات العقل في البراكسيس أو السلوك الغرضي الانساني .. لقد «استخدم» الغزالي البرهان وتوصل الى التصوف و « استخدم » بعض علماء الكلام الجدل ـ وهو في نظر المؤلف أقل مرتبة من البرهان ـ ومع هذا وصلوا الى مواقف عقلية أكثر تقدما من الغزالي .. فما السبب ؟ السبب أن للعقل تحولاته والاعيبه وجدلياته فالعقل على نحو ما وضع هيجل يمتاز بالمكر وهو يمارس دوره في الواقع ومن ثم فقد يتحول العقل الى اللاعقل وقد يتحول اللاعقل الممتزج بالجدل الى مواقف عقلية تدفع المجتمع الى التطور والفرد الى الترقي الفكري .. بل إن التصوف الذي يرفضه المؤلف نجد فيه انموذجا مثل الحلاج حوّل التصوف من شعوذة الى سلاح للنضال وجعل له ابعادا فكرية فاقترب بهذا ـ رغم اختلاف المنطلقات ـ مع كثير من أصحاب التقدم والترقي من الآخذين بالعقل .. بل إن تناول العقل في الممارسة والتاريخ هو الذي سيبين ما إذا كانت هناك ثورة أم لا وهل هي ثورة من الداخل أم ثورة غير حقيقية ؟ .

إن النزعة العقلية عند المؤلف بموقفه الممتاز في النظر الى التراث تحتاج الى أن تكون

نزعة محتوى لا شكل فقط .. ونحن لا نحتاج إلا أن نلفت النظر الى النص الذي أورده المؤلف لابن رشد ص ٣٩ : « **ليس العقل شيئا أكثر من ادراك الموجودات بأسبابها ، وبه يفترق عن سائر القوى المدركة . فمن يرفع الاسباب فقد رفع العقل** » ... لقد ادرك ابن رشد أن الفكر العقلي ليس برهنة واستدلالا فحسب بل هو ادراك الترابط العلي وهو ليس مسألة صورية بل هو كذلك نظر الترابط الواقع ترابطا عليا وتنبه ابن رشد الى ان هذا النوع شيء مختلف عن اشكال التفكير الاخرى .. لم يلغها وانما ابقاها مع تحديده للعقل من خلال المحتوى .. والسؤال يظل : كيف استخدم ابن رشد هذا العقل في البراكسيس ؟ وربما بالرد على هذا السؤال سنحظى بمثال ممتاز لتحول العقل النظري الى العقل العملي في تراثنا العربي .. وهو جواب الامل معقود على ان نظفر به من جانب مفكر عقلي مثل محمد عاطف العراقي الذي يرفع كل الرايات لسلطان العقل وسط الخرافات ..

حوار مع
« محمد عاطف العراقي »

● نظرا لانك من المؤمنين بالاتجاه العقلي فلنبدأ بمفهومك الخاص لمعنى العقل .

ـ أقصد بالعقل الأدلة البرهانية التي تجاوز الفكر الاقناعي الخطابي والفكر الكلامي الجدلي .. ومن هنا يتعارض الفكر العقلي مع كل فكر تقليدي وكل فكر صوفي . وعلى ذلك فاننا لو رجعنا الى ما بحث فيه العرب تحت موضوع المعرفة اليقينية والمعرفة غير اليقينية استطعنا أن نخرج كل ما هو غير يقيني من المجال الخاص بالعقل .. وعلى ذلك تكون الاشياء الداخلة في المجال العقلي : الاوليات العقلية والمحسوسات والمجربات والمتواترات والحدسيات .

بعد هذا التحديد نجد أن الفكر الكلامي الذي يعتمد على المشهورات يخرج من تحديدي الخاص لمعنى العقل كما يخرج الفكر الصوفي أيضا نظرا لأنه يعتمد على تجربة خاصة ، اي يعتمد على جانب وجداني لا جانب عقلي .

وعلى ذلك يخرج من اطار الفكر العقلي كل الذين اداروا قضاياهم حول تأويل الآيات القرآنية ، وهذا ما نجده عند كل من المعتزلة والاشاعرة ويخرج من هذا الاطار كل انواع التصوف سواء كان تصوفا سلفيا او تصوفا سنيا او تصوفا فلسفيا .

● هل استخدام البرهان وحده هو الطريق الوحيد للتفكير الحقيقي ؟

ـ ليس استخدام البرهان هو الطريق الوحيد للتفكير الحقيقي . ولكن اذا كنا نتحدث اليوم عن قضية الأصالة والمعاصرة فلا بد من محور ندير حوله أفكارنا عن الاصالة والمعاصرة ، أي حول هذه القضية . هذا المحور قد يختلف من باحث الى آخر .. ومن جهتي اعتقد أن المحور لابد أن يكون متمثلا ومتبلوراً حول العقل .. ونظراً لأن البرهان حتى بمعناه الارسطي يعد متفقاً مع العقل ، فإنه لابد من الاستفادة منه حين ندعو الى العقل . إذ من الواضح أن ارسطو اذا كان قد ميز بين القضايا الخطابية والقضايا الجدلية والقضايا البرهانية ، فانه قد رفع البرهان على الخطابة والجدل .

● الجدل تراه اقل في المرتبة من البرهان.. هل تعترض على الجدل من الناحية الصورية أم من الناحية المضمونية على نحو ما استخدمه علماء الكلام ؟

ـ اعتقد أن الجدل يمكن الاعتراض عليه سواء من الناحية الصورية أم من ناحية المضمون .. فاذا قلنا أن الجدل في المحيط الفكري الاسلامي يتمثل في فكر المتكلمين وجدنا ان الناحية الصورية من بحوثهم يمكن الاعتراض عليها . ومن ناحية المضمون أيضا يمكن الاعتراض ، إذ أن الكثير من بحوثهم وتاويلاتهم كان الدافع اليها مطالب العصر الذي عاشوا فيه . لقد اداروا بحوثهم أساساً حول الآيات القرآنية وأسرفوا في ذلك حتى ابتعدوا الى حد كبير عن بساطة الآيات القرآنية . ان المتكلمين كان كل قصدهم البحث عن الآيات التي تؤيد وجهة نظرهم فاذا وجدوا آيات اخرى قد تتعارض مع وجهة نظرهم حاولوا تاويلها حتى تتفق مع وجهة نظرهم .. وهذا واضح في أكثر المشكلات الكلامية التي أثاروها كمشكلة القضاء والقدر ومشكلة الذات والصفات ومشكلة خلق القرآن أو قدمه وهكذا .

● هل القضية هي الدعوة الى العقل أم الاستخدام العملي للعقل اي ادخاله في الممارسة والتاريخ ؟

ـ ليست القضية هي مجرد الدعوة الى العقل إذ ما فائدة الدعوة الى شيء دون أن نستفيد من ذلك في حياتنا وفي التطبيقات العملية . اعتقد أن الدعوة الى العقل يمكن أن ينتج عنها الكثير في حياتنا . اذ مازال يسيطر علينا التفسير الخرافي والتفسير الغيبي أيضا . مازالت تسيطر علينا الأساطير . فاذا قلنا إن معيار صحة الشيء او خطئه هو المعيار العقلي لاستطعنا أن نميز بين شيء يمكن أن نستفيد منه في حياتنا التي تتسم بالعلم وبين شيء أو أشياء ليس لها مكان في عصرنا الذي يعد عصر العلم كما قلت ..

والدليل على ذلك أن فكر ابن رشد حينما تابعه الغربيون أدى ذلك الى تقدمهم وذلك على العكس من أمم اخرى اتبعت فكر الغزالي فكان هذا سببا من اسباب تاخرهم .

● وكيف فهم العرب العقل ؟ هل كان بمعنى واحد ؟ هل كانت هناك عدة عقول ؟

– لم يفهم العرب العقل بمعنى واحد ، بل توجد الكثير من التعريفات سواء كانت تعريفات لغوية أو تعريفات فلسفية . والدليل انه كانت توجد عند العرب تعريفات أو معان عديدة للعقل ، أننا نجد المعتزلة يستخدمون كلمة العقل . وكذلك نجد الأشاعرة ونجد الغزالي ولكن فهم المعتزلة للعقل والدعوة الى استخدامه كان محصورا الى حد كبير في الدائرة الجدلية الكلامية ، أي تأويل الآيات القرآنية. وهذا على العكس من فيلسوف كابن رشد . إن العقل عنده – باعتماده على البرهان – يجعله مختلفا اختلافا يكاد يكون جذريا عن معناه عند المعتزلة . والواقع أننا يجب ان نحدد ما نقصده في كل لفظة حسب استخدام المفكر لها . فلفظة العلم مثلا معناها عند الغزالي غير ما تعنيه الآن في حياتنا . ولفظة اليقين عند الغزالي غير معناها عند ابن رشد . اليقين عند الغزالي يعني به اليقين الصوفي ، واليقين عند ابن رشد يعني به اليقين العقلي.

● تبدي اهتماما خاصا بابن رشد . فهل له تعريف خاص للعقل يجعله يفوق غيره من مفكري العرب في هذه الناحية ؟

– الواقع ان الاهتمام بابن رشد لا يرجع أساسا الى تعريف خاص به بالنسبة للعقل بقدر ما يرجع الى التزامه في فلسفته بما يؤمن به . إنه يؤمن بالعقل ونراه يطبقه في كل مجال من مجالات فلسفته . وهذا على عكس ما نجده عند غيره من مفكرين . فلو رجعنا حتى الى فلاسفة العرب نجد ان الكندي – مثلا – دخلت فلسفته عناصر اعتزالية كثيرة ونجد الفارابي يبحث في نظريات كثيرة ولا يقدم لها تفسيرا معقولا ، مثال ذلك قوله بالفيض وتدليله على وجود الله بدليل الممكن والواجب . وكذلك ابن اسينا اتجه الى التفسيرات الصوفية في بعض جوانب فلسفته. وعلى ذلك فاننا لو درسنا تراث فلاسفة العرب لم نجد فيلسوفا التزم بما آمن به من مبادىء عقلية أكثر من فيلسوفنا ابن رشد .

● أليس الأجدى بدل أخذ عينات من التراث ووزنها بمعيار العقل تتبع تقييم تراثنا العربي كله بترتيب تاريخي انطلاقا من هذا التقييم خاصة وان لديك كل الأسلحة للقيام بهذه المهمة .. الإلمام التام بالتراث وقراءته في نصوصه وموقف فكري متقدم ؟

– الاجدى فعلا هو تقييم التراث العربي كله . ولكن ذلك لا يكون في كتاب واحد اخير هو « ثورة العقل » ، ولكنه يحتاج الى مجموعة من الكتب يمكن أن تصدر مستقبلا . ومهما يكن من أمر فإن الشرائح التي اخذتها تعبر كل شريحة منها عن نموذج من النماذج ، فالشريحة الاولى كان علم الكلام محورا لها والشريحة الثانية كانت الفلسفة محورا لها والشريحة الثالثة كان التصوف محورا لها . في الشريحة الاولى نقدت علم الكلام لانه

لا يرتفع الى مستوى العقل حسب ما أفهمه من هذه اللفظة . وفي الشريحة الثانية نقدت الفارابي‌وهو ابرزفيلسوف مشرقي حين ابتعد عن التفسير العقلي في بعض جوانب فلسفته . وفي الشريحة الثالثة نقدت التصوف من خلال ابن سينا .

يضاف الى ذلك أن الكتب السابقة على ثورة العقل فيها التزام بما أدعو اليه وهو الدعوة الى العقل . وفيها تحليل لموضوعات أخرى كلامية وفلسفية وصوفية وابراز الى أي مدى التزمت بالعقل أو ضربت به عرض الحائط .

أجري الحوار في القاهرة
مجاهد عبد المنعم مجاهد

د. محمد عاطف العراقي في سطور

- من مواليد ١٩٣٥ .
- أستاذ مساعد الفلسفة الاسلامية بجامعة القاهرة .
- ليسانس آداب قسم الفلسفة عام ١٩٥٧ من جامعة القاهرة ، دبلوم كلية التربية بجامعة عين شمس ١٩٥٨ ماجستير عام ١٩٦٥ ودكتوراه عام ١٩٦٩ .
- المؤلفات : النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد ، الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا ، مذاهب فلاسفةالمشرق ، تجديد في المذاهب الفلسفيةوالكلامية، ثورة العقل في الفلسفة العربية
- تحت الطبع : المذهب العقلي في فلسفة ابن باجه ، نقد الفكر الجدلي .

مناقشات

ماذا بقي من المرأة ؟

رجاء طايع

نشرت « المعرفة » في عددها الأخير (كانون الاول ١٩٧٥) ملفا خاصا عن المرأة مع انتهاء عامها الدولي . وقد اشتمل هذا الملف على مجموعة دراسات ومقالات تناولت موضوعات شتى عن المرأة .

وضع المرأة في سورية :

تستهل الدكتورةنجاح العطار مقالها بتقديم تاريخي سريع لوضع المرأة الشرقية بشكل عام والشرقية بشكل خاص في القرون الماضية . ثم تنتقل الى عرض بعض آراء الفلاسفة السلبية في المرأة لتخلص الى نتيجة معينة ، وهي أن المرأة سواء كانت شرقية أم غربية ، فهي مستلبة من قبل الرجل الممثل بالأب أو الأسرة أو المجتمع .

وتنتقل الكاتبة الى تركيز اهتمامها في ثلاث نقاط تتحدث فيها عن وضع المرأة المجحف في بلادنا ، والذي كان سائدا الى أمد قريب جدا : المرأة وقضية التعليم ـ المرأة والزواج ـ المرأة والعمل ...

وتؤكد الكاتبة ان هذه المظاهر السلبية لوضع المرأة السورية مازالت بعض آثارها موجودة بنسب متفاوتة تبعا للبيئات الاجتماعية . لكن الأمر تغير الآن ، لاسيما

بعد الاستقلال السياسي لسورية ، وما نتج عنه من استقلال اقتصادي أدى الى إحداث تغيير تدريجي في طبيعة العلاقات الاجتماعية ، وفي وضع المرأة ، فاخذت تطرق ميادين التعليم والعمل في شتى المجالات . واخذت تناضل لانتزاع حقوقها ، وأن استقلالها الاقتصادي سيفرض بالضرورة استقلالا اجتماعيا وقانونيا، وتتفاءل الكاتبة بان الزمن لصالح المرأة ، وأن قضية تحريرها الكامل تسير في طريقها الصحيح ، لاسيما بعد مسيرة التحويل الاشتراكي الذي يمر به القطر العربي السوري ... وهذه الدراسات تحاول رصد أكبر عدد ممكن من مظاهر تخلف وتحرر المرأة في قطرنا ، بكثافة وتركيز شديدين ، مع نظرة تحليلية عارضة وسريعة لأسباب التخلف، والعوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي ادت الى تحرير المرأة النسبي في قطرنا. وبعبارة اخرى يمكن اعتبار هذا المقال دراسة وصفية لأوضاع المرأة السورية ، لا تخرج عن إطار المؤشرات العامة لهذه الأوضاع ، دون الغوص في عملية تحليلية مسهبة وكافية لاي وضع من هذه الأوضاع ..

حول الروايـة النسـائية في سورية :

بيين لنا الدكتور حسام الخطيب رأيه فيما يسمى « الادب النسائي » وكيف ان هذا المصطلح مرفوض فكريا وفنيا إذا كان المقصود به الادب الذي يكتب باقلام نسائية ... وان هذا المصطلح يكتسب مشروعية فكرية وفنية عندما يتحدث عن مشكلات المرأة نفسيا واجتماعياً ، أي ان نوعية المادة هي التي تحدد حقيقية مصطلح « الادب النسائي » .

ينتقل الكاتب بعد ذلك الى محاولة رصد تاريخي لظهور الرواية النسائية في سورية فيبين أن اول بواكيرها كانت في مطلع الخمسينات مع ظهور رواية « يوميات هالة » لسلمى الحفار الكزبري ، ويثبت قائمة للروايات التي ظهرت تباعا بعد ذلك ، ويبين أن ظاهرة الرواية النسائية محدودة عدديا وانها تعرضت خلال مسيرة ظهورها لكثير من الاضطراب ، وان معظمها لا يتحقق فيه الحد الادنى من الشروط التكنيكية للرواية بمفهومها الفني الخالص . ثم يختار ثلاثة اعمال روائية ويلقي عليها بعض الأضواء النقدية .

الرواية الأولى « يوميات هالة » لسلمى الحفار الكزبري ، يعتبرها الكاتب اقرب الى السيرة الذاتية منها الى الرواية ، وهي عبارة عن يوميات لفتاة تستقبل عامها السابع عشر ١٩٤٠ ، تنتمي الى أسرة أرستقراطية ، وتعكس هذه اليوميات نظرة مسطحة للعالم وللأحداث ، مع رصد لبعض التقاليد الاجتماعية السائدة ، ويسيطر على البطلة دائما احساس بضعف المرأة والاحتماء في كنف الأسرة كصمام أمان تجاه تخبطات العالم الخارجي .

ومن الناحية الفنية يرى الكاتب ان الرواية تجري بطريقة سردخالية من الفن والتشويق، واسلوبها نموذج لطريقة الكتابة السائدة في

تلك المرحلة ، وتعكس الرواية تمثّل الكاتبة للغة العربية بجزالتها وفخامتها ، كما تعكس رؤيتها الأخلاقية التقليدية السائدة لدى أدباء تلك المرحلة والتي هي خلاصة تأثرهم بالفلسفات والمفاهيم المثالية، مما يدفع الكاتب الى اطلاق مصطلح «الأسلوبية التعليمية » على هذا النوع من الادب ..

الرواية الثانية « أروى بنت الخطوب » لوداد سكاكيني ، يعتبرها الكاتب مثالا آخر للاسلوبية التعليمية ، و « توطد الاتجاه الاكثر بروزا في الادب النسائي نحو التركيز على المرأة بدلا من الرجل في العالم الروائي ».

تجري أحداث الرواية في القرن الرابع الهجري ، وبطلتها أروى من بادية الشام وهي مثال المرأة الخلوق والجميلة ، تتعرض للظلم الفادح بعد اتهام زوجها لها بالخيانة والتشرد وتباع وتشرى ، وتتنقل بين بلدان كثيرة ، وتتعرض لحملات الرجال الذئبية ، للاعتداء عليها ، لكنها تقاوم ، وتتحول في نهاية المطاف الى قديسة بعد أن تستقر في جزيرة رودس ، ويلتقي في ساحتها زوجها النعمان وجميع الذين أساؤوا اليها يطلبون المغفرة فتسامحهم وتباركهم وتموت أثناء أدائها الصلاة ...

تعكس الرواية موقفا نسائيا متشنجا من الرجال .. فالبطلة مثال للطهارة الأنثوية .. والرجل على اختلاف مكانته وثقافته ماهو إلا الشهوة الدنيئة وما تجره من شرور ودسائس ومكائد ضد البطلة ... ويعيد الكاتب السبب في نشوء مثل هذه المواقف التشنجية لكل من المرأة والرجل تجاه بعضهما البعض ، والذي يظهر في أدب الرجال أيضاً ، يعيده « الى المرحلة الانتقالية التي تكون عادة بين انهيار المجتمع الاقطاعي وقيمه ، وبروز المجتمع البورجوازي قبل ان تتشكل قيمه المعروفة » اضافة الى الحاحه على أهمية العامل النفسي لدى الكاتبة ، والذي يدل على موقف غير طبيعي من الرجل .

ثم ينتقل الكاتب بعد ذلك الى إلقاء الأضواء النقدية على تلك الرواية كتكنيك فني كما يخلص الى أنها لا تتوفر فيها شروط الرواية، لكن علينا تقبلها كعمل رائد .

الرواية الثالثة : « ايام معه » لكوليت خوري ، يعتبرها الكاتب « اول صرخة نسائية جريئة وخارجة عن التفكير وذات نفس معاصرة» واذا كانت القصة السابقة بمفاهيمها ومدلولاتها النفسية والفكرية هي انعكاس للمرحلة الانتقالية بين الاقطاع والبورجوازية ، فإن ايام معه تعكس رؤية الطبقة البورجوازية للحب والرجل للحياة بشكلها الاكثر اتساعا...

١ ـ ويعتبر الكاتب «ايام معه» « قصة بسيطة وغير معقدة ، وخلاصتها أن البطلة ريم فتاة دمشقية من وسط بورجوازي تقع في حب زياد الموسيقي الكهل، وتثور على التقاليد والاهل، ثم ينتهي حبها بالخيبة وتقرر السفر الى اوروبا » وثورة ريم على التقاليد تتمثل في مطالبتها بالحرية الفردية للفتاة في الحب والتعليم وهي أيضا ثورة على الاخلاق البورجوازية التقليدية .

٢ ـ لكن ثورة ريم في رأي الكاتب « كثورة جيلها ، احتجاج سلبي يفتقر الى المقومات الايجابية ، والمهم ان الثورة تخفق في النهاية، ويتبين انها لم تكن سوى حلم على الرمال »... « وكذلك أخفقت الثورة لانها كانت فردية جدا ومحصورة جدا لم تؤثر فيمن حولها لا من قريب ولا من بعيد لم تؤثر التأثير المطلوب في نفسية البطل مع ان الظروف كانت مهياة لذلك » .

٣ ـ « لقد أحست البطلة بالإخفاق فقررت السفر الى أوروبا ... ... وربما كان هذا القرار يرمز الى ان ثورة ريم لم تكن كاملة المقومات وأنها تحتاج الى ان تستفيد من التجربة الاوروبية ... »

٤ ـ ويعتبر الكاتب ثورة ريم لا تحرك انسانا ، ولا يمكن ان نلمح فيها « ولو شبه نموذج لبطلة » ويعزو ذلك ـ اضافة الى الأسباب الفنية التي تتعلق بحداثة تجربة الكاتبة في التاليف الروائي ـ الى أن ريم « فتاة بورجوازية ثرية تقبل على العمل لتزجية الوقت معارفها من الوزراء والامناء العامين ، تستطيع ان تشتري كل الاثواب الموجودة في السوق ـ وربما أوحى ذلك الى القارىء أن ثورة ريم ليست إلا جزءاً من برمها بفراغ حياتها ، انها تزجية للوقت بمعنى من المعاني ولذلك يصعب اخذها بجد . إن عذابات ريم وقلقها واحزانها تبدو فقاعات على السطح غير قادرة على اثارة الشعور بالتعاطف لدى القارىء . بل ان حبها ليبدو مجرد محاولة من أجل امتلاك فنان كبير وان الانسان ليقدر رفض زياد لان يكون جملة من ممتلكاتها » .

٥ ـ « وليس في الرواية شيء من مقومات العظمة التي تنسج المؤلفة هالتها على ريم .. وتظل مشكلة ريم في النهاية غير واضحة ، وغير مثيرة للاهتمام الجدي » .

ثم ينتقل الكاتب الى معالجة القصة فنياً فيصفها بانها اقرب الى بناء القصة الحديثة، وانها تمثل تطوراً مرحلياً أولياً في التاليف القصصي . رغم أن الموضوع معالج بشكل مسطح وبأسلوب مغرق في العاطفية .

لن أناقش الكاتب في اعتراضاته الفنية على الرواية ، وعلى طريقة بنائها ، لكنني اعتقد انه ارتكب مغالطة مجحفة عندما نظر الى مضمون الرواية من وجهة نظر ماركسية ادت الى تشويه كلي لشخصية البطلة خاصة ولمدلولات الرواية بشكل عام .

ان محاولة رؤية البطلة من وجهة نظر طبقية والحكم على تجربتها وانعكاسات هذه التجربة على شخصيتها من هذه الزاوية الضيقة لهي محاولة عقيمة تؤدي في النهاية الى مسخ شخصية « ريم » مسخاً ظالماً ومتجنياً ..

فالرواية يمكن اعتبارها ـ بعد كثير من التجاوزات ـ رواية نفسية في اطار عاطفي تصف التحول النفسي الذي يطرأ على البطلة خاصة وعلى البطل أيضاً نتيجة تجربة حب معينة حدثت ضمن ظروف بيئية واجتماعية

محددة ... ولهذا السبب يجب النظر الى الرواية كمدلول عام ، والى شخصية البطلة من زاوية اخرى .

وبعبارة اخرى يجب أن نولي البعد النفسي في تحليل شخصية ريم الاهمية الاولى دون اغفال البعد الاجتماعي للرواية من حيث هي احتجاج مقنع على مواضعات اجتماعية متخلفة ...

١ ـ لا نستطيع أن نطلق على تجربة ريم مصطلح « ثورة » انها تجربة حب لفتاة تتمتع بوعي متميز عن وسطها الطبقي ومجتمعها العام ايضاً . وعي على الصعيد النفسي والاخلاقي والفكري والاجتماعي ، لذلك تخفق كلمة ثورة في اعطاء قناعات ريم وممارساتها التفسير المطلوب ...

وتجربة الحب هذه لا تنتهي بالخيبة ، انما تنتهي بانصهار ريم الفتاةالعاطفيةالرومانتيكية وتحولها الى فتاة قوية نفسياً وفكرياً ... ان ريم الجديدة تقرر السفر كتعبير عن رغبة في الانعتاق من إسار مفاهيم وقيم احادية الرؤية . رغبة الانعتاق هذه انعكاس لفقدان المصطلح المشترك بينها وبين « زياد » الذي هو فعلاً نموذج رجلنا الشرقي المحكوم بكبته التاريخي المزمن .

٢ ـ تجربة ريم اذن ليست ثورة ، انما هي ممارسة غير مالوفة لقناعات وقيم محددة وهي ليست بالتالي تعبيراً عن مفاهيم الطبقة البورجوازية... وهي بالتالي ليست احتجاجاً سلبياً يفتقر الى المقومات الايجابية ، انها احتجاج ايجابي بدليل تحوله الى ممارسة حياتية عملية ، وقد نجحت هذه التجربة رغم فرديتها .. ان ريم فتاة تتمتع بوعي خاص وبمقومات التميز عن فتاتنا الشرقية التقليدية ، نجحت تجربتها بفضل شجاعتها وجرأتها ، اننا لا نستطيع سوى أن ننظر بعين الاعجاب الى جراة ريم حتى ولو كانت هذه الجراة بدافع الحب ، أي بدافع المصلحة الشخصية . وفردية التجربة تاتي لان نموذج ريم يكاد يكون معدوماً في مجتمعنا ، لا لان التجربة غير صحية وغير سليمة ... وأساساً نحن لا نستطيع أن نطلق احكاماً تقييمية على اي شيء لمجرد كونه فردياً او جماعياً .

ان اخفاق الحب او انتهاءه في اعماق ريم لا يعني اخفاق التجربة ، ان كل عاطفة لا بد لها أن تتحول الى شيء آخر من خلال مسيرتها واخذها لكامل ابعادها الطبيعية ... ان اي شيء في العالم يتحول ويتغير ... لقد انتهت اسطورة المنطق السكوني ... ان المتغيرات تفرض نفسها دائماً على العالم والمجتمعات وعلى حركة التاريخ وكذلك على الانسان في تكوينه وتطوره النفسي والفكري ... وهذا ما حدث مع ريم وزياد ..

بعد ان انتهى الحب في كيان ريم وهذه نهاية طبيعية جدا ، اذا اخذنا بعين الاعتبار شخصية ريم وزياد وطبيعة تجربتهما .. بعد انتهاء هذا الحب عند ريم عادت لها ثقتها بنفسهاوقوتهاالنفسية ص ٣٢٣ ، ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧ . لقد اكتشفت

ان الحبيب « الرجل » ليس محور الكون ص ٣٤١ وتزايدت رغبتها في الانعتاق من هذا الحب المفلوط ص ٣٤٤ ، وتولدت لديها تدريجيا ارادة التغيير ص ٣٧٠ واكتشاف عوالم جديدة وآفاق جديدة لحياتها ، اي اكتشاف الحياة بمعناها الواسع الحقيقي ص ٣٨٦ ص ٣٩٧ ... ٤٠١ .

وزياد أيضا اصابه التغيير الجذري بعد مروره بتجربة الحب مع « ريم » الفتاة المتميزة ، ولقداعترفالدكتور حسام الخطيب بذلك في مقاله ، واعتبر تغير كل من زياد وريم « ذروة التطور النفسي في الرواية » ... لقد كان زياد نموذجا لرجلنا الشرقي الذي تستهويه المرأة كجسد وشكل جميل فحسب ــ هذا الاستهواء الذي هو تعبير عن مراهقة عاطفية وافتقار الى النضوج ــ والذي يعتبر الحب الواضح الجاد قيداً ، هذا الحبالذي يولد لديه شعور الامتلاك الكامل للانثى مما يجعله يعتبر هذه الانثى شيئا هامشيا في مجالات حياته الاخرى ، وهذا طبعا نتيجة كبت تاريخي مزمن ص ٢٥٠ ــ ٢٥١ ص ٢٦٧ ــ ٢٦٨ .

لكن زياد بتفاعله مع « ريم » وادراكه لما تمتع به شخصيتها من تفرد ، ونفسيتها من حساسية ورهافة ص ١٥١ يصاب بالدهشة في البداية ، ولكنه يرتكب الخطا الذي يؤدي الى انتهاء شعور ريم بالحب تجاهه . هذا الخطا في أنه يعاملها منطلقا من أحكامه المسبقة ونظرته السابقة الى المرأة ... وبفقدانه لريم يدرك خطاه وخطا معتقداته ومفاهيمه ويتحول الى رجل جديد ولكن بعد فوات الاوان ...

٣ ــ لم تحس البطلة بالاخفاق .. انما أحسب بالرغبة في الانعتاق نتيجة فقدان المصطلح المشترك بينها وبين البطل فقررت السفر كنوع من التغيير واغناء الحياة ، وهو ليس سفراً نهائياً ، انما هو رحلة استجمام تعود بعدها الى بلدها الذي تحبه والى اناس بلدها الطيبين ــ كما عبرت في أكثر من موقع في الرواية ــ وعلى هذا الاساس يكون التفسير الذي رجحه الكاتب لهذا السفر مستبعدا .

٤ ــ من الظلم ان نعتبر تجربة ريم لا تحرك انسانا ، بل هي تجربة حب صادق لفتاة صادقة . وسرد ريم لتجربتها يخلق تعاطفا شديداً لدى القارىء ان تجربة ريم تؤثر في انسان يتشابه نوعيا مع ريم . ان القدرة على الايحاء بالواقع L'illusion du réel والتي تعتبر محكا أساسيا لنجاح أيةشخصية روائية متوفرة في شخصية ريم .

ان القارىء يقتنع بحقيقية ريم وبإمكان وجودها بيننا ونحن نلمح في الرواية بل ونستمتع بالبراعة الواضحة في تصوير الاحاسيس وتطور الانفعالات . ان ريم نموذج غني لبطلة روائية ، نموذج نام باستمرار ، متحرك باستمرار ، متكامل الابعاد ، رغم العيوب الفنية المحضة التي لعبت دوراً في بناء الرواية .

اما الصورة التي رسمها الكاتب عن ريم البورجوازية الثرية فهي صورة ظاهرية ومتجنية. ان ريم الحقيقية، ريم كما نلمحها في بداية الرواية، فتاة دمشقية تشعر بالتميز وترفض الحدود الاجتماعية التي تمنعها من تحقيق ذاتها ص ١٤ ص ٥٠ ص ٣٨ ، وتعبر بأسى عن فقدان المصطلح المشترك مع أهلها ـ الطبقة البورجوازية ـ ص ٢٥ ، ويتجلى ضيقها وتمردها بردود فعل انفعالية تقترب من العصابية ص ٣٦ ، ونتيجة احساسها بذاتها الانسانية تفقد حتى احساسها بالأنوثة ص ٢٧ ، وهي تشعر بالفراغ نتيجة للخواء العاطفي ص ٢٨، وهذا ما يشعر به أي انسان طبيعي ـ وليس لأنها بورجوازية ثرية تمتلك كل شيء ... ـ وهي تعبر عن شعورها باليأس بأسلوب هروبي يتجلى في الانغلاق على الذات والنوم لساعات كثيرة ص ٣٦ .

انها فتاة مغرقة في العاطفية والاحساس بالحرمان من الحنان ص ٥٣ ثم يأتي الحب ويغير كل شيء ... ولا يحق لنا أن نعتبر حب ريم لزياد مجرد محاولة لامتلاك الحبيب . قد تعكس الرواية بمعنى من المعاني أزمة الشعور بالامتلاك بين الرجل والمرأة ، لكن الامتلاك الحقيقي في الرواية امتلاك معكوس ، انه شعور زياد بامتلاك ريم وقد عبرت ريم عن ذلك بقولها « أنا امرأة يعرف أنها دوماً بانتظاره » ص ٢١٢. واذا كانت ريم قد أحست في النهاية بامتلاك زياد فذلك أتى بعد انتهاء الحب لديها. لقد أحست بامتلاكه الكامل بعد أن أدرك أنه فقدها وفقد حبها ، وهذه هي أزمة الرجل الشرقي ...

٥ ـ عندما ننظر الى شخصية « ريم » من الداخل ونأخذ بعين الاعتبار البعد النفسي في هذه الشخصية ينتفي لدينا الاعتقاد بأن هالة من العظمة المصطنعة تحيط بشخصية « ريم »، وتتضح أمامنا هذه الشخصية ذات الأبعاد المتعددة والمركبة ، وبالتالي تستحوذ تلقائياً على اهتمامنا الجدي .

وعلى العموم تمتاز هذه الدراسة بالمنهجية الواضحة في جميع اجزائها .. وبتلك البراعة في الربط بين المتغيرات التاريخية والاجتماعية التي أصابت القطر العربي السوري وما أعقبها من متغيرات فكرية ، وبين المتغيرات التي أصابت الأدب النسائي في مضامينه ، وتطور نظرته الأخلاقية ، نوعية مطالبيه ، الى جانب تطور الشكل الفني الذي تتحقق فيه هذه المضامين. ولكن مما يؤخذ على الدكتور الخطيب في دراسته هذه هو أنه لا يفرق بين الواقع والخيال . انه دائماً يعتبر الشخصية الروائية تعكس بالضرورة شخصية مؤلفتها . مما أدى به الى الابتعاد عن الموضوعية في دراسته لكل من روايتي « أروى بنت الخطوب » و « أيام معه » ، وتتجلى هذه الملاحظة بشكل أوضح من خلال حديثه عن « أيام معه » حتى ليكاد يختلط علينا الامر ، هل هو يتحدث عن «ريم» بطلة الرواية ، أم عن كوليت خوري المؤلفة . ان ريم ليست بالضرورة كوليت خوري ولا شيء يثبت ذلك وليس مطلوباً من النقد اثبات ذلك أو نفيه . بل هنالك ما يثبت العكس ... لأن «ريم » نموذج ناجح فنياً لبطلة روائية

ولم يكن ليتحقق ذلك لولا الانفصال الموضوعي بين الكاتبة وبطلتها .. هذا الانفصال الذي يعتبر محكا فنيا آخر لنجاح اي كاتب في خلق شخصياته سواء كانت هذه الشخصيات روائية او مسرحية . ربما كانت ايام معه في مغزاها العام تعكس رؤية كوليت خوري للحياة ، لكننا لا نستطيع ان نقول ان « ريم » هي كوليت خوري .

كذلك الامر بالنسبة لاروى بنت الخطوب ، قد يكون نموذج أروى يعكس كما قال الدكتور الخطيب موقفا متشنجاً من الرجل ، ولكن هذا الموقف المتشنج لا يعكس بالضرورة موقفا شخصيا مماثلا لدى وداد سكاكيني ، انه يعكس اخلاقيات سائدة وشائعة في مجتمعنا في تلك المرحلة الزمنية ، لذلك كان في الحاح الدكتور الخطيب على تسليط « الضوء الفرويدي على حياة المؤلفة وطفولتها وتجربتها مع الرجل » شيء من التحامل .

غادة السمان : الغربة والخلاص :

يرحل بنا الاستاذ رياض عصمت من خلال لغة انشائية جميلة في عالم غادة السمان ويبين لنا تطورها النفسي والفكري من الفردية المحضة الى تزايد ادراكها لأهمية الحلول الجماعية للمشكلات الاجتماعية والقومية . بل يرحل بنا الى أبعد من ذلك ليقول ان الخلاص الوحيد من الشعور بالغربة والاستلاب الوجودي الذي عانت منه الكاتبة ـ كفتاة بورجوازية تتمتع بقدر كبير من الثورية الرافضة ـ في حياتها ، وعكسته على أعمالها الادبية ، يمكن في الالتزام الاجتماعي ، والذوبان في القضايا العامة ، ووعي التناقضات الطبقية وظواهرها السلبية في المجتمع . ويعتبر مجموعتها الاخيرة «رحيل المرافىء القديمة » الدليل على تطور هذه الرؤية لدى غادة السمان ، أما مجموعة « ليل الغرباء » فهي « بداية التطلع الى المرحلة الجديدة » ... لأنها تمثل « أقصى مراحل القمة الذاتية والغربة » .

وينوه الى أن هذا التطور في الموقف النفسي والفكري لدى الكاتبة قد انعكس أيضا على الشكل الفني من « انطباعية تضاءل أثرها في أدب العالم الى تعبيرية واسعة الضفاف ... » .

ثم ينتقل الى القاء الاضواء التفسيرية على قصص « رحيل المرافىء القديمة » لتدعم رأيه السابق في غادة السمان وأدبها . وبعد ذلك يتعرض لبعض العيوب الفنية في قصصها.

والمقال بشكل عام يعكس رؤية خاصة جداً لغادة السمان وأدبها ، إن رياض عصمت ينطلق في دراسته من موقف فكري معين يعكسه على غادة السمان كإنسانة وككاتبة . ويخرج القارىء بانطباع مفاده أن رياض عصمت تعمد التركيز على مجموعة « رحيل المرافىء القديمة » فقط ليصل الى نتيجة ان أدب غادة السمان يمثل موقفاً فكرياً ماركسياً تنتفي عنه صفة الفردية وان قلق غادة السمان وشخصياتها ليس قلقاً وجودياً بل هو قلق اجتماعي ثوري أي أن مسبباته تناقضات اجتماعية تحس بها الكاتبة وشخصياتها ...

١ ـ على افتراض أن هذه الرؤية التي اكد عليها رياض عصمت لتطور غادة السمان الإنسانة صحيحة ، فهي صحيحة على الصعيد النظري فقط . لان غادة السمان الإنسانة تعيش عملياً حياة بورجوازية بكل ماهذه الكلمة من معنى ولها ملء الحق في ذلك ، مما يدفعني إلى القول إن رياض عصمت أيضاً لايفرق بين الواقع والخيال ، بين الشخصيات والرموز القصصية وبين الكاتب وممارساته العملية .

٢ ـ تفتقر الدراسة إلى نظرة شمولية تحليلية لأدب غادة السمان ككل . حتى على صعيد مجموعة « رحيل المرافيء القديمة » يصعب إطلاق هذه التفسيرات الفكرية ـ السياسية ، والادلاء باحكام فكرية تقييمية لان مثل هذا الأدب يصعب الجزم بإيحاءاته ودلالاته الفكرية ، وقد أدرك ، رياض عصمت ، بشكل ما ذلك، وادرك ان رؤيته هذه قد تتضمن قدرا من المغالطة وقد توقعه في شيء من التناقض لذلك نراه يقول في نهاية المقال « وقد تتهم غادة السمان بالفردية والياس والتشاؤم ، ولكني أرى في بحثها الوجودي الدائم عن ذاتها اكتشافاً للعالم ، وانتماء فكرياً للموقف التقدمي إزاء مايحدث حولها ».

إن هذا القول يتضمن اعترافاً غير مباشر من الكاتب أن رؤيته خاصة جداً وأن غادة السمان على الصعيد النظري أيضاً مازالت تعكس في أدبها موقفاً وجودياً ذاتياً من الآخرين ومن العالم ومن الكون أيضاً .

[المرأة في المسرح العربي] :

يتحدث وليد مدفعي في دراسته هذه عن دور المرأة في المسرح العربي ويتركز بحثه في إطار زمني يمتد من نهاية القرن الماضي حتى عصرنا الحاضر .... ويتعرض من خلال ذلك للظروف الاجتماعية التي جعلت دور المرأة كممثلة مسرحية قاصرا ومحدودا في البداية ولايتعدى محاولات فردية يتيمة في غالب الاحوال .... ومن خلال حديثه ندرك اسباب شيوع المسرح الغنائي وجوقات المطربات .. ثم يعدد الفرق المسرحية من خلال تسلسلها الزمني ويركز على المسرح في سورية ومصر بشكل خاص ... ويعدد أسماء الرائدات في المسرح والغناء في كلا القطرين. والموضوع شيق وممتع ، وكان بالامكان أن تاتي الدراسة على قدر اكبر من المتعة والتشويق لولا افتقارها الى المنهجية في جميع اجزائها وفي العرض التاريخي لكل من نشوء المسرح في سورية ومصر خاصة ونحن نلاحظ التداخل بين العرضين مما يوقع القاريء في شيء من الارباك ....

دوحة الادب وجه من وجوه الحركة النسائية :

ينقلنا الدكتور شكري فيصل عبر انطباعات ذاتية مكتوبة بلغة جميلة ورقيقة الى فترة قريبة من تاريخ النهضة النسائية السورية ، ويتحدث عن مدرسة دوحة الادب ودورها الواضح في تنشيط الحركة الاجتماعية النسائية في بلدنا وبين شعاراتها وأهدافها المتاثرة بالحركة الثورية في الجزائر التي تدعو

الى العلم والمعرفة ، وكذلك الى تحرير المراة وأن أهدافها التحريرية هذه منبثقة من خلال روح المحافظة والمناقشة المعتدلة ... ثم ينهي مقالته بالحديث عن وجوه هذه الحركةالرائدة ولاسيمارئيستها المرحومةعادلة بيهمالجزائري وما تتمتع به من صفات متميزة ....

[تطور تعليم الاناث في سورية] :

تتحدث السيدة نبيلة الرزاز في دراستها هذه عن تطور تعليم الاناث في سورية في جميع مراحله : الابتدائية ـ والاعدادية والثانوية ، ثم تتحدث عن التعليم الجامعي للاناث وتطوره ، ولا تغفل الكاتبة الوضع التعليمي للمراة الريفية فنراها تتعرض للاسباب التي ادت الى تخلفه النسبي عن تعليم الاناث في المدن ... والدراسة بمجملها مفيدة اذ انها تتضمنمعلومات تخصصية ذات طابع إحصائي مع عرض سريع للاسباب الاجتماعية المتحكمة في مسيرة الخط البياني لتطور تعليم الاناث في سورية ...

مواقف مضيئة في تاريخ المراة العربية :

يتحدث الاستاذ صلاح الدين الخالدي عبر استعراض تاريخي منذ الجاهلية حتى ايامنا هذه مروراً بالعهد الاول للاسلام ثم العهد الاموي فالعهد العباسيعن مظاهرايجابية نسبياً في وضع المراة . ويتطرق الى ذكر بعض النساء الشهيرات في تاريخنا العربي من اللواتي تجاوزن عصرهن وشاركن في جميع المجالات الادبية والفكرية والعلمية ... الدراسة بمجملها ذات طابع مدرسي تتميز بالوضوح والتسلسل التاريخي ....

* * *

١ ـ من خلال نظرة كلية الى ملف المرأة تبين لنا أنه مجموعة مقالات متفرقة لارابط مشترك بينها .

٢ ـ افتقاره الى دراسات تتعرض لمشكلات المرأة العصرية وفيمجتمعاتنا الشرقية خاصة .. سواء كانت هذه المرأة زوجة أو فتاة ... دراسات تتضمن تحليلالمشكلات المرأة النفسية وأوضاعها الفكرية والعاطفية والجنسية وهل الانثى الشرقية في محاولتها الدخول الى عالم العصر الحديث .. عالم القرن العشرين تسير في طريق صحيحة وسليمة ؟؟؟

٣ ـ افتقاره الى دراسات أكثر جرأة وصراحة في طرح مشكلات المرأة تضعنا أمام تساؤلات عديدة : هل تحررت المرأة فعلا ؟ .. وهل المنطلقات التي انطلقت منها الاصوات التي تدعو الى تحرر المرأة خلال عام المرأة وقبله هي منطلقات حيوية ؟ .. بعبارةأخرى هل الدعوة الى تشجيع دخول المرأة ميادين العمل العديدة ومشاركتها في الحياة العامة الخ .. يمثل عملية التحرر الحقيقيللمرأة ؟ حتى أكثر وجهات النظر حداثة ومعاصرة في قضية تحرير المرأة وهي النظرية التي تنظر الى عملية تحرير المرأة من منظور طبقي هل هي فعلا وجهة نظر تعطي قضية تحرير المرأة بعدها الحقيقي ؟ .. وبصيغة أخرى : الا

ينبغي أن ننظر الى المشكلة نظرة اكثر صراحة وجراة وعمقا فنقر بأن هذه الدعوات مجرد مسكنات للالم لا تشفي المرض ولكنها تخدر المريض وتنقله من وضع معقد الى وضع اكثر تعقيدا ..

* * *

ماذا بقي من المرأة بعد كل هذه الدعوات؟

بقيت المرأة الاعماق .. المرأة الكيان التي تصرخ بعصابية أحيانا وبيكاء صامت احيانا أخرى : أعيدوا لي حقيقتي الاولى .. أعيدوا لي أصلي الطبيعي وجذوري الفطرية ... أعيدوا لي وجه الانوثة الصحي والمعافى .. اعترفوا بأن دوري الطبيعي في استمرار البقاء الانساني لا يقل اهمية وفاعلية عن دور الذكورة، اعترفوا بأن الذكورة ليست هي الاصل .. ليست هي الاقوى .. ليست هي عماد الوجود انسفوا كل هذه التراكمات التاريخية الذكورية المستترة بـرداء الايـديولوجيـات الغيبية والعلمانية أحيانا وبرداء العلم أحيانا اخرى والتي استعمرتني منذ الخطوة الاولى في طريق الاستقلال الذكوري الطويلة القاسية ولا تزال. أنا الانوثة المشوهة المقموعة المقهورة .. اعترفوا بتفوقي الطبيعي. اليست عملية الحمل والانجاب دليل تفوق فطري وطبيعي؟.. اعترفوا بأنني لست عنصرا مكملا للذكورة .. بل الذكورة هي المكمل لي ... اعترفوا على الاقل بأنني والذكورة وجهان لحقيقة واحدة هي الانسان.. هي العنصر البشري.. اعترفوا بالغاء الفوارق النوعية المصطنعة والتي اعطيتموها مشروعية مطلقة باطلاقكم عليها صفة الطبيعية بين الذكورة والانوثة ...

تطالبونني بالبقاء في سجني الابدي هذا باسم الانوثة ـ انوثتكم الذكورية ـ هذه هي فروقكم النوعية التي على اساسها تطلقون علي تقييماتكم وتصنيفاتكم ... الا تعرفون ان الانوثة الحقيقية تعني الانعتاق ، تعني الاستقلال النفسي والفكري والجسدي عن التبعية الذكورية ؟ الانوثة الحقيقية لا تعني الضعف ، لا تعني احمرار الخدين خفرا ... لا تعني اخفاض الجفون حياء .. لا تعني اغلاق العقل والفم تهذيبا .. لا تعني الرقة المستضعفة الكاذبة في معظم الاحيان .. أنت أيها الذكر .. أيها الخادع والمخدوع .. أيها القاضي والمتهم ، لماذا تزجني في مثل هذه الازدواجية ؟ لماذا لا تتصور علاقتي بك الا صراعا في سبيل الاخضاع والامتلاك؟... أيها الذكر لماذا انت وانا قطبا صراع عقيم ؟.. حتى عندما نلتقي على صعيد الحب يصبح الحب بيننا قائما على اخضاع أحدنا للاخر .. لماذا يجب أن يكون هناك طرف قوي وطرف ضعيف؟ لماذا يجب أن يكون هناك جلاد وضحية ؟ ..

في أعدادنا القادمة

دراسات

حول الرواية النسائية في سورية (٣)	د . حسام الخطيب
اليكساندر سولجينتسن	لوكانش
زمن العشق والثورة	شفيق مقار
جورج سالم : كابوس الموت وحلم الحرية	رياض عصمت
برناردو بيرتولوتشي	سمير فريد
الفن في عصر الحاسب الالكتروني	طارق الشريف
حول مقولة جوهر الانسان	د . فيصل دراج
عبد السلام عيون السود : الحزن والحب والموت	ممدوح السكاف
الروائي الانكليزي « فورستر »	ولتش الن

قصص

صحراء الربع الخالي الصغيرة	نيروز مالك
في غرفة الاسائلة	حسيب كيالي
الضحك في آخر الليل	عبد الله عبد
اعتراف الزنزانة	صميم الشريف
ثورة الاشياء	محسن غانم
الغول	
المطلق	فاروق مرعشي
الثلج	خليل السواحري
المسيرة على الشاطىء	جورج سالم

قصائد

قصائد الى مريم العاشقة	احمد يوسف داود
حوار الصمت	د . أحمد سليمان الاحمد
سفر الرؤيا	مجاهد عبد المنعم مجاهد
الغزالة تعود الى البحر	عصام ترشحاني
مبارك خطوك في الارض	مريد البرغوثي
فصول حزينة من كتاب الوطن	عمر أبو سالم
قصيدتان على هامش الطريق والذكرى	محمود علي السعيد
أغنيات للحب	عزيزة هارون